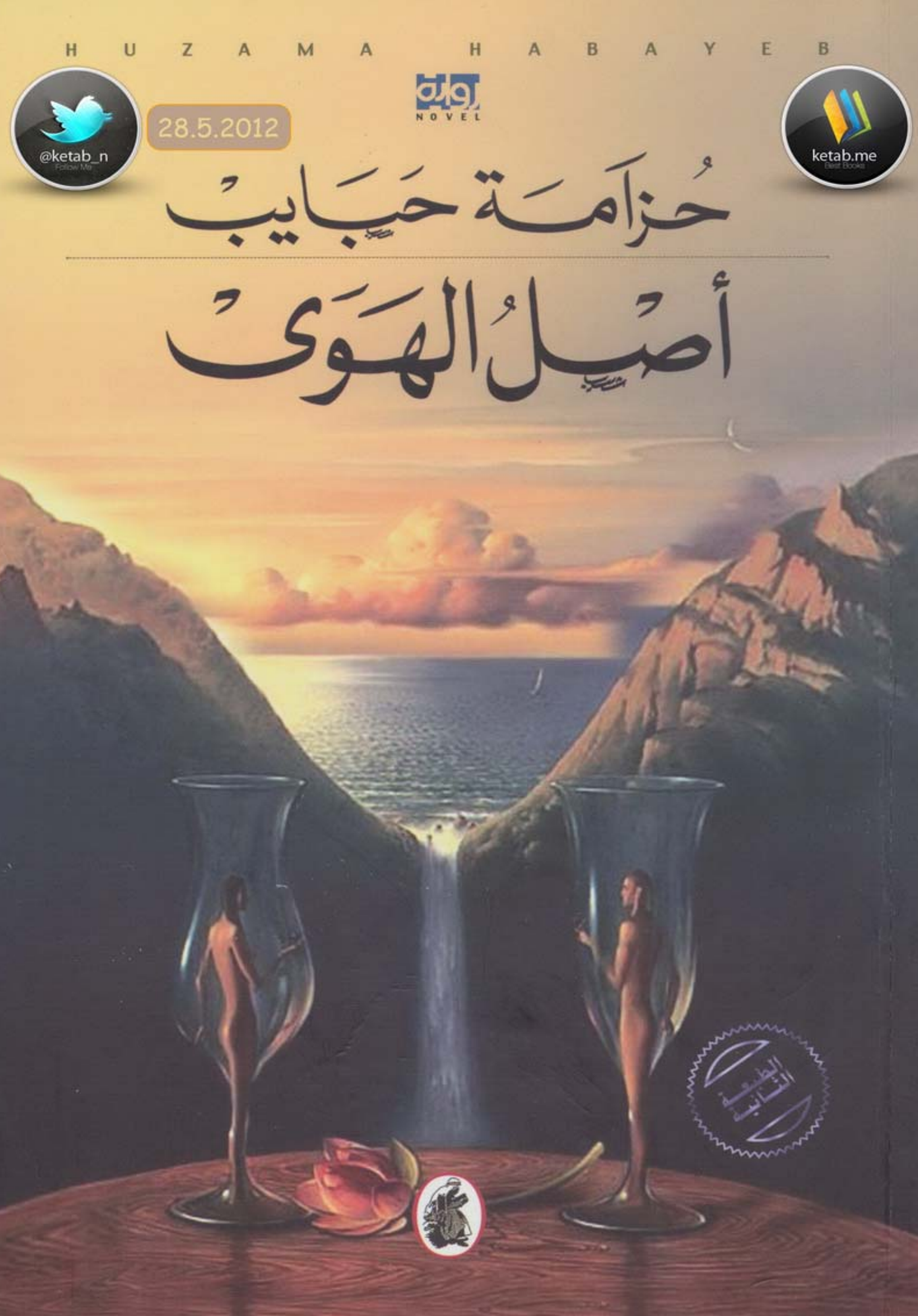

HUZAMA HABAYEB
رواية
NOVEL
@ketab_n
Follow Me
28.5.2012
ketab.me
Best Books
حُزَامَة حَبَايِبْ
أصْلُ الهَوَى
الطبعة الثانية



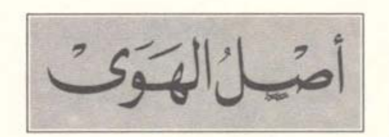
حُزامة حَبايب

أصل الهوى








أصل الهوى

أصل الهوى / رواية عربيّة

حزامة حبايب / مؤلّفة من الأردنّ

الطبعة الثانية ، 2009



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،

ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص.ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962

e-mail: info@airpbooks.com

website: http://www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :

لوحة الغلاف : **ڤلاديمير كوش / روسيا**

الصف الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**

التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-955-0

مدخل

في الصالون ، الذي يرتطمون بتفاصيله شديدة الازدحام أينما ولوّا أجسامهم وأبصارهم ، كانوا . استوطنوا الكنبات . ملأوا فضاء الغرفة الضيق بسحُب دخان سجائرهم ، التي أثقلتها أمزجتهم . استسلمتْ قناة «الجزيرة» للصّمت ، وإن كان صمتها متحفّزًا ، ينطوي على غدر مقبِل جدًا . صُورها فقط كانت تتحرّك ، متنقلةً بين علامتها الذهبية التي تغوص في بحر الشاشة الأزرق وخرائب متجدّدة لمدينة عربية . ببنطلون بيجامة وقميص قطني وشبشب بلاستيكي خرجتْ الإصبع الصغيرة في قدمه اليمنى من جانبه الممزّق ، كان كمال يحمّل فيلم «رسوم متحركة» من الانترنت . اشتكى من صعوبات التحميل واستكشاف المواقع ، التي تتوارى تحت أسماء وعناوين لا علاقة لها بمحتواها الحقيقي .

نظر فراس إلى صورة الرفاق الأربعة ، بالأبيض والأسود ، فوق التلفزيون ، يحمي رفقتهم إطار نحاسي عريض ، وغطاء زجاجي بصدع جانبي لم يتمدّد كثيرًا ، مدققًا في تفاصيل اعتقد أنها فاتته في عشرات المرات التي دقّق فيها . أشار إلى ثاني الرفاق من اليمين قائلاً : «لقد عرفتك . هذا هو أنت .» طفحتْ فوق وجهه نظرة الظافر . . أخيرًا . استدار نحو كمال . كان كمال قد توجّه إلى المطبخ . نادى عليهم : «شاي أم قهوة؟»

استغرق إياد في تقليب صفحات مسجاته على الموبايل . كانت صفحات كثيرة ، تطنّ بتلاحق ، صنع معها وجوهًا كثيرة في وجهه . ما إن تُبرق رسالة ، حتى تصله رسالة أخرى . فيبدو أنه فرحان ، وقد يبدو أنه غضبان ، وقد لا يبدو عليه شيء ، ولا يتواصل أحد مع غضبه أو فرحه أو مشاعره الكثيرة المتحوّلة المتبدّلة بين برقية وأخرى . في النهاية ، ظلّت انفعالاته محصورة في المسافة بينه وبين شاشة الموبايل .

أصغى عمر بانتباه كبير لرمزي ، يقصّ عليه تفاصيل حلمه . استفسر عمر عن تفاصيل سيارة الحلم السوداء . قال له رمزي إنها قد تكون صغيرة في بعض الأحلام ، وفي أحلام أخرى كبيرة ، وقد تكون في شارع غير الشارع نفسه في كل مرة ، وفي عتمة غير العتمة ، لكنها في كل حلم تكون سوداء . دوّن عمر بضع ملاحظات على ورقة ، ثم سأله ما إذا كانت ثمة تفاصيل أخرى في الحلم ، لعلّه نسيها .

لم يحسم رمزي أمره بشأن ما إذا كان يتعين عليه أن يشير إلى تفصيلة الثديْين الممزّقيْن في الشارع . كان قد أغفلها من رواية الحلم عَمْدًا . استحى أنْ يتحدث عن الثديْين أمام عمر ، فقد يجد نفسه مضطرًا إلى وصفهما . آثر أن يسقطهما ، مجازفًا ألاّ يستقيم معنى الحُلم دون التطرق إليهما .

علا الوجوه اهتمام مفاجئ . توجّهتْ العيون نحو مذيعة الجزيرة البكماء .

أسفل الشاشة ، على اليمين ، ظهر إطار أحمر ناري في داخله كلمة «عاجل» .

الجزء الأول

(١)

كمال القاضي
(٥٦ عاماً)

في الصالون جلسا معًا . فصلته عنها كنبة ضخمة تتّسع لفراغ كبير . من بين أغلفة الأفلام الكثيرة ذات الوجوه المفرطة في الإيحاء أرسل نظرة إليها . تجنّبتْ الاصطدام بنظرته . تظاهرتْ بأنها تتأمّل لوحة رخيصة لطبق فاكهة «صامتة» في إناء بهت لونه على الجدار . والشيء بالشيء يُذكر ، فالجدار مزدحم بأشياء تبدو فردية جدًا لا يمكن أن توجد إلاّ في بيت بعينه ، وفي الوقت عينه قد توجد في أي بيت . فهناك السجادة القديمة إياها بالإهاب الذائب المصفرّ ، التي تُوحي بالعتق العزيز ، عليها كما قد تشي النظرة الأولى رسم لخيول ، وربما من نظرة متفحّصة أكثر رسم لنمور في غابة هجرتها الخضرة بعدما تآكل نسيج خيوطها أو اتّسخ ، بفعل الوقت وتحوّلات الأشياء ، أو لعلّ عليها رسم طيور ، أو يمكن رسم ورود ، أو أيّ رسم آخر لا يمكن لأحد أن يستذكره أو يتملّى فيه ، حتى أهل البيت أنفسهم . بالطبع هناك الشهادة الجامعية للابن الأكبر ، يسندها إطار خشبي عريض بزخارف مرهقة ، ولا بأس من مسبحة زرقاء تتدلّى من حافة الإطار ، وإلى جوار الشهادة ، ولمزيد من درء العين الثاقبة ، لوحة من الفضة لعين ببؤبؤ من حجر الفيروز المُترب . على الجدار المقابل ، ثمة ملصق لكوخ اسكندينافي ، مجتزأ من رزنامة العام الفائت ، يستلقي على

كتف جبل شاهق، معلّق في فضاء أخضر تلامس مدخنته ضفاف السماء. تمتدّ على عرض الجدار الثالث نافذة تطلّ على الشارع الخلفي للعمارة، تظلّ مغلقة طوال الوقت كي لا تحمل رائحة أبخرة حاويات القمامة، التي تَثقُل كثيرًا مع لهيب الصيف. افترشتْ مساحة كبيرة من الجدار الرابع خريطة لكامل فلسطين، مثبتة في برواز بلاستيكي، محدّدة عليها أسماء القرى والبلدات كافة.

الصالون صغير. ومع ذلك، هو صالون وغرفة استقبال وغرفة طعام وغرفة معيشة، ويمكن أن يكون للقيلولة حين يتمدّد في الظهيرة على الكنبة الطويلة أمام نشرة أخبار قناة «الجزيرة». إلى جانب طاولة المكتب المحشورة في زاوية الغرفة، حيث جهاز الكمبيوتر والطابعة، بالإمكان في أحيان كثيرة استغلال جزء من طاولة الطعام ذات الكراسي الستّ كطاولة مكتب يضع عليها أكداسًا من الأوراق التي يجلبها من عمله لـ«يعمل» عليها ليلاً، أو مجموعة من مقالات يقصّها من الصحف المؤجّلة قراءتها منذ أسابيع، وبعضها متُراكم منذ شهور، أو تلك التي يطبعها من مواقع الصحف العربية والإنجليزية الإلكترونية في الانترنت، ثم يمضي الليل بطيئًا، يطول بدل أن يقصر، ويأتي على كل رغبة وكل غاية، لينقضي دون أن يعمل على أوراق العمل أو يقرأ أيًا من المقالات المؤجلة. وحين تعلو الأكداس، يتخلّص بعد وقت من تلك التي في القاع. هي أوراق مهمة. يحاول أن يشرح دومًا لزوجته ختام التي تشكو من أن الصالون لا ينقصه كركبة. وطبعًا هناك تلك اللازمة: «البيت ضيق والحمار رفّاس.» ولا يحتاج إلى كبير ذكاء ليدرك أنه هو الحمار؛ فأبناؤه يرفسون في غُربة أخرى غير غربته.

فوق التلفزيون، ربضتْ صورة الرفاق الأربعة الذين رافقوه منذ زمن، يضحكون له وللحياة كما ضحكوا بالأمس، وأمس الأول والأمس الذي

سبقه ، مطمئنًا ، شبه واثق من أن ضحكتهم لن تتوقّف غدًا ، وبعد غد . لم يكبروا ، فما زالوا فتيةً وسيمين بالأبيض والأسود ، لم تخاصم بنطلوناتهم وقمصانهم الستينات المتأنقة دون كلفة ، كما لم تأتِ عليهم أنواء الأيام وأهوالها ، فحافظوا على جِدّة إطلالتهم وطزاجة النظرة ، على الأقلّ في الصورة ، منتشين بعفوية اللحظة ذاتها التي تجمّدوا فيها . وقفوا على كورنيش أطلتْ من خلفه من بعيد أبنية ذات معمار متوسطي الطابع متجاورين ، باسطين أذرعهم فوق أكتاف بعضهم بعضًا ، متداني الرؤوس ، شبه ملتحمين ، كي يظلوا جميعًا في مدى العدسة . ارتفعت من ورائهم موجة كأنهم استشعروها ، ذلك أنهم تأهّبوا للهرب سريعًا بعد التقاط الصورة ، ليغمر رذاذها المرتدّ من سور الكورنيش الواطئ قهقهاتهم العالية . كان فراس قد سأله عن هوية الأشخاص في الصورة . اعتقد أنه استطاع أن يميّزه بينهم . أشار إلى الثاني من اليسار ، كونه في عشريناته الماضية أقربهم إليه في خمسيناته الحالية ، وإن كان شعر الأمس الكثيف لا يتنبأ بصلع اليوم ، حيث القحط شبه كامل . لكنه هزّ رأسه نافيًا أن يكونه . إياد ميّزه بثقة أنه الأول إلى اليمين . فهو الأكثر شبهًا به ، إذا ما هذّب البصر آثار السنين ، لا لأنه أميل إلى الاقتداء بصلعته فحسب ، ولكن لأنه الأقرب في مقاس القامة إليه . لكنّه نفى أن يكونه أيضًا . لم يقل لفراس أو لإياد أي واحد هو من بينهم ، كما لم يروِ لهما قصة الصّحب البعيدين .

استشعر توتّرها وتيبّس جسدها ، فخفّ توتّره وانبسط جسده . ثنى ساقه اليسرى تحت اليمنى وأراح ظهره على الكنبة المزدوجة التي جلس عليها وحده ، في حين اتّخذتْ هي وضعيّة قائمة ، متحفزّة ، في الكنبة المفردة قبالته ، وقد لزّتْ قدميها إلى بعضهما ، شابكةً يديها ببعضهما ، دون أن تسمح لجسدها الضئيل بأن يتحرّر من يقظته المصطنعة . لم يتهيّأ له أنها خائفة ، وإنما على استعداد كي تنهض على الفور وتتوجّه إلى الباب

الخارجي ، تفتحه ، تخرج ، تصفقه بعنف ، وتمضي مسرعة دون أن تنظر خلفها . لكنها لن تخرج ، فهو لم يحسم أمره بعد . ثم إنها معتادة على مثل هذه الأشياء . بكل تأكيد هي معتادة . على الأقل ، لم يرتدِ وجهها أية تعابير من أي نوع . لم تحمرّ خجلاً ، كما لم تصفرّ خوفًا أو تبهت ، فوق بهتانها الخلْقي ، من الرهبة ، أو تتسع عيناها حذرًا وترقبًا . من مثلها تخلع تعابيرها ، فهذا من مستلزمات «الشغل» . لها أن تخاف وأن تضطرب ، لكنها لا تستطيع أن تفصح عن خوفها ، في هيئتها ، أو تسمح لاضطرابها بأن يشي عن نفسه . شاشة عقلها مكتظّة بالحسابات والاحتمالات والأفكار التي تعمل بسرعة . لها أن تفكّر بالهرب ، لكنها يجب ألاّ تهرب . ليس الآن .

- «بيزنيس إز بيزنيس .»

قال لها بإنجليزية ملحّنة ، مائلة ، مرحة على طريقة «البلطجيّة» في المسلسلات المصرية . نظرتْ في ساعتها وهزّتْ رأسها موافقة . سألها عن اسمها . قالت له شيئًا قريبًا من «سو يانغ» أو «سو تشيانغ» . انهمك في معاينة أقراص الـ«دي في دي» دون أن ينظر إليها . قالت له إنه يستطيع أن يناديها ماري . لم ينتبه لما تقوله . أتعبته الكثرة الجميلة المشتهاة وهجمة العري الوفير المحتشد عليه في الأغلفة المستنسخة صورها ، كما الأقراص المستنسخة . اختار قرصًا بعينه لأن الشقراء البهيّة الصقيلة التي تتوسط غلافه ، تغمز بعينها ، مرسلةً نظرة غائمة بريئة على غير ما يتوقعه المرء من النساء على شاكلتها ، وتعبث بأصابعها بحلمتي ثدييها الصلبيْن المشدوديْن الكبيريْن بفجاجة ، وقد افترشا الغلاف بتبجح فاتن ومثير ، أعجبته أكثر من النساء على الأقراص الأخرى ، مع أنه كان يعلم ، بخبرته ، أن النساء على أغلفة الأفلام المستنسخة نادرًا ما يكنّ موجودات في الداخل .

ثديا ماري شبه ممسوحين، أقرب إلى نتوءين تعرّضا لانخساف مفاجئ. صغيرة كانت، في أواخر العشرينات. لكنها لم تكن جميلة. ليست جميلة أبدًا، بتلك السحنة المغولية والبنية الأقرب إلى التقزّم والممتلئة على نحو غير منظم، حيث الكتف كأنها جزء من الصدر، والصدر يلتحم مع الخصر دون تقسيم واضح. على أن شيئًا واحدًا فيها أثاره: أصابع قدميها؛ فقد كانت جميلة على نحو لا تدلّ عليه هيئتها. من أين لها بها؟ كانت دقيقة ومنمنمة، كأصابع طفلة لم تتجلّد ولم تتحرشف بعد. ولعلّها كانت واعية إزاء هذه الصفة الجمالية اليتيمة فيها، إذ انتعلتْ صندلاً مفتوحًا، تنفستْ من فتحته العريضة أصابعها براحة، كما شذبتْ أظافرها وطَلَتْها بلون خمري ذي نسيج مخملي.

لفت انتباهه أيضًا أنّ قدميها كأنهما «غير مستخدَمتيْن»، إذ لا أثر لأي خطوط أو شرايين نافرة عليهما. كانتا، في صفائهما، قريبتيْن إلى أقدام دمى عرض الملابس النسائية في المحال التجارية. وهو يحبّ أقدام تلك الدمى التي تقف مائلة أو تلك التي تكون مستلقية على أرضية واجهة العرض، تستعرض فتنتها بالشورت أو بلباس البحر، دون أن يغفل أصحابها عن أن يطلوا أظافرها بلون الفوشيا الفاقع. وهو يحب أيضًا بشرة الدمى البلاستيكية، يحبّ سيقانها الانسيابية، فلا شعر، لا دوال تضطرّ معها إلى استخدام جوارب الضغط الطبية، ولا «السيليوليت» المقزّز. ويحبّ أكثر أن يرى الدمى صلعاء وعارية، بأثدائها المثلّثة المدبّبة وخصورها الضامرة، التي تنطبق الأكف حولها، وأردافها الدائرية الصغيرة، المضمومة، النافرة، وهي أمنية تتحقق في موسم «السيلز»، حين يُشلّح الباعة اللبنانيون الوسيمون ذوو الشعور الطويلة، المعقودة إلى الخلف في ذيل قصير، والذقون الخفيفة والقمصان المفتوحة على صدور حليقة، بينما يمضغون العلكة، نساءهم الواقفات أو المتمدّدات في الواجهات الأنيقة، واضعين إزارًا خفيفًا حول

خصورهنّ يحمل شعار التنزيلات دون أن تنتصب حواسهم أو يفقدوا ثباتهم في مواجهة أكداس من اللحم البلاستيكي .

عبثتْ بسوار ساعتها بعصبية ، فأدرك أنها تستعجله . المشكلة أنها ليست جميلة . تفرّس فيها دونما إشفاق . هي ليست جميلة أبدًا . وبالتأكيد ما كانت يجب أن تُخلق . أو كانت يمكن أن تُخلق أي كائن ، أي شيء ، إلا امرأة . شلح جاكيت البيجامة البيج المقلمة بالرمادي ، مكتفيًا بالفانيلة القطنيةِ البيضاء على بنطلون البيجامة الواسع . ختام لا تحبّ منظره بالفانيلة وبنطلون البيجامة ، وهو منظر يجلس فيه ويأكل فيه ويشاهد فيه التلفزيون ، وأحيانًا يستقبل فيه الضيوف المتكررين من العائلة والصحب ، وبالطبع ينام فيه . تقول له إنه يبدو في هيئته هذه كالعواطلي ، خاصّة حين يترك ذقنه الأبيض غير حليق في أيّام العطلات . سألته ماري عن عائلته . لم يجبها . ولم يلتفت إليها . وضع فيلم الدي في دي في جهاز التشغيل وأداره .

سافرتْ ختام قبل أسبوعين إلى دمشق لحضور زفاف ابن شقيقها . بعد العرس ، سوف تذهب إلى عمّان للاطمئنان على أحوال عماد ، أصغر أبنائهما الذي يدرس الهندسة المعمارية في جامعة خاصة هناك منذ ثلاث سنوات . مروان ، أكبر ولديه ، الذي درس برمجة الكمبيوتر في الولايات المتحدة والتحق قبل عام بشركة كمبيوتر عالمية لها فرع في دبي براتب خيالي ، يهلّ عليهم في زيارات موسميّة خاطفة . كلما أتى لزيارتهم ، يشكو من أنه لم يجد موقفًا قريبًا لسيارته تحت عمارتهم ، ويتحدث على الموبايل أكثر مما يتحدث معهم . وفي النهاية تأتي تلك المكالمة التي ينتظرها ، فيتفاعل مع الطرف الآخر همسًا وضحكًا ، قبل أن يجد نفسه ، كما يقول معتذرًا ، مضطراً للمغادرة ، فلا يأكل سوى القليل من ورق العنب الذي أمضت ختام الليلة الفائتة بطولها تلفّه من أجله . أما البنتان ، بكراهما ، فكل واحدة مع زوجها وعيالها ، الذين يتكاثرون عامًا بعد عام ،

في بلد ؛ هيام ، الكبرى ، تزوّجتْ قبل سبع سنوات زميل الدراسة في كلية الاقتصاد في جامعة اليرموك . أحبّته وتزوّجته رغم اعتراض أهلها وأهله على الموضوع . بعد ثلاثة أبناء ، انحسر اعتراض الأهل من الطرفين ، وبات يتعيّن عليهم أن يتدخلوا في إصلاح العطب الذي أصاب زواجهما سريعًا ، فلقد تطلّقتْ حتى اليوم مرتين . أما حياة ، التي تصغر شقيقتها بعامين ، فتزوجتْ بعدها بعامين وهاجرت مع زوجها وطفلها حديث الولادة إلى كندا . منذ أربع سنوات لم تزرهم سوى مرة واحدة . أنجبتْ طفلة ثانية أرسلت لهم صورتها عبر الانترنت . بفضل الانترنت ، تدردش ختام معها كل أسبوع ، وقد تعطيها وصفات بعض الأطباق الأمومية النكهة التي تجعل غربتها أكثر احتمالاً وأقلّ قسوة وجفافًا .

ظهرت أمامه على الشاشة امرأة خمسينية ضخمة فاحت منها ألوان كثيرة . بذلتْ جهدًا تجميليًا كبيرًا كي تبدو أصغر سنًا فبدتْ في النتيجة النهائية أكبر . شعرها الكثيف ، الذي يقينًا هو شعر مستعار ، شعّ باحمرار ناريّ غير حقيقي مرهق للنظر ، مشتّت للإحساس . كان طويلاً ومرسلاً ، بلفات وثنيات وطبقات كثيرة زائفة . رسمتْ عينيها الغائرتين بكحل عريض وداكن ، كما طلتْ رموشها الاصطناعية بطبقة سميكة من الماسكارا ، ومع ظلال العين السوداء التي افترشت كامل مساحة جفنيها العلويّيْن ، اللذين تقابلت ظلمتهما المطلقة مع حمرة شفتيها الفجتيْن ، تبدّت في هيئة ساحرة ملعونة . لعن نفسه ، تحمس للعنتها في البدء . غمزتْ له . ثم أيقن أنها تغمز لكل جمهورها المتحمّسين من الرجال الذين يجلسون على الكنبات في صالوناتهم ، أو تنحني قاماتهم أمام شاشات الكمبيوتر في الصمت الذي يخرقه هسيس الشاشة ، حتى وإن كانوا غير حليقي الوجه ، برائحة فم عكرة ، بنصف بيجامة ، وشبشب الحمام . أرسل نظره إلى ماري فوجدها تتأمل صورة رفاق الأبيض والأسود

البعيدين ، ضاحكين ما يزالون ، إلى الأعلى من مشهد الخمسينية ، دونما فضول من جانبها .

انسحبتْ الخمسينية إلى يمين الشاشة ، فبان خلفها سرير مفرد بقوائم حديدية فوقه فراش أحمر ، استند على حائط أبيض قذر . على طرف السرير جلس فتى عشريني أشقر نحيل وقصير ، أو ربّما لم يكتمل طوله بعد ، ذلك أن ساقيه اللتين تدلتا على نحو طفولي لم تصلا الأرض . انتعل حذاء رياضيًا ملونًا . وعندما دنتْ الكاميرا منه ، قدّر من خلال وجهه الطري الخالي من أي أثر لتغضنات أو شعر ذكوري أنه لم يتم عامه العشرين .

قالت له ماري إن زبائن آخرين ينتظرونها ، لا تستطيع أن تتأخر أكثر من ذلك ، فوضع إصبعه على فمه :

- «ششششش!»

عادت الخمسينية ، التي نظرت إلى ماري بلؤم ، لتحتلّ الشاشة بكامل إطلالتها . دارتْ ترهّل قوامها وفيضه ، بلا ضوابط ، من الجوانب بأن ارتدتْ مشدًا للخصر أزرق مطرزًا بخرزات ذهبية لامعة . ارتفع صدرها ، إثر ضغط المشدّ ، إلى الأعلى هائلاً ، كومتين من لحم متفجّر . انتهى المشدّ بتنورّة قصيرة جدًا وعريضة من الشيفون الأصفر ، كشفتْ عن فخذيْن ضخمتين ، كجذع شجرة عتيقة ، أسندتا عجيزة مستطيلة ، مترنّحة . وحين تراجعت الكاميرا إلى الوراء أكثر ، لم تكن هناك أية إضافات أخرى في المشهد الذي روعي فيه الاقتصاد حتى الرخص التام . لم يوجد مقعد أو كنبة ، بإسفنج متخسّف من الجلوس الذي تقتضيه الحياة المألوفة ، لم توجد منضدة عليها شيء من دبق أو غبار . لم تكن ثمة طاولة زينة ، أو ستائر أو مرآة أو خزانة أو سجادة ببقعة من آثار عصير لم يذهب تمامًا مع التنظيف . لم تكن هناك رزنامة أو صفحة شهر منها ، أو صورة في إطار ،

حتى وإن كانت لأناس افتراضيّين، أو منفضة سجائر بها عقب سيجارة أو زجاجة ماء أو كأس ترنّحتْ في قاعها بقايا شراب. فقط كان هناك السرير والفتى والساحرة.

تأمل الفتى ساحرته بعينين جائعتين. شفتاه ارتختا من الذهول وما يشبه عدم الاستيعاب لما سيأتي. أخرجت الساحرة لسانها ولعقتْ شفتيها، المحقونتيْن بانتفاخ صناعي، ببطء. حركت لسانها بحركة دائرية، من الشفة العليا إلى السفلى، ثم من السفلى إلى العليا. وسط طريق اللعق قد تتوقف قليلاً، تمدّ لسانها إلى الخارج أكثر، مصدرةً فحيحًا، ثم تمصّ إصبعها. ارتعشتْ عظامه واضطرب لحمه الرقيق تحت فانيلته القطنية البيضاء.

فتحتْ الدماء مجاري مغلقة في جسده، توزّعتْ في أجزاء الجسد كلها، حتى المهملة منها. صدّ بدايات دوار قبض على رجليه، صاعدًا، في دوامة متسارعة، إلى الأعلى. كان مستثارًا. وكان مرعوبًا. استأذنته ماري في الذهاب إلى الحمّام. فزّتْ من على الكنبة مسرعة، هاربةً من التفاصيل القادمة. حاول أن يستبدل الساحرة الخمسينيّة بصورة الشقراء البريئة، بالحلمتين المترفتين، على غلاف الفيلم فخذله خياله. شعر بألم الرغبة حين تجاهد هذه الرغبة، عبثًا، كي لا تُفصح عن نفسها. ومع تمطّي حيوانه، غصبًا عن رغبته بألا يرغب، اشتدّت حماوة الألم، مستشريًا بأناة عرضيًا وطوليًا وفي كلّ اتجاهات جسده.

غابت ماري في الحمام طويلاً. هرع الفتى الأشقر نحو ساحرته ملقيًا برأسه الصغير على صدرها، داعكًا وجنتيه الغضتيْن في لحاف ثدييها السميك. بضآلته المفرطة وضخامتها الهائلة، حيث ضاقت الشاشة بزوائدها الجسدية، كان يمكن أن تفترسه. فرد ذراعيه فلم تلتفا حولها بالكامل. ضحكتْ باستهزاء. قهقهتْ، ملقيةً رأسها إلى الوراء، فسدّ

فمها المشرع الشاشة ، وبانت أسنانها التي كسا السواد قسمًا كبيرًا منها .
تشمّم الفتى رقبتها وشحمة أذنها التي تدلى منها قرط كريستالي كبير
كثريًا فدفعته بذراعها وطرحته على السرير . حاول أن ينهض فدفشته
بيدها القوية ثانية ، ليسقط جسده على السرير بارتداد أعظم . لم تنتظر أن
ينهض ثانية . أنزلتْ سحاب بنطلونه الجينز . وقف حيوانه كزنبرك ظل
مضغوطًا لزمن في صندوق معتم . رجرجته في يدها ثم عصرته . ضغطتْ
ببطء ، ضغطتْ بقوة ثم أرختْ قبضتها . أسلم الفتى المنطرح على السرير
عينيه الشقراوين المحمرتين ، من الاشتهاء المدرك في غالب الأوقات بالعادة
السرية ، لنصف إغماضة . بدا عاشقًا ، راغبًا خمسينيته بشغف أصيل ،
أصالة الأشياء الأولى والتجارب الأولى المفاجئة والممتعة رغم بدائيتها .
كان يمكن جدًا أن تكون قد تولدتْ لديه مشاعر رومانسية في غير موقعها .
كان مضحكًا ومثيرًا للشفقة . إذ تخدّر جسده ، أخذتْ الساحرة حيوانه ،
في فمها ، تلوكه بشراهة ، وسط تداخل خوارها المسرحيّ مع تأوّهاته
الطفلة ، وحشرجات قوائم السرير الحديدية .

سمع صوت باب الثلاجة في المطبخ يُفتح ويصفق بعنف ، تبعه
صوت تنفس الصودا عند فتح علبة مشروب غازي . عادت ماري إلى
كنبتها في الصالون مرتديةً هيئة مرتاحة أكثر ، تعبّ من علبة كوكا كولا .
استنتجتْ أنها لن تلحق بكل زبائنها ، مستسلمةً ، دون تبرّم كثير ، في
آخر الأمر لشروطه . كرهها ، لأنها خلعتْ تحفّظها ، تشرب الكوكا كولا
الباردة بمزمزة ، وكره أكثر أن تعبّر رغبته عن نفسها فيه بإلحاح ، محاولاً قدر
المستطاع أن يستبطئ انتصابه الملحّ عليه . صعدتْ الرغبة من ساقيه إلى
ريقه الذي جفّ . التفت إلى ماري . كانت قد خلعتْ صندلها ورفعتْ
ساقيها على الطربيزة ، متحرّرة من يقظتها ووعيها بعلاقتها بالمكان ،
متخفّفة من يباسها الأول ، شبه مستلقية على الكنبة ، بعلبة الكوكا كولا

الفارغة تتأرجح في يدها . صفرة وجهها التي بلغتْ أشدّها مع إخراجِ الساحرة الخمسينية لسانها انحسرتْ . كأنها نعسانة ، أو تقاوم ارتخاءً لذيذًا ، لا بدّ وأنه حاصل بعد القيام بمجهود عظيم . استأذنها في مغادرة الصالون . لم تلتفت له . كانت تتابع باهتمامٍ غير متوقّع سحر الخمسينيّة الأسود يفعل فعله بالفتى الذي انكمش أكثر بينما ابتلعه موج الغيبوبة .

نهض مسرعًا ، متوجهًا إلى الحمام ، يُقاوم استفحال ألم الرغبة في لحمه الرقيق . ما إنْ تحرّر زرّ بنطلون البيجامة من عروته حتى نطّ عضوه من فتحة الكلسون ، متنفّسًا ، متمدّدًا ، نافضًا آثار حبسه . أطبق بكفّه عليه كفم ، يتّسع أو يضيق . ضغط عليه . فركه . ذهب فوقه عدة مرات . كفّه كانتْ جافة . بحث عن الصابونة . كانت قد اختفتْ . ماذا فعلت بها ماري؟ بسرعة ، صبّ في كفّه قليلاً من شامبو «بيبي جونسون» الذي تستخدمه ختام . انزلق السائل الصابونيّ اللزج على عضوه ، فتعاظم استنفار أحاسيسه على مزيج الرطوبة واللزوجة والبرودة فوق سطح حار ملتهب ورغبة أشدّ التهابًا . وقعتْ عينه على مرآة الحمام ، فأبصر الساحرة الخمسينية تقضم عضو فتاها ، فأطبق عينيه بشدة ، ليفتحهما في خياله على مشهد غرفة الفيلم نفسها ، لكن غرفة خياله أكثر اتساعًا ، أشرح للنّفْس ، أبهى للقلب وذات تفاصيل مقنعة أكثر ، وثمة سرير آخر فيها غير السرير الحديدي ، من الخشب البني وبقوائم تتدلّى منها ستائر من الشيفون الأحمر ، ترتفع الستائر ، فتكون شقراء الغلاف مستلقية على السرير ، تبسط لرجل ، يشاء أن يكون هو حين تستدير الكاميرا نحوه ، جسدها العاري إلا من سلسلة تعبث بها في فمها ، رافعة رجليها المضمومتيْن إلى أعلى لتعطيه زهرة مخروطية بعنق صغير نافر إلى الأمام . تنادي عليه كي يسرع ، فيدقّ عنق زهرتها .

تسارعتْ حركة كفه فوق عضوه . سال جزء من الشامبو على

الأرض . بضع قطرات منه لطختْ بنطلون بيجامته . غام بصره تدريجيًا ، فاهتز مشهد شقرائه ، متداخلة شفتها التي تعضها بأسنانها البيضاء وهي تستلذّ المتعة مع شفة الساحرة الخمسينية العريضة . استعاد شقراءه ، مخلِّصًا صورتها من لعنة الساحرة بصعوبة ، متابعًا حركته المحمومة السريعة فوق حيوانه الناهض . جمعتْ رغبته الموزعة في أقاصي جسده ذاتها ، متوجهةً نحو نقطة النشوة بسرعة سيل هابط من جرف سحيق . عندما انتفض بعنف أخيرًا ، ارتفعتْ معه أحاسيس كثيرة ارتطمتْ بسقف جسده قبل أن تهبط ثانية ، فيهبط معها أرضًا بعد تحليق طفيف . اختفتْ الشقراء والساحرة الخمسينية . غابت عيناه وراء غلالة من عرق نشوة ارتُجيتْ إغماءتها رجاءً حارًا . حين فتحهما قليلاً ، أبصر أمامه سحابة من نتف قطنية بيضاء . فتحهما على اتساع أكبر ، رأى طفلاً يضحك ، على رأسه رغوة صابون ، كأنها سحابة من القطن . على علبة الشامبو ، وتحت صورة الطفل الضاحك بهناءة ، قرأ : «لا دموع بعد اليوم .»

ركبتْ الساحرة فتاها ، رافعةً تنّورتها الصفراء حاسرةً عن عجيزة شديدة الضخامة ، بالكاد استوعبتها الكاميرا العاملة في الفيلم لوحدها . كانت ماري تتابع المشهد بفضول حين قالت له ، دون اهتمام حقيقي من جانبها ، إنه يبدو شاحبًا . جلس بتثاقل على الكنبة . سألته ما إذا كان يشعر بتعب ما . لم يعجبه تلمحيها ، ذلك أنها كانت تهزّ ساقيها على الطاولة وهي تلاحقه ببصرها . فكّر أن يرد على تلميحها اللئيم بأن يسألها عن الصابونة . أين ذهبتِ بها؟ شعر بفراغ كبير ، عميق جدًا ، بحيث أن أيّ شعور وأيّ شيء يمكن أن يسقط فيه . بدأتْ الساحرة في الارتجاج فوق فتاها . بحث عن علبة سجائره ، فوجدها غائصة في زاوية الكنبة . أشعل سيجارة وسحب نفسًا طويلاً . حين انقشعتْ سحابة الدخان ، ظهرتْ له الساحرة ترتجّ ما تزال ، وقد علا خوارها المسرحي أكثر . أخذ الريموت

كونترول من على الطربيزة وأوقف تشغيل الفيلم . نظرتْ إليه ماري متشككةً ، فقال لها :

- لن آخذه . هل رأيتِ الشرموطة التي فيه؟ إنها لا تشبهها .

نقر على غلاف الفيلم الذي يحمل صورة الشقراء الناعسة الفاتنة بعصبية . أنزلتْ ماري ساقيها من على الطربيزة ، وقذفته بنظرة غاضبة :

- هذا أمر لا يعنيني . لقد تفرجتَ على الفيلم كلّه . وسوف تدفع ثمنه . مفهوم!

رمى الغلاف على الطربيزة مغتاظًا ، وأطفأ السيجارة قبل أن تحترق بالكامل في المنفضة المليئة بأعقاب السجائر ، مستجمعًا إصراره :

- هذا غشّ! البطلة في الفيلم ليست هي نفسها البطلة على الغلاف . لن أشتريه .

وقفتْ ماري في هيئة المستعدة لنشب جوارحها كلها فيه :

- كنتَ تستطيع أن توقف الفيلم من البداية ، لا أن تشاهده حتى النهاية ثم تقول إنه لم يعجبك .

غدتْ الآن أطول قامة مما كانت عليه قبل ساعة . لم تعد تلك البائعة المتوسّلة التي فتح لها الباب تنوء قامتها القزمة بحقيبة جلدية مهترئة مليئة بأفلام الـ«دي في دي» المستنسخة . «Please sir» ، قالت له . تستطيع أن تتفرج واشترِ فقط ما يعجبك . طلب منها بنبرة خانعة أن يمرّ سريعًا على أفلام أخرى ، بالتأكيد سوف يجد الشقراء ضالته . لكنها رفضتْ . توسّل إليها :

- فيلم واحد فقط . . أرجوك!

ظلّتْ على رفضها . في عينيها اللتين اتسعتا كثيرًا ، رأى الساحرة الخمسينية تتفحصّه ، لم تكن معجبة به بالتأكيد . نقدها ثمن الفيلم . لم يساومها على السعر . كانت ستنقضّ عليه لو أنه فتح فمه بحرف . كانت

لا تزال تنتفض بغضب وهي تجمع الأفلام الكثيرة التي نثرتها على الطربيزة وتضعها في حقيبتها الجلدية ، عندما قال لها إنه يريد أن يشتري أفلامًا أخرى .

- دون أن تتفرّج عليها .

اشترطتْ عليه ، فوافق دون أدنى مقاومة . استعاد وجهها هيئة البائعة المهتمّة ، الصبورة ، واسعة الصدر ، لكن غير المتوسّلة تمامًا .

أحد الأفلام حمل غلافه صورة سمراء ذات شعر أصهب وعينين خضراوين ممدّدة على فراش عاجي . كانت عارية . تمطّى جسدها الرشيق على السرير ذي القوائم الذهبية برشاقة ، ساقاها المفتوحتان تعربشتا بالقوائم كقطّة . غطتّ ثدييْها الصغيرين بإحدى يديها ، وفردت الأخرى فوق جانب من عضوها الذي كساه الشعر بكثافة . فيلم ثان تقاسم غلافه رجل ذو قامة رياضية مثيرة وصبية بملامح طفلة ، بشعر مربوط في ذيل حصان . كانت على قوائمها الأربع ، وكان في سبيله لأن يأتيها من الخلف .

في فيلم ثالث ، أدارت ثلاث شقراوات حسان له ظهورهنّ وأعطينه مؤخراتهن ، المكوّرة ، المهذبة ، التي تدلّتْ من خصورهن بسلاسة كما تتدلى قاعدة «الجيتار» ، متّسعة ومعرضّة باتساق من خصره الناحل ، وقد أرخينَ سراويلهنَ «الجي سترينغ» حتى المنتصف . أشعل سيجارة ثانية ، فتململتْ ماري قائلة :

- لقد تأخرتُ كثيرًا . يجب أن أمشي .

وضع يده على فمه ، مشيرًا لها :

- «ششششششش!»

اشترى الأفلام الثلاثة كلها . فقد أعجبته أغلفتها .

(٢)

فراس عيّاش
(٣٧ عاماً)

دفع حذاءه خارج قدميه ، دفعًا . تقهقر خطوات عدة إلى الوراء على قدم واحدة ، بينما كان يتعارك مع كل فردة ، فكاد يقع . ارتطمتْ إحدى الفردتين برِجل السرير ، في حين تقلّبت الأخرى مرات عدة قبل أن تستقر على بطنها بالقرب من باب غرفة النوم . ارتفعتْ رائحة جوربيه اللذين انتقعا بحموضة يوم طويل بلا معنى إلى أنفه . فكّ حزام البنطلون بتعجّل . سحبه من عرواته سريعًا ، محدثًا صوتًا شبيهًا بصوت مرور مشرط سريع وعنيف على قماشة مشدودة . همّ بأن يرخي السحاب ، وكانت الاستثارة المباغتة قد صعدتْ إلى رأسه ، فصفعته على وجهه .

جفل . دار العالم غير المضاء تمامًا من حوله . أخذته الدوخة من كيانه ثم أرجعته دائخًا أكثر . جمع جسده إليه وطوى الرغبة التي فردتْ أذرعها . تقلّصتْ أصابع قدميه في جوربيه . ثم لملم قدميه ، اللتين انكمشتا ، إلى بعضهما . لعلها الرائحة . حاول أن يستجمع فردتي حذائه ، منكّس الرأس ، لكنها أشارت له كي يتوقف .

- أستطيع أن أغتسل بسرعة . لن يستغرق الأمر دقيقتين .

ابتسمتْ . شملته بالنظرة إياها التي حملتْ دعوة صريحة ، ملحّة وعازمة ، من وراء زجاج سيارتها . توقفتْ عند جانب الطريق الذي شحّتْ

فيه حركة السيارات . كانت الساعة تقارب الثانية صباحًا . المدينة المنظمة جدًا ، والآمنة جدًا بمنطق المال وسياسة الستر وقوانين الإقامة الدقيقة شبه نائمة . بشر معدودون كانوا ينبتون أمام البصر فجأة دون صخب ، وبأقل قدر ممكن من الوجود والتفاعل في الحياة ، ثم يندسّون في شقّ عتمة ويختفون . فتحتْ له باب السيارة إلى جانبها فصعد . ظل لوقت يستغرب بينه وبين نفسه كيف أنه لم يتردد ، أو على الأقل لم يتوقف لحظة أو بضع لحظة ليفكّر .

تملّكه رهاب من البذخ الهائل والفجائي الذي أحاط به . سيارتها مرسيدس بيضاء ، تبدو من مقدمتها كأنها سائرة إلى ما لا نهاية ، بمقاعد جلدية عسلية اللون و«تابلوه» مكسو بخشب حريري الملمس ، مرصّعة واجهته بأزرار كثيرة ودقيقة . رائحة ملطّف الجو بعبير الخوخ الذي نزّه جهاز التكييف تسلّق جو السيّارة الداخلي الفارِه . إذ غاص في مقعده العريض إلى جوارها ذهب فكره ، في مقارنة ليستَ في محلّها وظالمة بلا شك ، إلى سيارات الأجرة «التويوتا الكورولا» المتهالكة بمقاعدها الجلدية المتآكلة ، أو التي أُعيد تنجيدها بأقمشة كتانية رخيصة بألوان نافرة ، ونقوش لم تُعتمد فيها أدنى درجة من التوافق والتنسيق ، أو تلك التي تم تلبيسها بالمشمع المشدود ، لإكسابها عمرًا أطول ، غصبًا عن أي بلى قادم .

حين يجلس في المقعد الأمامي لسيارة الأجرة يقع نظره أول ما يقع على اللوحة التعريفية الخاصة بالسائق . الاسم في العادة طويل جدًا ، كأن صاحبه يصرّ من خلاله على جرجرة تاريخه معه في هذه البلاد البعيدة التي تقطعتْ فيها جذوره . لكن الأسماء على طولها المزعج تفاصيلها متشابهة . ثمة دومًا في الاسم «خان» أو «جول» . والصورة ، التي يبدو فيها السائق غائبًا عن واقعه الراهن ، لا تشبه بأي حال صاحبها . بعض الصور ، التي أتى عليها البعد واكتستْ بغمامة عتق ، منفصلة مع الزمن

تدريجيًا عن الأصل ، تصلح لأن تكون لشاعر لا يزال ، بعد عقود من اليأس ، يحمل حلمه . في الصورة ابتسامة غامضة تعود إلى اللحظة التي تلقى فيها نبأ رحلة الفتح المرتقبة إلى الخليج ، حيث الآمال بالحياة السهلة والمال غير الصعب تمامًا عِظام . لكن شاشة العداد التي تقلّب أرقامها دون عجلة من أمرها تجعله يغادر تأملات اللوحة التعريفية . والسائق الذي تغمّس برائحة الرطوبة والعتق والبلى والصدأ ، تجعله يتمنى أن تضيء كل الإشارات خضراء وتفسح كل الطرقات للسيارة التي أعرض عنها الجمال والجِدّة والأمل .

كانت في أواخر الثلاثينات . لكن بشرتها ، التي أضاءتها من حين لآخر أنوار السيارات العابرة ، يمكن جدًا أن تكون لامرأة أصغر ؛ إذ عكستْ عناية كريميّة يومية من نوع باهظ وترفًا بحريًا . عنقها البرونزي المكشوف المشدود الذي كان يستدير إلى اليمين أو إلى اليسار ، بحسب حركة السيارة ، فتح شهيّته . انحدر بصره إلى بروفيل صدرها شبه العاري تحت فستان أسود كاشف . قطرة ضوء انزلقتْ في فراغ الأسرار بين الثديين ، فاختلجا ، ثم تنفسا عميقًا .

- هل أستطيع أن أدخن؟

غصّتْ منفضة السجائر في السيارة بأعقاب السجائر . لم تجبه . اكتفت بأن أنزلتْ زجاج النافذة الأوتوماتيكي الحركة إلى يمينه . عرض عليها سيجارة فلم تستجب لعرضه . لم تقل لا كما لم تقل شكرًا ، مواصلة القيادة في شوارع تعرفها تمامًا ؛ ذلك أنها كانت تقود ، كما تهيّأ له ، دون أن ترى طريقها . لم تكن تبدو ، أو هكذا تخيّل ، أنها كانت تفكر بالخطوة القادمة . لم تبدُ أيضًا ، كما كان متيقّنًا ، أنها تقلب أمرًا ما في ذهنها ، أو تبحث في احتمالات أو خيارات بعينها . وبالتأكيد لم تكن لتناقشه في هذه الخيارات ، إن وُجدتْ . صوته كان متوترًا . بَلَغه ذلك .

فانزعج كثيرًا من نفسه . وحين سحب نفسًا سريعًا من سيجارته ، التي احتاج أن يقدح حجر الولاعة عدة مرات قبل أن يرتفع اللهب الأزرق متصلاً دون تقطّع ، شعر أن جسده كله كان يرتجف . ما خشيه ربما أكثر من أي شيء آخر أن تكون هي قد شعرتْ بارتجافه .

رمى السيجارة ، التي احترقت حتى منتصفها فقط ، من النافذة التي سرّبتْ هواء رطبًا . لم يستطعم بالأنفاس القصيرة المتلاحقة التي كان يسحبها متعجلاً . بحث عن زرّ إغلاق النافذة ، الذي يفترض أن يكون على ذراع الباب الخشبية من بين الأزرار الكثيرة التي تراصت إلى جانب بعضها . لم يجده . ارتفع الشباك إلى الأعلى ببطء . هي التي أغلقته بنفسها . ما كان يخشاه تحقّق . لقد بلغها توتره ورجفته . نظر إليها . لم يحِدْ نظرها عن الشارع أمامها . عينها لم تقع عليه أبدًا . لكنه شعر أن بصرها اخترق حتى أصغر خلاياه في داخله .

تأمّلها في المصعد من خلال المرايا التي كستْ جدرانه . لم يشأ أن تباغته يتفحّصها . فكان يدوّر نظره في مساحة المصعد الصغيرة المربعة المضاءة بحدة ، لكن عينه ، أينما ولاّها ، كانت تقع على انعكاس هيئتها في كل الأسطح . بدورها ، سهّلت له التفرّس غير المباشر فيها ، فأعطت وجهها للمرايا التي حاصرتها بزاوية مكّنته من الإحاطة بملامحها . فكانت إذا التقت نظراتهما تبنتْ تلك النظرة السارحة في لا شيء محدّد ، ليتحرّر من حرج اختلاس الرؤية ، ولينظر بالتالي ما شاء له النظر .

لم يستطع أن يحدّد بينه وبين نفسه ما إذا كانت جميلة أم لا . عيناها تأرجحتا بين البني الجوزي والعسلي . كانتا عميقتيْن ، بعيدتيْن ونائيتيْن عن الشيء الذي يقع في مرماهما مباشرة ، وبحجم البعد وسعة العمق كان لونهما كأنه لا يثبت على درجة بنية أو عسلية بعينها . شفتاها أكثر ما استوقفه . هما من نوعية شفتي الممثلة البريطانية كيرا نايتلي ، التي

يستحضرها في منامه . . شفتان لامرأة كانت حتى أمس طفلة تتوق للّعب طوال الحياة ، وقد نضجتْ فيها الرغبة مبكرًا . الشفة العليا ناعمة ، مستدقة ودقيقة ، ذات تقوّس مائل إلى الانبساط وغير حاد ، تتّكئ على شفة سفلى غليظة ، ثقيلة ، ممتلئة ، متورمّة ، متورّدة ، فائرة ، لاهثة ، مندّاة ، ومدلاّة . وحين تُغلق الشفتان ، لا تنطبقان تمامًا ، يظل في الوسط فجوة أو ما يشبهها ، تتململ من خلفها رغباتها وخواطرها ، تنذرك بأنها قد تطلبك ساعة تتمنّى .

اكتشفها في «قراصنة الكاريبي . . لعنة اللؤلؤة السوداء» . الفيلم فتنه . لكن ابنة الحاكم إليزابيث سوان ، كيرا نايتلي ، الشابة المثيرة الجريئة ، ذات الخصر الدقيق ، التي تقع في أسر الكابتن «الشرير» باربوسا ، فتنته أكثر . على مدى ستّة أسابيع من عرض الفيلم في دور السينما الكثيرة في المدينة ، حضره سبع مرات ، وفي السينما ذاتها ، وفي عرض الثالثة والربع بعد الظهر دائمًا ، ليضمن شحّ جمهور المتفرجين ، (حتى إنه في الأسبوعيْن الأخيريْن من عرض الفيلم كان هو «الجمهور» الوحيد ، ما منحه الفرصة ليستمني براحته) ، وفي السبت نفسه من كل أسبوع ، باستثناء أحد الأسابيع حين دفعه شوقه ، بعدما شعر أن السبت قد تأخّر إلى الذهاب إلى سينماه في عصرية الثلاثاء .

الشيء الوحيد الذي أحبطه في الفيلم أن ابنة الحاكم ذات الشفتين المعدّتيْن لممارسة الفاحشة اللذيذة تقع في حبّ الحدّاد ويل تيرنر . والحداد بهيّ الطلّة بالتأكيد . لكنه حلوٌ وكفى . وهو صقيل الملامح أكثر مما يتعيّن للرجل المُشتهى أن يكونه . كان على إليزابيث أن تُغرم ، شأنها في ذلك شأن كل الفتيات الرقيقات العذبات ذوات الخصور الدقيقة ، بالكابتن جاك سبارو ، القرصان المحتال بديكوره الخارجي المخشخش ، بأسنانه المذهّبة ، بعينيه الكحيلتين ، بخلطة ألوانه المُنهِكة للبصر ، ببشرته المعجونة بسمرة

غجرية رطبة ودبقة تنفث في الصورة المتحركة حرارة بركانية كامنة . كان على الفاتنة ذات الشفة السفلى المرتعشة بشوْق تفتّح لتوّه أن تجعل المشاهدين ، وهو أوّلهم ، يتخيلون شفاهها تلعق جسد القرصان الساخن ، إذ أنه ودون أدنى شك كان «سكسيًا» للغاية ، أكثر «سكسيّة» من الحدّاد الوسيم والأنيق بترف لا يليق حتى بحدّاد .

حين صارح كمال أنه شاهد الفيلم ثلاث مرات ، وفي السينما ، اتّهمه بأنه مخبول . كان يعرف أنه لو أقرّ أنه شاهده سبع مرات ، وفي كل مرة في السينما ، لاستصدر له شهادة رسمية بالخبل . قال له كمال إنه كان يستطيع أن يؤمن له نسخة «دي في دي» مقرصنة من الفيلم .

- وكنت تستطيع أن تتفرج عليه مئة مرة .

- لكنه في السينما . . «غير شكل!»

لكن كمال ، الذي كان مستغرقًا يومها في تحميل فيلم «رسوم متحركة» ، كما يصف أفلام وكليبات البورنو ، عبر الانترنت ، لم يقتنع . اشترى نسخة من الفيلم من ماري الصينية ، وعندما تأكد أن لا جنس حاميًا وصريحًا في الفيلم ، بل لا قبلات مقنعة ، ناهيك عن أن كيرا نايتلي لم تعجبه ، لصغر ثدييها بالدرجة الأولى ، ظل يتندّر على هذه الواقعة طويلاً .

أعلن المصعد توقفه عند الطابق السابع عشر برّنة ، قفزت على إثرها كيرا نايتلي بعيدًا عن مخيّلته . بالنسبة إلى امرأة تعود إلى بيتها (افترض أنه بيتها) في الثانية صباحًا كان غريبًا ، كما بدا له ، أن تحدث جلبة ظاهرية في المكان ، تطرق البلاطات الرخامية التي تفترش المدخل بحذائها ذي الكعب العالي بعلنيّة زائدة ، لا مبالية ، تفرد وجودها بثقة حدّ الاستخفاف بوجود الآخر ، وتحدث ضجة كبيرة بحركة المفتاح في الباب ، في الوقت الذي كان فيه هو يتلفّت حوله خشية أن يصحو عليهما أحد ،

حتى وإن كان لا يعرفه ، ماشيًا على طرف حذائه ، محاذرًا الاصطدام حتى بالهواء .

ألقتْ بحقيبة يدها وميدالية مفاتيح السيارة المجلجلة فوق طربيزة مرتفعة علتها مرآة ضخمة مؤطّرة عند المدخل . ثم قادته من يده عبر ممر طويل أطلّت فيه إنارة ناعسة وتفرّعتْ منه غرف معتمة بأبواب نصف مغلقة لم تفصح عما بداخلها . عدّها ؛ ثلاث غرف على الأقل ، ما يعني أن الشقة كبيرة بالنسبة لامرأة وحيدة . ماذا تفعل بهذه المساحة كلها؟ لعلّها ليست وحيدة ، ولعلّ ساكنيها هم ببساطة ليسوا فيها هذه الليلة . ثمّ ذُعر للفكرة المجنونة التي لمعت في رأسه : ماذا لو لم تكن الآن في الشقة وحدها؟ ماذا لو كان أهل البيت الآخرون نيامًا؟

بسرعة خطر له أن يكون زوجها مريضًا أو كسيحًا أو عجوزًا يلازم سريره ، يحتضر منذ سنوات ، حتى إن لحمه بدأ يتقشّر ويتساقط ، أو موظفًا مرهقًا وساخطًا عاد آخر النهار ورمى جسده على السرير دون أن يتسنى له أن يشلح ملابس الوظيفة ، أو ببساطة مزعجة رجلاً عاديًا ، طيبًا جدًا ونائمًا . ثم خطر له في شريط مدته نصف دقيقة أو أقل أن تكون المرأة من الجنون بحيث يلهوان جنسيًا ، وبكثير من الصمت ، في غرفة أخرى ، أو قد تكون من الفجور بحيث تجرّه للتهتّك الجنسي ، فيتعريان ويحتكان ويلتحمان ويتداخلان ويعرقان ويلهثان ويفحّان وينتفضان ويعويان أمام بصر الزوج الكسيح المرتجف الأطراف المعقود اللسان وسمعه (لمزيد من الدراما المأساوية ، التي يعتقد أنه رأى شيئًا شبيهًا بها في فيلم عربي بائس من بطولة ناديا الجندي) .

أتراه أخطأ؟ أتراه تهوّر؟ ألعلّه أساء تفسير مقصدها؟ لكنها هي البادئة . فبمنتهى العاديّة ، وفي حركة جدّ سلسة وجدّ طبيعية ، شلحتْ فستانها الأسود بجرّة سحاب واحدة ، لينزلق فوق تضاريس جسدها ، التي

تشكلتْ بلطف، متباطئًا بعض الشيء عند انحناءة وركيها اللدنيْن، متعثرًا بقدر محتمل عند هضبة عجيزتها الناتئة، محتكًا بأعلى فخذيها حيث احتشاد اللحم الغزير، قبل أن يسقط الفستان أخيرًا على الأرض، وتنزاح عتمة الفستان، مرة واحدة، عن سمرة لحمية شديدة الوفرة، شديدة الدفء.

وقفت أمام مرآة عينيه عارية. لم تكن ترتدي تحت الفستان صدرية أو سروالاً داخليًا. ولا يعرف لماذا تخيل أنّ هذا هو حالها دائمًا، حيث لا تحتاج إلا لقطعة واحدة خارجية يمور تحتها لحمها اللاهث ويموج. ملأ بصره ثدياها الضخمان الصاعدان إلى أعلى، بحلمتيهما العسليتين اللتين حدقتا فيه دون أن تطرفا. وبقوامها الشبيه بساعة الرمل، انسكب صدرها بتماسك فوق خصر دقيق للغاية وبطن شبه نابت، سرعان ما تفرّع عنه ردفان دائريان. من المرايا التي لبستها أبواب خزانة الملابس الأربعة على طولها، استطاع أن يقيس محيط مؤخرتها التي عبّها نظره. كانت مؤخرة كبيرة، منفلشة وضخمة، بقدر ما كانت صغيرة، ملفوفة وموجزة؛ صلبة وقاسية بقدر ما هي عجينة طرية ولدنة.

ثم كأنها كانت معجبة بتفصيلة جسدها، مدركة مكمن فتنته وغوايته، إذ انزلقتْ بكفيْها فوق عنقها الذي عانقه سنسال ذهبي قصير، نزولاً إلى صفحة كتفيْها المستويتين وصدرها المتدرِّج في العلوّ، قابضة على ثدييْها بكفيْها دون أن تحيط بعظمتهما واستدارتهما القمريّة بالكامل، مداعبة بأطراف أصابعها حلمتي ثدييْها المتثائبتيْن. ثم.. بطيئًا.. بطيئًا تهبط كفاها إلى خصرها، تضغطان على صفحة بطنها الأملس، تتحركان فوقه بحركة دائرية، ويتحرك جسدها المشدود مع حركة الكفيْن ويميل، بانحناءة خفيفة، إلى الأمام وإلى الخلف، متأفعيًا إلى اليمين وإلى اليسار.

أخيرًا، تنفرج ساقاها، اللتان تصبّان في صندل ذي كعب عالٍ مدبّب

تبرز منه أصابع قدميها الدقيقة بأظافرها التي عكست مقدارًا بالغًا من العناية ، لتستقر إحدى كفيْها ما بين فخذيها ، حيث نبت شعر غزير هائج . مرّرتْ أصابع يدها فوق الشعر الداكن ، هبوطًا فصعودًا ، وهبوطًا فصعودًا . تسارعتْ حركة يدها ، ومعها ازداد تقوّس جسدها وتلوّيه ، متلمظًا المتعة الوشيكة . راقب تبدّل ملامح وجهها مع الإثارة المتنامية . عيناها ضاقتا . شفتاها زُمّتا . جسدها كله تلوّى . علا وهبط كموج من لحم رقيق تعبث به أخفّ النسائم وزنًا . غاصت أصابعها في غابةً الشعر المظلمة . باعدتْ بين الشعيرات الدّبقة ، لتتكشّف عن وردة عملاقة فغرتْ فمها ، وقد سال رحيقها على الأطراف ، منيرًا ، ملتمعًا . من إحدى مرايا الخزانة ، راقب استدارة مؤخرتها التي كانت تكتمل أكثر مع تلوّي جسدها وتثنّي شهوتها . ضربتْ وردتها التي تفتحت بتلاّتها بيدها . مشتْ برأس سبابتها على حواف البتلات الراعشة وطيّاتها . كانت الآن تتلوّى بتسارع أكبر . مصّتْ إصبعها الوسطى عقدةً . عقدة ، ثم شفطته بالكامل ، ثم سحبته من فمها ، ثم غرزته داخلاً ، في قلب الوردة .

لم يكن قد أفاق من مفاجأة الصفعة ، حين تقدّمتْ نحوه مبتسمة ، ومشفقة . مسحتْ خدّه ، موضع الصفعة ، براحة يدها الطرية . فركتْ شفتيْه الناشفتيْن بإصبعها الذي تبلل بمائها . خطا إصبعها خطوات بطيئة فوق ذقنه ورقبته . خالها تتلمّس نبضه . لفحته حرارة جسدها العاري إلا من صندل وقلادة ذهبية ناعمة وقرط ماسيّ دقيق . فكّتْ أزرار قميصه . لحستْ رقبته لحسات سريعة متتابعة . قرطتْ شحمتيْ أذنيه . انحدرتْ شفتاها إلى صدره . لثمتْ حلمتيْ ثدييه . داعبتهما بلسانها . تجمّعتْ النشوة في خلايا الشعور لديه في وخز حاد جدًا ، متتابع وقصير جدًا . انحدرتْ شفتاها اللتان ترطّبتا بلعابها الدافق إلى بطنه . غاص لسانها في سرّته . غمره إحساس يدركه لأول مرة ، إحساسٌ بأن ساقيه رقّتا كثيرًا

وخفّتا بحيث لم تعودا تحملانه وبأنه يوشك أن يقع ، لكن الوقوع كان جميلاً ذلك أنه كان سيكون ، بلا شك ، إلى أعلى كريشة نقذفها أرضًا فترتطم بالسماء .

دفعته نحو الحائط . رفع ذراعيه إلى أعلى باستسلام . شلّحته بنطلونه وسرواله بنزق . التصق جسدها التوّاق المتوثّب بجسده الذي فرد كل أشرعة الرغبة . لزّتْ عليه أكثر . سحقتْ بطنه ببطنها . هرشتْ فخذها بفخذه . الزغب الناعم الذي كسا فخذها أيقظ الكهرباء «الساكنة» في شعر جسده الكثيف . كانت تعرف ما تفعل . وكانت تستشعر متعته . وكانت ، يقينًا ، تستمد من متعته متعتها . هرشتْ فخذها الأخرى بساقه . غرزتْ ساقها بين ساقيه . سمحتْ لعضوه الذي استطال بأن يفرك فخذها . ثم أخذته بيدها وغمستْ طرفه في السائل اللزج الذي كان ينبجس بلطف ، كمياه تبقبق من ينبوع حار ، على جوانب وردتها . تأوّه . تأوّه عاليًا . لثم تأوّهاته على رقبتها مستشعرًا نبضها المتسارع . حفّتْ عضوه بعضوها . فركته بغابة الشعر الكثيفة . فرد الخدر سحابته في كيانه الذي خفّ كثيرًا . فجأة ، ثنتْ ساقيه إلى الأمام بعزم هائل ، ثم ركبته . كان لا يزال مستندًا إلى الحائط ، الذي استشعر به هو الآخر دائخًا . . آيلاً للتحليق . لم تحتج شهوته إلى من يرشدها إلى ثغر وردتها ، فالوردة تفتحتْ بالكامل ، وانبسطت بتلاّتها نابضة ، مرحبة . التحما . أغمضتْ بتلاّتها على شهوته حتى أطبقت عليها تمامًا . لعبا لعبة اللذة ، متفقَيْن على قواعدها دونما تصريح ؛ فحين كان يحاول أن يغادر مغارتها كانت تُحكم إيصاد بابها ، تقبض وردتها على عضوه ، فتستبقيه بقوة ، تستنزّه دون أن تستهلكه بالكامل . وحين كانت تحاول أن تقذفه خارجًا كان عضوه يتوسّل إلى وردتها ، مستدفئًا بها ، يرجوها أن تغمره بأريجها وعطفها وأن تلبّي اشتهاءه لها .

كانت لا تزال تركبه ، وقد طوّقته بساقيها تمامًا ، وكان لا يزال متكئًا على الحائط وقد انثنتْ ساقاه أكثر ، مع الشدّ والجذب . اختلطتْ تأوهاتها بتأوهاته . لوتْ شفتها السفلى وعضّت عليها بأسنانها المرتبة ، ناصعة البياض . «يللّه . . يللّه . . .يللّه .» قال لها برجاء . شدّها إليه أكثر . «أيوَه . . أيوَه .» قال لها . وحملها ، ملتحميْن ما زالا ، متجهًا نحو السرير . لفّتْ ساقيها حوله تمامًا حتى طوّقته في ما يشبه إطباق الدائرة . تأمّل عينيها تحت الظلال البرتقالية للستائر الحمراء المنعكسة من إنارة الغرفة الخفيضة . كانتا نصف مغمضتين . لوهلة ، أو لوهم ، تخيلهما حالمتيْن . استشعر عضلات وردتها ترتجف حول عضوه ، تقبض عليه بقوة أعظم ، وتعتصره في داخلها حين فتحتْ عينيها على آخرهما . جذبته من كتفيه . مال نحوها . لفحته أنفاسها الحارة التي كانت تبترد على وجهه . عيناها عرضتا كثيرًا ، ذهبتا بعيدًا ، حلقتا عاليًا ، ثم عادتا إليه . رمته بنظرة آمرة .

تسارع اهتزازهما وعلت وتيرته ، في الصعود والهبوط ، في الانثناء والتلوي ، في الولوج والانسحاب ، في اختلاط النَّفَس بالنَّفَس ، في احتكاك الرائحة بالرائحة ، في امتزاج العرق بالعرق ، في عناق اللّحم للّحم ، في استغراق الرغبة بالرغبة ، في استعذاب الكرّ والفرّ ، في اقتحامه لها بهمجية مباركة ، وفي افتراسها له بشراهة لا تشي بشبع قريب ، كما لا تشي بتخمة ، في استعجال غيبوبة اللذة ثم في استبطائها ، طافييْن للحظات أزلية أخيرة فوق موجة عالية تغالب السقوط ، وقد تخففّا من وزنيهما تمامًا ، حتى طالت هزّة نشوتهما المتفجرّة العالم .

نامت . أعطته ظهرها وأغلقت عينيها وغفتْ . لم تتكلم . لم تقل شيئًا . نزّتْ بقايا فحيح خافت لانتفاضتهما وفقط . لم تنهض من السرير . حتى إنها لم تغتسل من مائه الذي التمعت آثاره على أطراف وردتها كندى طازج . طوت وردتها بتلاّتها ، وإن ظلت في حالة فورة وشيكة .

ارتدى ملابسه ، حريصًا ألاّ يحدث ضجة . همّ بالانسحاب حين شعر بها تتقلّب في نومها . استدارتْ جهته . نائمة كانت لم تزل ، وإن بدت وكأنها تتملّى فيه من وراء عينيها المسدلتيْن . وقف . نظر إليها . تبدّتْ امرأة مختلفة عن تلك التي أقلته قبل ساعتين في سيارتها المرسيدس البيضاء . في جميع الأحوال ، التهبتْ سمرتها ، فلم تقلّ فتنة وجمالاً .

كانت الآن أقل ثقة وغرورًا ربما ، لكنها بدت أكثر اطمئنانًا . جسدها النائم ، الجميل بصورة أخرى وهو نائم ، جمع استثارته ولملم شهوته الفائضة وما استتبع عنها . شفتاها صغُرتا ، وبانتا أقل تورّمًا ، وإن ظلتا مكتنزتيْن مهيّأتيْن ، قطعًا ، لمتع قادمة . ثدياها المتصلبان ارتخيا وتقلّصت انفلاشة حلمتيهما . ارتدى جسدها ، الذي تراجعت شبقيّته ، جسد طفلة . تكورتْ على نفسها . كانت خائفة أو لعلها بردانة ، لكنها كانت مرتوية وشبعانة ، إذ كان يستطيع أن يجزم بذلك من الابتسامة الهانئة التي طفتْ على شفتيها النائمتين . مسح كتفها بحنوّ ، فَرَد فوقها لحاف السرير وخرج .

تخطتْ الساعة الرابعة صباحًا بدقائق . لم يكن الليل قد تخلّى عن كامل هيئته ، فالعتمة التي كسرتها إنارات الشوارع وأضواء السيارات الشحيحة ، لم تزل مرتخية على أكتاف الفجر العالق في الأفق . أشعل سيجارة ومشى . هواء أواخر أيار ، الذي علق بذيله شيء من حرارة وشيء من رطوبة ، عابثه . كان يريد أن ينام . . ينام طويلاً ، وينام بعمق . كان يستطيع أن ينام بقربها ، ملتصقًا بها ، هلاليْن متداخليْنْ ، بحيث يتوسّد رأسها ذراعه . مثُلتْ في عينيه غافية ، لم تنفض عريها . ولعلها ، بسبب بقايا الحماوة في جسدها ، قد أزاحت عنها الآن اللحاف .

خففتْ سيارة أجرة سرعتها مقتربة نحوه . غمزتْ له بأضوائها الأمامية عدة غمزات . تجاهلها وواصل طريقه مشيًا ، رغم الارتخاء الذي

استقر في ساقيه . لم يشأ أن يفسد بقايا ليلته مع «خان» أو ربما «جول» .
زادت السيارة من سرعتها ، مبتعدة عنه . صغرتْ أضواؤها ، في البعد ، إلى أن انطفأت تمامًا ، فعاد إلى عتمة الشارع المؤنسة ، رغم شحِّ الحياة فيها .

أشعل سيجارة ثانية . راقب سحابة الدخان يتمطّى عريها في الجوّ . كانت كأنها مستلذّة بنفسها ، متباهية بجسدها .

(٣)

إياد أبو سعد
(٤٣ عاماً)

نظر إلى ساعته . الزمن تخطّى العاشرة ليلاً . المسافة بين مكتبه ، الواقع في طرف منزوٍ من المبنى المؤلف من طابق واحد ، والبوابة الرئيسيّة للصحيفة تمتدّ عشر دقائق سيرًا بطيئًا . في طريقه ، سلّم على حفنة الزملاء الذين يتوقّعهم في هذا الوقت ، يتأخرون بدواعي التعبير عن الحضور ، غير الجدي ، كبرهان على العمل أكثر منه للعمل فعليًا . تغلّف معظمهم برائحة ورق مسودّات الكتابة الخشن وعطنة «الموكيت» الذي ينضح بالتقشّف وسحب دخان سجائر «الجيتان» و«الغلواز» التي استعاضوا بها عن «المالبورو» ، بعدما ركبوا موجة العداء لأميركا والرموز القبيحة التي تمثّلها . لكنهم مع ذلك لم يستغنوا عن بعض الرموز «غير الخطيرة» والأقل بشاعة ، كالبرغر كينغ والبيتزا هت ، حيث يطلبونها على الهاتف من مطاعم المدينة الكثيرة المنتشرة ، كوباء ، وقت الغداء . ومع أنهم جاهدوا واجتهدوا ، إلا أنهم للآن لم يجدوا بديلاً عمليًا للبيبسي والكوكا كولا التي يكرعونها باستلذاذ حقيقي ؛ فـ«زمزم» ، المشروب الإيراني الذي اعتلى أرفف بعض المحال ، ومن بعده «مكة» ، الفرنسي الصنع التونسي الفكرة ، لم يرويا عطشهم . «ولو أن مقاطعة الكوكا كولا سوف تدحر عنا أميركا و«بعبصة» أميركا لقاطعناها من زمان!» هذه هي الخلاصة التي انتهى إليها

عمر ، الذي يعمل مساء في القسم السياسي يعيد صوغ الأخبار والتقارير التي تقذفها وكالات الأنباء ، وفي الصباح في ملحق المنوعات الأسبوعي مسؤولاً عن تفسير الأحلام والردّ على مشكلات القارئات العاشقات اليائسات ، مشدّدًا في حلوله المقترحة على ضرورة ألا نجعل غرائزنا غير الموجهة تقود مصائرنا الطيّعة .

تيت . . تيت . تيت . . تيت . ارتجّ موبايله داخل جيب سترته الخفيفة . أيقن أن الرسالة منها . «أنتَ لا تُحبّني .» كتبتْ له . لم يكد يستقر الموبايل في جيب سترته ثانية حتى نبّهه الطنين إلى ورود رسالة أخرى . «أنتَ لا تحبّني . أنتَ لا تحبّني . أنتَ لا تحبني .» ثم تبعتها بـ«بكرهك .» تخيّلها تقولها في وجهه ، وهي تشبك ذراعيها عند صدرها ، ثم تضمّ شفتيها وتدفعهما إلى الأمام .

اعتاد شغب ليال على الموبايل ، عبر رسائلها التي تُضمّنها كثيرًا من مفاجأة ، وكثيرًا من مشاكسة ، وقدرًا محتملاً من الاستفزاز . قد ترسلها أوّل الصباح ، لتكون عناوين صحيفته التي يطالعها مع فنجان قهوته ، وقد ترسلها آخر الليل ، لتسحبه من خدر الإغفاءة الأولى . قد ترسل رسائل كثيرة متواترة مزدحمة بالكلمات التي تتقطّع نهاياتها ، حتى إنه يكاد يتناهى إليه طافيًا على أسطح أحرفها حفيف أنفاسها ، بل يكاد يسمع قرع قلبها العنيف ، وقد ترسل رسائل بيضاء فارغة ، إلاّ من اسمها . . ليال . . الذي يذيل صفحة شاشة الموبايل ، فيفكّر في احتمالات شتّى لهذا الفراغ المباغت الذي يقبض عليه ، دون أن يصل إلى نتيجة . وقد ترسل رسالة كل يوم ، وأحيانًا قد ترسل عشرات الرسائل في اليوم ، فيخال كيانه محاصرًا ويتململ ، ثم يتّخذ القرار المؤجّل بأن «غدًا سوف أنهي الأمر» ، و«سوف أنهيه دون رجعة .» وقد يمضي وقت قريب من الدهر دون أن يلكزه ذاك الطنين الذي يعرفه ويميزه عن طنين الرسائل الأخرى ويكون قد تشوّق

إليه ، فيتملّكه الهلع ، ويتصاعد هلعه حين يتّصل بها ليردّ عليه الصوت الجاف إياه : «إن الهاتف المتحرك المطلوب مغلق أو خارج نطاق الخدمة حاليًا .» فيخلع حذره ، وينطلق في طرقات المدينة المتحفّظة على مشاعرها ، يفتش عنها مذعورًا .

هواء نيسان الذي لم تذهب منه فتنة الشتاء تمامًا أغراه بأن يشعل سيجارة ، يدخنها على مهل ، قبل أن يصل إلى سيارته المركونة في الموقف الملحق بمبنى الصحيفة من الخلف . العتمة طوقتْ المكان في هذه الناحية المتطرّفة من المدينة ، بعيدًا عن وسطها ذي الإضاءة الفاحشة . أتاح له الصمت ، الذي تخلّلتْ خلفيّته أصوات متقطعة بعيدة للسيارات المسرعة على الطريق العام المؤدي إلى مطار المدينة ، أن يستمع ، مستمتعًا ، لصوت احتراق لفافة السيجارة الشبيه بطقطقة أوراق النباتات الناشفة تحت أقدام بطيئة . انتزعه الطنين من استغراقه في السكون من حوله ، بينما كان يسحب النفس الثاني من سيجارته . «أريدك .» كتبت له . ثم فككتها : «أ ر ي د ك .» حين قرأ الأولى ، كان كأنه يسمعها تصرخ به آمرة . عندما قرأ الثانية كان كأنه يسمعها تفحّ بها ، متوسلة ، مستعطفةً جسده .

لا تعرف أن تتكلم ، كما يتكلم البشر المحبّون . هكذا قالت له ، وهكذا اكتشف بنفسه سريعًا . تقول دائمًا ما لا تريده وما لا تعنيه . وحين تحاول أن تفسر وتشرح مقصدها الحقيقي ، غير ذاك الذي بان أنها قصدته ، تسترسل أكثر في قول ما لا تقصده ، وتذهب بعيدًا في استحضار كل الكلمات التي لا تريدها ، والجمل التي تبدو حتى على سمعها حين تنطقها غريبة وشاذة تمامًا . وتبدأ جدران عالمها ، في أثناء ذلك ، تضيق عليها ، ويكاد يسمع صوت انزياح الجدران ، فترتجف وتشحب وتعرَق ، ثم تتدحرج ما تبقى لديها من كلمات على الأرض ، وسط انطباق جدران عالمها الوشيك عليها ، وتضع رأسها بين يديها منتظرةً لحظة الانسحاق النهائية .

تعرف فقط أن تكتب ؛ تكتب الرسائل النصية على الموبايل ، بعدما طوّرتْ لغة خاصة بهما ، كأنها مقتصرة على تواصلهما وحدهما دون غيرهما ، لغة قادرة على حمل أطنان من المشاعر والرغبات ، وهي لغة سرعان ما تعلّمها منها ، وإن ظل بعد عامين من علاقتهما ليس بمستوى كفاءتها وقابليتها لتطويع الكلمات وشاعريتها «المسجيّة» . تختزل في صفحات الشاشة الصغيرة كمًا هائلاً من الأشياء المفرحة والممتعة تمامًا كالمؤلمة ، والأشياء الملونة التي قد تنقلب فجأة لتصبح قاتمة . وكما يفرح ويدور حول نفسه من البهجة إذ تحمله رسالة فوق موجة من الانتشاء لمجرد تخيّل المتعة ، قد يأسى ويضطرب ويخال نفسه يهوي في كل الاتجاهات ، وقوفًا ، حين تحمل رسالة تهديدًا بأنها قد تطرده من حديقتها ، رغم يقينه من أن تهديدها ليس جادًا .

ألقى بالسيجارة التي احترقتْ حتى ربعها الأخير على الأرض . توقف بصره عند بقايا اللهب الأحمر الراعش ، راقبه يتقلّص تدريجيًا ، قبل أن ينطلق بسيارته ، متجاوزًا الطرقات الفرعية التي غصّت بالعتمة إلى الشارع الرئيسي الهادر بالضوء وضوضاء المدينة . تيت . . تيت . تيت . . تيت . «بحبّك .» كتبتْ له . تيت . . تيت . تيت . تيت . . تيت . «مشتهياك .» تيت . . تيت . تيت . . تيت . خفّف من سرعة السيارة ، متيحًا لحواسه في جسده كي تتفتّح . التزم المسار الأيمن ، ليتخفّف من يقظة الطريق واستغرق في استدرار الخيالات الجدّ محسوسة . باعد بين فخذيه ، وخفّف ضغط قدمه على دوّاسة البنزين ، مستشعرًا الدماء التي كانت تصطخب في عروقه . وحين طن الموبايل بـ«بديّاك» ، كانت إثارته قد وقفتْ على قوائمها الأربع ، متنبّهةً .

هذا هو لقاؤهما الأول في شقتها . هي شقة مشتركة مع مجموعة فتيات ، معظمهن لا تعرفهن . لما كانت تدفع الأجرة الأكبر ، فإن غرفة

النوم الرئيسية ، بالحمام وغرفة خزانة الملابس الجانبية الملحقيْن بها ، من نصيب ليال . أما الغرف الثلاث الأخرى ، من بينها الصالون الذي استحال غرفة نوم ، فتتقاسمها على الدوام ما لا تقل عن عشر فتيات وأحيانًا أكثر ، بواقع ثلاث أو أربع فتيات في كل غرفة ، سوريات ومغربيات ، وفي مرات متفرقة ونادرة من دول أوروبا الشرقية ودويلات الاتحاد السوفياتي السابق ، تهرهرتْ سحنتهنّ تمامًا كما تهرهرتْ دولهن . قالت له مرة إنها تكره «إلينا» اللتوانية ، التي تبيعهن بطاقات هاتف بسعر أرخص من الدكان ، فهي شقراء عشرينية لكنها ، ببشرتها الناشفة ولحمها المتغضن ، الذي تتكشف أجزاء كثيرة منه تحت ملابسها الفاضحة ، تبدو ضعف عمرها الحقيقي . لن تنسى تلك الليلة ، حين ذهبت إلى المطبخ شبة نائمة لتفاجأ بشبح شبه عار ذي شعر أصفر سلكي منفوش يعبّ من زجاجة الماء في العتمة . كانت إلينا . وكانت كأنها الموت . تذكر جيدًا أنها صرختْ ، وأن إلينا تفهمتْ لماذا جزعتْ . قالت له وهي تدفن عريها في جسمه إنها تخشى أن تقف أمام المرآة ذات صباح لتجد نفسها قد أصبحتها هي .

«أنا الآن في الرابعة والثلاثين .» انْظر . تقول له . ثم تقفزّ على السرير ، تقف في مواجهة المرآة ، تدلق عريها فوق سطحها ، تتفحصه من كل النواحي والجهات . في المرات التي تكون فيها سعيدة بعشقه لها الذي تنتزعه منه انتزاعًا ، أو قد تكون سعيدة دون سبب واضح له ، تقفز وتنطّ على السرير ، فيُؤخذ بلحمها الجميل الذي يطفو على سطح المرآة سخيًا منسابًا وسلسًا ، ويراقب رفرفة ثدييها مفتونًا . أما في المرات التي تكون فيها حزينة ومحبطة ، وهي مرات كثيرة ، وأغلبها هي نفسها لا تعرف لها سببًا ، فتكره المرآة التي يتدلى فيها ثدياها متخاصميْن ، وتبدأ ، غير آبهة بانزعاجه ، تلفت انتباهه إلى الشوائب التي تبدو كأنها ظهرتْ فجأة في

جسمها ، من وحمة أشبه بآثار حرق على فخذها الأيمن ، أو شامة كبيرة ونافرة أعلى عنقها ، أو بروز ركبتيها إلى الأمام ، أو بروز حبيبات على حلمتي ثدييها أو اسوداد منطقة عشّها ، حتى بعد أن تنظفها من الشعر وتنعمها تمامًا وتفركها بالعسل والليمون ، بناء على وصفة من رفيقة سكن مغربية كما تقول له . ثم تسأله بجزع : «انْظرا هل أبدو في الرابعة والثلاثين؟»

على أنها في العموم لا تحدثه عن رفيقات السكن ، فهي لا تصطدم بهن إلا صدفة ، في المطبخ المشترك ، وعن نفسها لا تستخدم المطبخ إلا نادرًا . فقد حولتْ غرفة خزانة الملابس الصغيرة الملحقة بغرفة النوم بممر ضيق إلى مطبخ ، به ثلاجة صغيرة وغاز كهربائي بعينيْن ، يفي بإعداد القهوة والشاي وأحيانًا البيض المقلي . وإذا حدث وأن التقين ، ثلاثًا أو أربعًا حول طاولة المطبخ بكراسيها المخلخلة ، فإن الحديث ، بلغة إنجليزية مكسّرة ، يجرهن إلى العمل ، فدائمًا هناك من تركت عملها ومن تخشى أن تتركه ومن لا تزال بعد شهور تبحث عن عمل ، وأحدث ما استجد في قوانين الإقامة والمحال التجارية التي بدأت تنزيلاتها الموسمية . وتتّسع الدائرة حين تقرأ لهن كريمة ، الرفيقة المغربية التي تعمل في صالون تجميل ، الطالع باستخدام ورق «التاروت» أو ورق اللعب العادي أو ، وهو ما يفضله معظمهن ، عبر قراءة حظوظهن التي ترتسم أشكالها الهندسية الغريبة ، والمخيفة أحيانًا ، في فناجين القهوة المقلوبة . لا تتقاضى كريمة منهن أي مبلغ لقاء الكشف عما تخبئه لهن الأيام القادمة ، على الرغم من أنه ليس سرًا أن قراءة الطالع تدر عليها دخلاً إضافيًا ، يفوق في أوقات كثيرة دخلها من الصالون ، بعدما اتسعتْ دائرة شهرتها وباتت تلجأ إليها العديد من النسوة اليائسات ، بعضهن يأتينها الشقة ملفوفات بالسواد ، مُغلّفات بالنقاب ، حيث تقفل عليهن كريمة المطبخ ، وسط احترام رفيقات السكن

لهذه الخصوصية ، وهو ما تقابله كريمة بقراءتها المجانية لطالعهن .

كان هناك اتفاق ضمني على عدم استضافة الرجال في الشقة . الحياة الخاصة لهن يجب أن تظل خارجها . لذا ، فاجأته بدعوتها له . «هل أنت واثقة؟» سألها . قالت له إن هناك من سافرن إلى دولهن في إجازة ، وهناك من تركن الشقة ولم تحلّ محلهن فتيات جديدات بعد . فقط كريمة وإلينا ستكونان في الشقة . كريمة أقرب رفيقات السكن إليها . في ليال كثيرة ، تدعوها إلى غرفتها ، تأكلان «الشيبس» على السرير وتتابعان المسلسلات الأميركية الكوميدية على القناة الثانية ، وتختم كريمة السهرة بقراءة متعمقة لطالعها ، الذي تكون تفاصيله قد ترسّبتْ في قاع فنجان القهوة ، قبل أن تُكتب على جدران الفنجان . تقرأه لها بالساعات والأيام ، دون أن تلوّن لها قدرها ، أو تستلّ سواد لياليه منه ، تمامًا كما لا تخفي بهجة القادم ، إن وُجدتْ . ما تراه كريمة تقوله . ويحدث أن تتصل به صباح اليوم التالي لسهرة الطالع ، لتحذره من غد ليس جميلاً ، فيطمئنها بأنه سيحتاط لهذا الغد . تقول له إن ثمة عملاقًا بنصف وجه يتربّص بها . ويحاول ألاّ يجعلها تسترسل كثيرًا في مشاركته تفاصيل طالعها ، بعد أن باتت تفترض دون أن يدري لماذا ودون أن يجادلها في الأمر أن طالعهما مشترك . وقد يجد نفسه مضطرًا لأن يترك عمله ، تحت إصرارها ، وتحت تهديدها بأن تهجره في حال رفضه ، فيوافيها في أي مقهى ، وفي أي وقت ، ليقول لها تلك الأشياء الجميلة التي تحبّ ، التي يقولها العشاق البائسون في العادة ؛ من نوع «أنا لكِ» ، و«أنت لي» ، لاعنًا في داخله كريمة وربّ كريمة . أما إلينا ، فلن تعترض على خرق الاتفاقية بعدما أقرضتها ليال مبلغًا من المال تدفع به جزءاً من حصتها من إيجار غرفتها المتأخر . لم تطلب منها ذلك صراحة ، وبدورها لم تُشعرها إلينا بأنها تقدم لها خدمة مقابل خدمة . كان ثمة تواطؤ بينهما ، تواطؤ مؤقت بالتأكيد ولن تترتب عليه أية استحقاقات .

فتحتْ له الباب . كانت تلبس عريها الفضفاض . ذُعر . ابتسمت . طوّقتْ عنقها بقلائد كثيرة من خرز ملون ، قلائد قصيرة وأخرى طويلة ، فأطول وأطول . بعضها لامس ثدييْها المشرقيْن وأخرى تدلتْ تحتهما ، وثمة عقد طويل جدًا من الخرز الأخضر الفيروزي استقر أسفل بطنها . أشارت له بمرح طفولي تناقض والمرأة المشرعة الجسد ، وهو تناقض لم يبدُ شديد الفجاجة ، إلى وشم الوردة المنقوش بالحنة السوداء على إليتها اليمنى . كريمة نقشتها لها . لم يُفاجأ . كان يعرف أن ثمة شيئًا ما مختلفًا ينتظره ، فلقد عودته أن تفاجئه دائمًا ، فهذا جزء من لعبتهما معًا ، وإذا كان قد توقع المفاجأة ، من حيث المبدأ ، فإنه لم يتوقع الوردة . كانا لا يزالان عند مدخل الباب . تلفتَ حوله بقلق عكسته نظراته التي كانت تتنقّل بسرعة في الشقة ، محاولاً تحديد موقعه من الأشياء من حوله . ضحكتْ . كانت تحب أن تراه متوترًا ، وأحيانًا تائهًا ووجلاً ، وهو ما يجعله ميالاً للاعتماد عليها ، فهذا ينقل السيطرة على الأمور إليها ، ولو مؤقتًا ، فتستطيع أن تقوده إلى جسمها وتستطيع بالتالي أن تمنحه منه بالقدر الذي تريد هي وتسمح به .

كان يعرف اللعبة ؛ لعبتهما ، وكان يلعبها بالشروط المتفاهم عليها ضمنيًا . في مرات كثيرة ، يكون المكان مكانه ، كأن يستأجر غرفة في فندق أو شقة مفروشة أو قد يستعير شقة عمر أو فراس ، فيسبقها إليها ، مستطلعًا قارّتهما الجديدة ، مستكشفًا عالمهما المؤقت ، ماشيًا إلى خطر الإثارة قبلها ، مستمدًا شجاعته ، وأحيانًا تهوره ، من جوعه لها ، الذي تتصاعد وتيرته أثناء الطريق ، متوقعًا ، دون أن يجفل أو يتراجع بأي حال ، مفاجآت مزعجة كأن يتعرف عليه أحدهم في باحة الفندق أو في المصعد ، إلى حيث الشقة المفروشة ، أو معرفًا نفسه له أنه صديق لم يلتقه منذ زمن ويضطر بدوره أن يرحب به بحرارة ويستمع إلى حكايات وأخبار لا معنى لها عن أناس لا يعنون له شيئًا ، أو قد يرمقه الناطور في العمارة ، حيث

شـقـة عـمـر أو فـراس ، بنظرة المرتاب أو العـارف ، وهي نظرة يتـفـاداها بأن يصعد إلى الطابق غير المنشود ، بطابق أو اثنين قبله أو بعده ، مـسـتخدمًا السـلالـم ، هبـوطًا أو صـعـودًا ، في الوصـول إلى الشـقـة ، حـتى إذا تأكـد أن الطريق سـالك ، أو قـد ذلّلها لها وحـيّد كل المعارف المحـتملين ، وافتـه إلى مكان لقائهما الحُبّي الجديد ، الذي يكون قد أصبح مكانه . . ملعبه . وكان يستطيع من نقرات أصابعها السريعة المتقافزة على الباب أن يقيس درجة خوفها واضطرابها ، فيتراءى له جسدها الكامن على رغبة حييّة من تحت ملابسها ، مقاومًا خوفًا يعيقه عن بلوغ غايته .

فلتـقـد الليلة اللعبـة . قـالت له إن كـريمة وإلينا في غـرفـتيـهـمـا . كـان المدخل يصبّ في موزع مـسـتطيل يفـتح على الصـالون إلى اليـمـين وغـرف النوم إلى اليـسـار ، بينمـا يُفـتح من وسطه على المطبخ ، الذي كـان مـضـاء وبابه موارب ، فلاح منه طرف ثلاجة ثبّتت عليها قصاصات ورقية ملونة ، وجزء من طاولة من خشب «الفورمايكا» وكرسيّان ، أحدهما تخلّع ظهره الجلدي ، وجانب من حوض الغـسـيل المعـدني وقـد طُبّت فـوقـه بضـعـة صحون وأكواب خزفيّة . كأنه لمح خيالاً في المطبخ . كان خيالاً ساكنًا . ضمّها إليه . شيء من خَجَل تسرب إليه ، أو ربما وَجَل . ضحكتْ متمادية في نشر عريها على حواف جسده الذي لم يفك أزرار قلقه تمامًا . داعبتْ وجهه ببعض قلائدها . داعبت خدّيه بخديها . دعكت شفتيه المنكّهتيْن بطعم سجائر طازجة بأنفها . مررت لسـانها الرطب فوقـهـما . فـاحت من فمها رائحة ملبّس بطعم الكرز . كانت تحتفظ بجزء من حبة الملبّس شبه الذائبـة تحت لسـانها . مرّرتها إلى لسـانه . لثم لسـانه لسـانها الذي نزّ دبقًا وفيرًا قبل أن يشفطه بفمه . استرجع لسـانها بقايا حبة الملبس من فمه . التحـمت شفـاههـمـا وقـد ترنّختْ بسـيل الدبق الذي غـمـرها وفـاض على ذقنيهما ؛ عصارةً متسكّرة ، رطبة ولزجة .

سحقتْ ثدييها في صدره الذي تحرّر بعض الشيء من انكماشه . شعر بقلائدها تكاد تخترقه ، خاصة تلك ذات الخرزات الكبيرة المستطيلة كرصاصات . انزلق جسدها إلى أسفل . كان ينزلق ببطء ، وكانت قلائدها تطقطق خرزاتها بعضها ببعض . تحاكك جسدها العاري ، إلا من بضع قلادات ووشم وردة ، بجسده . كان يستطيع أن يسمع لهاث لحمها . كانت تعرف الطريق إلى جسده . كانت تعرف كل الطرق . كانت تعرف حتى الطرق غير المطروقة ؛ فلم تخش أن تقوده معها إلى أنفاق من اللذة ظلتْ حتى عهده بها مغلقة ، بالنسبة له . كل نفق يؤدي إلى آخر ، وطريق الشهوة الرئيسي يقود إلى طرق شهوة فرعيّة ، بمفاجآت وغرائب عدة تطلع من الأزقّة .

وإذ استحكم وهن الشهوة في قامته الطويلة ، خال نفسه يتمايل على جانبيه ويتقلّص أمام قامتها المنمنمة . فجأة ، ركّعته أرضًا بيديها . شدّته من شعره ، ورفعتْ رأسه ثم جذبته إلى بطنها لتمسح جبينه به ، قبل أن تنزله إلى حيث عضوها الأملس ، كصفحة ماء ، ينتظر . «شمّه!» قالت له . عبقتْ رئتاه برائحة لحم نظيف عطر . «أتعجبك رائحته؟» سألته . قالت له إنها دعكته ببذور الخُزامى المنقوعة بالماء . مشتْ شفتاه فوق تضاريسه الواضحة . « ناعم؟» لم تكن تبدو كأنها تسأله . كانت واثقة من نعومته من اختلاج شفتيه على السهل المنبسط . شعر بقلائدها تُطقطق خرزاتها بصخب حين دارت خلفه وامتطتْ ظهره . طوقتْ عنقه بذراعيها وحوطتْ جذعه الهائل بساقيها الصغيرتين . بسط يده العريضة تحت إليتها ليسندها ودفعها إلى أعلى قليلاً ، وسار بها عبر الممر المؤدي إلى غرفتها . كان يسير بتوجيهاتها .

ألقى بها فوق السرير . تناثرت القلائد المختلفة الأطوال فوق عريها . ضحكتْ . عبثتْ بخرزات لقلادة طويلة من اللؤلؤ الأبيض . تارة تلفها

حول إصبعها ، وتارة تضعها بين شفتيها اللتين احتفظتا ببقايا أحمر شفاه داكن ، وتارة ثالثة تدحرجها على حواف مكمن متعتها الصقيلة . نهض ثدياها المتماسكان من بين الخرزات الملونة . ضحكتْ الحلمتان وسطهما . كانت تحب جسمها . تقول له إنها كثيرًا ما تُستثار من مجرد تأمّله في المرآة . في المرآة ، كما تقول ، لا تنظر إلى وجهها ، الذي تنسى شكله في أوقات كثيرة . تنظر فقط إلى جسدها ، إلى تقاسيم عريها . وتحب أكثر أن تتعرى أمام المرآة . ولقد شحذتْ أحاسيسها بطريقة تجعلها تُفاجأ بعريها في كل مرة ، وفي بعض الأحيان قد تنبهر به ، كأنه ليس ذاك المتدثّر تحت ملابسها والذي تعرفه ، أو كأنه عري امرأة أخرى لا تني تفتنها وتدهشها . يذكر مرة حين استأجر غرفة في فندق ، مزدحمة بالمرايا . كانت هناك مرايا على الجدران ، وعلى الخزانة ، وعلى السقف ، ومرآة التسريحة . مارست ، ليلتها ، الجنس مع المرآة أكثر مما مارسته معه . ومع ذلك ، كانت ثمة متعة من نوع مختلف بالنسبة له . كان كأن ثمة طرفًا ثالثًا . وفكرة الطرف الثالث ، كمشارك خلاق في العملية الجنسية ، لطالما أثارته ولطالما ناقشها بينه وبين نفسه سرًا واستحضرها في خيالاته ، إذ تنشط كل أنواع الأفكار والصور المرعبة من فرط اللذة . وبعضها كان يستحضرها من الأفلام المنسوخة على الأقراص المدمجة التي يستعيرها من كمال .

هبط فوقها بملابسه . انسابت شفتاه فوق بطنها . لثم سرّتها . سحل إلى الأسفل قليلا ، إلى حيث تثاءب ينبوعها . لثمه . خاله يختلج مع ريح أنفاسه الحارة . مشى لسانه فوق تفاصيله المترفة والواضحة . فاحت منه رائحة أرض بلّلتها الزخات الأولى لمطر مُشْتَهى منذ زمن . فاحت منه أيضًا رائحة صابون حديث . تذهله دائمًا برغبتها الحاضرة دومًا والملحّة بالمطلق . كانت عطشى على طول لمائه ، وهو ما تطلبه منه بإلحاح ، بلغة خلاّقة تبدو على فرادتها وجدّتها وجمالية ابتذالها كأنها طالعة من قاموس خاص بها .

كانت تنغّم كلماتها أو تلويها أو تطرّيها أو تميّعها ، فتخرج من بين شفتيها ، اللتين تضيّقهما عمدًا أثناء الكلام ، لزجة ، متكّسرة ، سائحة ، ومثيرة . وقد تعيق خروج الكلمات أو تبطئها بإصبعها التي تحشرها بين أسنانها فتسيل من فمها كالعصارة ، أو قد تتكلم وبفمها مصاصة لا تفارقها طيلة اتصالهما الجنسي الذي قد يمتد إلى ساعة ، من العبث والاحتكاك اللحمي ، وربما أكثر ، فتذوب كلماتها في اللعاب السكّري ، لتفيض على جانبي فمها .

تسارع نبض ينبوعها . شعر به لسانه ، يقذف ماء ونارًا . صعد بلسانه إلى أمواج بطنها ، فثدييْها المزينين بالقلائد الملونة . تفتحتْ كل منافذ الشهوة لديه على إيقاع كلماتها المُلحّنة . ارتقى لسانه وجهها . استحالت كلماتها غمغمة منكّهة بالآه . ثم فجأة . . فتحت عينيها على آخرهما ، وغرزتْ أسنانها في خدّه . كان الألم شديدًا . خال قطعة من لحمه انتُزعت منه . صرخ .

- أنتَ لا تُحبّني .

غلالة الخدر التي انسدلت فوق وجهها تمزقتْ لتكشف عن امرأة غاضبة ، وغضبها كان جزءًا من استثارته أو محفزًا له . صفعها مرة ، ومرة ، ومرة ثالثة . أحدث ارتطام القلائد بعضها ببعض ، دويًا هائلاً . همّت بأن تعضّه ثانية ، فصفعها للمرة الرابعة . كانت تحته محاصرة بجسده الذي لم ينزع ملابسه . جذبته من قميصه ، فتقطعتْ ثلاثة أو أربعة من أزراره . شدّها إلى أعلى من إحدى القلائد . ضاقتْ القلادة حول عنقها حتى أوشكت أن تخنقها ، ثم انقطعتْ لتنهمر الخرزات على السرير وتتساقط على الأرض في دحرجة سريعة متتابعة . لكمتْ صدره بقبضتي يديها ، لكمات عديدة . صفعها على وجنتيها صفعات عدة . «كلبة .» «كلبة .» «كلبة .» قال لها . تقطعتْ قلائد أخرى وتكاثف هطول الخرز على السرير

والأرض . ارتختْ . أفلتتْ مقاومتها ، واستسلمتْ أبكر مما توقع . أدارتْ وجهها جانبًا وطوت جفونها . كان لا يزال فوقها حين خلع ملابسه بسرعة وأتاها .

تفحّص خدّه في مرآة الحمام . آثار أسنانها علّمتْ فيه . كيف سيشرح الأمر لفاديا؟ لكن على الأرجح ألا تنبته فاديا للأمر . شعر بتعب في جسده . عضلات ساقيه وذراعيه لم تنفض توترها تمامًا . بحث معها عن أزرار قميصه المفقودة بين الخرزات الكثيرة التي تناثرت على الأرض ، فلم يجدها . اقترحتْ عليه أن يضع قليلاً من بودرة الخدود خاصتها على وجنته . «في الصباح ستكون أسناني قد زالت عنك تمامًا .» قالت له وهي تضحك . استلقتْ على السرير على بطنها تتابع مسلسلاً أميركيًا كوميديًا ، وقد رفعت ساقيها خلفها ، تؤرجحهما إلى اليمين وإلى اليسار ، تتناوب العبث بما تبقى من قلائد في عنقها وتخمش رقائق «الشيبس» . كانت عارية لا تزال ، وإن بدا عريها أقل تمطيًا وتفاخرًا واقتحامًا للمشهد . لم تنظر إليه عندما قبّلها على وجهها وغادر . كانت عينها على التلفزيون . وكانت تضحك .

في الطريق إلى الباب ، مرّت في خاطره الفكرة التي تمر في خاطره دومًا بعد كل لقاء لهما . «العلاقة يجب أن تنتهي .» تبعه صوت الضحك الذي تعالى من داخل التلفزيون للجمهور الافتراضي للمسلسل . أنهكته لعبتها . كان يعترف لها دومًا بطاقتها البدنية الهائلة التي تفوق طاقته بما لا يُقارَن . كانت على استعداد لأن تتلوّى وتتأرجح وتئنّ وتتأوّه وتقفز وتهتز وتنتفض وترتج فوقه وتحته لساعات ، وحتى لدهور ، دون أن يصيبها إعياء ، أو تخمد حماستها أو تبرد استثارتها .

الممر ، في طريق خروجه ، كان أقل إظلامًا مما كان عليه حين دخله ، أو لعلّه ألفه . المطبخ كان مضاءً . بابه كان مفتوحًا على آخره ، ما كشف

عن معظم محتوياته . على الطاولة ، جلستْ امرأة ، برأس مائل على الجنب ، تُمعن النظر في فنجان قهوة . لم تشأ أن تراه . كانت مستغرقة في فنجانها ، لكن تعابير وجهها بدت حيادية تمامًا . لم يرتسم على وجهها أي فرح ، لرمز ما خبئ في رسوم الفنجان ، كما لم يرتسم عليها أي جزع ، لم تكن متفاجئة لما تراه أمامها وفي الوقت نفسه لم تكن متوقّعة له ، كأن الأشكال المتقاطعة ، المتشابكة ، التي يفترض أنها مُحيِّرة ودالة في الوقت نفسه ، لم يبدُ أنها تعني شيئًا أو تريد أن تكشف لها شيئًا .

وقف عند مدخل الباب . أشعل سيجارة . من خلال سحابة الدخان التقت عيناه عينيها . وضعتْ الفنجان على الطاولة . قلبتْ أوراقًا مكشوفة على بطنها . بسطتْ ذراعيها وكفيها له . تكاثفتْ سحابة الدخان التي تجمّعتْ في المساحة الضيقة للمدخل . تزحزحتْ ، في ثنيات السحابة ، صورة المرأة على الطاولة من مكانها . أحرق ما تبقى من سيجارته بنفس واحد طويل ، وغادر الشقة مسرعًا .

(٤)

عمر السّرو
(٤٩ عاماً)

«حلمتُ بك . اتّصل بي . هنادي .»

وذيّلتْ الرسالة برقم الهاتف ولا شيء آخر . ازدحم ما تبقى من الصفحة البيضاء ذات القطع الكبير بفراغ عظيم أتى على الكلمات الكثيرة التي فاضت بها عشرات الرسائل الأخرى المشرعة خباياها على مكتبه . بعض رسائل العشاق و«الحالمين» المزوّقة والمفرودة على مشاعر غزيرة شحُبت وانكمشتْ تحت إصرار اللهجة القاطعة الملزمة لكلماتها الأربع : «حلمتُ بك . اتّصل بي .» جرفه طوفان الكلمات الذي خاله يتهاوى من جبل لامستْ قمته السماء . لم يحتج أن يتحقّق من الاسم . كانت هي . بعد ثمانية وعشرين عامًا لم تتغير .

أشعل سيجارة . سحب نفسًا عميقًا وانتظر الشعور الوشيك الذي سيمتطيه . اجتاحته رعشة تمددتْ في كل جسمه ، تشعّبتْ وتشظتْ ، ثم ما لبثت أن استجمعتْ أطرافها لتتكثف في ساقيه . آثر ألا ينهض من على مكتبه ، لأنه في تلك اللحظة لم يكن يستطيع ذلك . الرجفة التي استوطنتْ قدميه استجابت لها يده فأفلتتْ السيجارة . نفض الرماد من على رسائل اليائسين والمحبطين ، (بعض هؤلاء اليائسين والمحبطين لا ينسون في غمرة يأسهم وإحباطهم أن يزينوا رسائلهم برسوم لورود متفتحة

أو مغمضة حسب الحالة النفسية التي هم عليها ، وفي حالات العشق الميؤوس منه يمكن توقيع الرسالة بالدمع ، إما برسم قطراته ، أو بترك دمعة تسقط على الحبر الطريّ مذيبًا حواف الكلمات) . أطفأ السيجارة دون أن يكتمل احتراقها وعاد إلى فرز بريد «مرسال القلوب» عن بريد «ورأيتُ في المنام» .

الكل يحبّ ، والكل لا يطول من يحبّ . وثمة فيض هائل من حرقة وعذاب وقنوط وزهد في العيش ، حدّ اشتهاء الموت واستعجاله . بعض الرسائل من فرط ما فيها من يأس ونواح قلبيّ لتثير الضحك ، وفي سهرات الأصدقاء في المقهى أو في صالون كمال ، يقصّ عليهم بعض حكايات الغرام والعذاب ، التي يجود بها بريد «مرسال القلوب» ، والتي لا ينقص سيناريوهاتها ، والله ، سوى «يا خاين . . يا غشاش . . يا كدّاب» ، أو «أنا مأدرش أعيش من غيرك» ، أو «أحماااااد . . . مُناااااا!» و«أنا قلت الجوازة دي مش حَ تم يعني مش حَ تم .» والصحب يضحكون على طريقته في رواية حكايات مراسيل عشاقه أكثر مما يضحكون على الحكايات نفسها . يتخيل عشاقه يصومون عن الطعام والحياة ، تتراءى له وجوههم مورمة من تراكم طبقات من البكاء عليها . ويلوح هزالهم فوق كلماتهم الواهنة المليئة بالأخطاء الإملائية والقواعدية . غريب كيف أن العالم قد يُختصر في كائن بشري مطلق العادية . وفي النهاية ، هذا الكائن المعشوق ، أصل العذاب ومبعثه ، تغزو الفطريات قدمه وتكون له رائحة فم مزعجة عند الاستيقاظ ويضرط وينسى أن يشد حبل «السيفون» على خرائه في الحمام . هذه الفكرة تلحّ عليه دائمًا ، لكنه لا يبدو أنه يستطيع أن يثبتها .

مرّ عليه إياد . عرض عليه أن يقلّه بسيارته في طريقه . طوى ارتجافته مع الرسالة ، شبه البيضاء ، وأشار إلى العشق الكثير المنثور على طاولته ، وقال بابتسامة مغتصبة : «انظر إلى هذه الرسائل . هؤلاء العشاق لن يناموا

الليلة إذا لم أردّ عليهم! أليس كذلك؟»

- بالتأكيد . . بالتأكيد يا عالم بالقلوب!

لم تغب عليه السخرية المطوية في لهجته . لكنه اعتاد على «تنكيت» إياد عليه : «حلاّل المشاكل العويصة» ، و«طبيب القلوب العليلة» ، و«مداوي الجروح» ، و«شافي الروح» ، و«العلامة الإمام عمر بن سيرين» ، بالإشارة إلى الإمام محمد بن سيرين ، صاحب «منتخب الكلام في تفسير الأحلام» ، مرجعه الرئيس ، غير الموثوق به دائمًا بالضرورة ، في تفسير الأحلام التي ترد إليه في بريد «ورأيت في المنام» . اعتاد سخريته ، فلم يكن ينزعج منها أبدًا . على أنّه هذه الليلة ، لم يكن يستطيع أن يجاريه فيها ، كما لم يكن في نيته أن يباريه في السخرية ، هو أيضًا ، من ذاته الأدرى بعللها . تمنى له إياد سهرة لطيفة مع عشاقه المعذبين وودّعه ومضى ، ليعود إلى الرسالة التي كانت تلح عليه بكلماتها الطاغية والنافذة ، على قلّتها ، وتلحّ عليه أكثر ببياضها المسهب .

كيف عرفتْ هنادي طريقها إليه؟ لكن كل الذين يعشقون ويحلمون يعرفون الطريق إليه ، هكذا يفترض بالنظر إلى أكداس الرسائل الواردة إلى الصحيفة ، ومعظمها إلى بابي «ورأيتُ في المنام» و«مرسال القلوب» . يوقع باسمه على الباب الأول في حين يوقع بالـ«نون» على الآخر ؛ فحرف النون ، كما قال لمدير التحرير ، يوحي بالعمق والحميمية كما أن صوت الحرف عند نطقه يشي بالخفوت والسرية ، لسبب ما يشعر به دون أن يستطيع أن يضع يده عليه بالضبط . مدير التحرير لم يقتنع ، فالنون أقرب ما تكون إلى نون النسوة ، لكنه لم يجادل . والصحيح ، أن العديد من الرسائل الواردة إليه كانت تستهل بـ«عزيزتي نون» ، وهو أمر اكتشف ، مع الوقت ، أنه لا يخلو من إيجابية ، ذلك أن العديد من الناس يعتقدون أن إيداع قلوبهم ، وما يتأجج فيها من عذابات وانكسارات ورغبات مجهضة ،

في أيدي امرأة، أكثر مدعاة للاطمئنان والشعور بالأمان والتسليم المطلق مما لو عهدوا بها إلى رجل. بناءً على ذلك، لم يحاول أن يشدّد على تذكير النون أو تأنيثها، تاركًا المسألة مرهونة بالصورة التي يريد العاشق أو العاشقة أن يراه فيها، كل حسب قناعته بـ«الجنس» الأجدر بالاطمئنان إليه من غيره.

«الساعة الواحدة على درج كلية الآداب».. «بعد المحاضرة، في الكافتريا».. «تعال إلى المكتبة».. «اتصل بي مساء».. «عند كوفي شوب سلّوم في الخامسة.» كانت تمرر له عشرات الرسائل على هذه الشاكلة. تكتبها على ورقة بيضاء أو مسطرة، وتكون الورقة طويلة وفارغة إلا من ثلاث أو أربع كلمات، وأحيانًا كلمة واحدة من مثل: «قابلني!» ولا يحتاج أن يسأل متى وأين اللقاء، لأنها تكون هناك دائمًا، في كل مكان وفي أي وقت. وبالرغم من أنهما غالبًا ما يصطدمان بعضهما ببعض عند مدخل القاعة قبل المحاضرة بدقائق، يشعل لها سيجارة، ويفتعلان أي حديث مشترك، وقد يخوضان في صمت مشترك، إلا أنها كأنها لا تتذكر أمر ترتيب اللقاء، لقائهما العاطفي، الذي يبدو ماسًا ومهمًا ولا يحتمل العبث به إلا أثناء المحاضرة، وهو أمر كان يستغربه، وإن لا يذكر أنه ناقشها فيه أبدًا. كانت تجلس دائمًا في الصف الخلفي من المدرج، في حين كان يجلس في الصف الثاني أو الثالث على الأبعد، وهو أمر آخر كان يستغربه فيها، ذلك أنها لم تكن تجلس إلى جانبه، رغم تركه مساحة لها، ليس حرصًا منها بالتأكيد على سرية علاقتهما، التي لم تكن سرية، بل لشيء غير مفهوم وسم شخصيتها وأداءها العاطفي معه بالجمل. الأمر الآخر الذي كان يستغربه أيضًا، إنما لنفسه هذه المرة، هو أنه لم يكن يطلب منها أن تجلس إلى جواره، ليتحاككا على غرار بعض الزملاء العاشقين، كما لم يكن يوحي لها برغبته في ذلك.

بعد دقائق من بدء المحاضرة ، يشعر بالرسالة ، وما يرافقها من همس وهمهمات ، تتنقّل بين أيدي الزملاء والزميلات ، تنزل إليه من علٍ ، كمطرٍ منهمر بخفة وحذر ؛ رسالة بيضاء مطوية أربع أو خمس طيات ، حتى إذا فتحها ، طفتْ أعلى محيط فراغ الورقة الواسع كلماتها ، التي على شحّها تلتهم الفراغ بالكامل . ثم يطوف في داخله ذاك التوتر المضاعف حين يتابعه المحاضر بنظرات تعبر عن بالغ انزعاجه وهو يفك طيات الرسالة الكثيرة ، محدثًا جلبة ، مبعثها صوت تمطي الورقة ، في فضاء قاعة المحاضرات الواسعة ، يداخله توتره الأصلي من توقّع الرسالة ، وتوقّع هطولها عليه ، وتوقّع محتواها ، وتوقّع تفاصيل اللقاء الذي ينتهي في النهاية إلى لا شيء . «أردتُ أن أراك وفقط .» كانت تقول له وتنشغل عنه معظم الوقت بالتدقيق في أشكال رواد المقهى ، وتخيل طبيعة العلاقات المحتملة فيما بينهم ، أو برسم أشكال لا معنى لها على محرمة ورقية .

سحبه رنين الهاتف من تلك الأيام البعيدة . لكن الأيام البعيدة بدت كأنها أمس أو قبل أسبوع على الأكثر . تقاطيع وجهها لم تزل ماثلة في مخيّلته ، بالعينين الصغيرتين للغاية ، اللتين تنكمشان حدّ التلاشي التام حين تضحك ، والحاجبيْن الناحليْن والأنف الدقيق جدًا والشّامة التي استقرّتْ إلى يمين ذقنها . للآن ، لا يزال يذكر تلك الإيشاربات الملونة التي تصر على أن تؤطّر عنقها بها . ألحّ عليه رنين الهاتف . أشارت الساعة إلى العاشرة إلا بضع دقائق . هذا هو موعدها . جرى صوتها فوق الرسالة المفرودة أمامه . طوى الورقة ذات الفراغ المرهِق أربع أو خمس طيات ووضعها في جيبه قبل أن يتواصل مع الصوت الذي يزوره في أماسٍ كثيرة في مثل هذه الساعة . تتكلّم ببطء ، وبصوت كأنه يقطع مسافة طويلة في جسدها قبل أن يصل إلى حنجرتها ، إذ يصل لاهثًا ، يصعد جبالاً ويرتاد طرقًا متعرجة ووعرة ، متوقفًا بين كلمة وأخرى ليستجمع قواه . أحيانًا قد

يصله صوتها مكتنزًا بنسيج ثخين ومتماسك ، منسكبًا كقشطة ، وأحيانًا أخرى ، قد يصله صوتها مشروخًا أو مهشّمًا ، كزجاج مكسور ، لكنه مع ذلك لا يبدو أنه يرزح تحت ألم بقدر ما يرزح تحت رغبة تحاول ، يائسة ، ألا تتبدّى للأذن المتلقّية .

لن يعترف لها أبدًا ، ولن يعترف لأحد ، أنه في مرات كثيرة ، يُحفز رغبته على نغمات صوتها ، المتقطعة المتقافزة المتأوّهة . ينزل سحَاب البنطلون من تحت طاولة المكتب ، ويخرج شيئه المتثائب ، يمسّده بيده بحنوّ ، ثم يعصره ، يضغط فيرخي ، ويظل يفركه ، وإذا خشي أن يغفو في حضنه ، في حال غياب صوتها في ضجيج الخدر المتصاعد في جسده ، يصفعه أو يلكزه ليهب منتصبًا ثانيةً . استطاع أن يوفق ما بين إدراكه لشروط المكان المفتوح على احتمال مرور زميل عليه يسأله شيئًا ، أو دخول عامل النظافة إلى مكتبه لجمع جرائد الأيام الفائتة ورمي أعقاب السجائر المتكدسة في منفضة السجائر ، وبين التعاطي مع اختضاضات جسده ومشاعره الفائرة ، وما يصاحبها من قذف عنيف ، بحيث يغيب عن الوعي وهو واعٍ وصاحٍ تمامًا ، ويطفو خفيفًا ، منتشيًا فوق الأشياء في الوقت الذي يكون فيه جالسًا على كرسيه ، بقدمين ثقيلتين مغروستين في الأرض .

قالت له إنها حزينة هذه الليلة . لم يُفاجأ ، ففي كل الليالي التي تتصل فيها تكون حزينة ، وحين يسألها عن حزنها لا يتوقع شيئًا جديدًا يدهشه ، يعرف أنه سوف يسمع الأشياء ذاتها التي تقولها في كل مرة ، ولم يكن يضجر على الإطلاق . كان يحب الأشياء ذاتها التي تجري في صوتها ، كأغنية لا يملّ سماعها مرة بعد مرة . وحتى عندما تقطع ثرثرتهما الليلية ببكاء تمهد له ببتر جملة ما أو بانقطاع مفاجئ في النَّفَس ، يغمض عينيه على إحساس جميل يداعبه ، كمن يترنم على المقطع المفضل في أغنيته المفضلة .

اتصلت به أول مرة قبل عام . سألته عن «نون» . اعتاد أن يجيب عن سؤال القراء عن «نونهم» بأنه «ليس موجودًا» ، أو «خرج قبل قليل» ، أو «مسافر» ، وإذا ألحوا : «أنا سكرتيره» ، يقول لهم ، و«المكلف بتلقي الاستفسارات» ، و«عفوًا . . الأستاذ نون لا يتعامل إلا مع الرسائل التي ترده بالبريد .» كان ، ولا يزال ، حريصًا على عدم التورط مع اليائسين الكثيرين ، المقهورين في الحب والحياة . كان يعي ضرورة ترك مسافة بينه وبينهم ، كالمسافة التي يتركها الطبيب النفسي بينه وبين مرضاه ، صحيح أنه ليس طبيبًا نفسيًا لكن من يضمن له بأنهم ليسوا مرضى! للآن ، لم يتعافَ تمامًا من تلك الواقعة ، يوم استجاب أمام إلحاح قارئة بأن كشف عن هويته . لاحقته باتصالاتها في المكتب والبيت ، وهددته بالانتحار إذا لم يساعدها في حل مشكلتها . كانت قد أعطت زهرتها لمن تحب فتخلّى عنها ، في سيناريو سينمائي بائس ومكرر . وبعد أخذ وردّ ، وكرّ منها وفرّ من جانبه ، واضطراره لملاقاة العشيق الذي قطف الزهرة وولّى وتوسّله له بأن يعيد لها «شرف» زهرتها بالزواج ، وطأطأة رأسه بذلّ وهو يستمع إلى سارق الزهرة ينكر فعلته ، بل ويلصقها به ، وعشرات التعقيدات الأخرى التي انجرّتْ عليه ، لم تنتحر من فقدت زهرتها في النهاية لكنه كاد يفقد وظيفته ويخرب بيته حين شكته عائلتها ، التي اكتشفت الأمر ، لمدير التحرير والشرطة متهمينه بالاعتداء على زهرة البنت . ولولا تدخل إياد في الموضوع واستماتته في الدفاع عنه ، لكان اليوم في الشارع أو في السجن ، وربما ، وهو أسوأ ما تخيّله يومها ، لكان اضطر إلى الزواج بالفتاة ، التي باتت بلا زهرة .

«أنا نون» ، قال للصوت الذي نقر على نافذة أذنه بلطف . شعر بالصوت ينزلق في انحناءة «النون» بسلاسة ، شعر به يتهدهد في حضن الحرف الحميم ، فلم يشأ أن يجعله يجفل ويغادر «نونه» ، متجاهلاً نصيحة

إياد بالالتزام بمعايير السلامة المهنية في التعاطي مع بريد «مرسال القلوب» وتجنّب التورّط مع «مرضاه» مهما يكن الحال . «أنا حكي» ، قالت له . ضحك . لم تكن غريبة عليه أسماء مثل «سهر الليالي» ، و«عذاب يا حب» ، و«مغرم صبابا» ، التي كان يُوقّع بها أصحابها على رسائلهم . سألها عن اسمها الحقيقي ، ضاحكًا لا يزال ، فقطب صوتها جبينه ، ولبست أحرفه نزقًا وغيظًا طفوليًا شهيًا ، فكأنها ، كما اقترحت لهجة صوتها ، تقف على الأرض بثبات بساقين منفرجتين ، تضع يدها على خصرها وتضرب إحدى قدميها على الأرض ، قبل أن تقول بعصبية مصطنعة ، أرادتها أن تبدو مصطنعة فطفحتْ بإغراء عظيم : «والله العظيم اسمي حكي .» ضحك كثيرًا ، وقال بدوره : «والله العظيم اسمي نون .»

رسم لها في ذهنه ، من الخيالات النشيطة التي أوحى له بها صوتها ، «اسكتشات» عديدة إلى أن ثبت على لوحة نهائية لها ؛ فتاة في الثانية والثلاثين من العمر (مسألة العمر لم تكن متخيّلة ، فهي التي أقرت به دون أن يسألها) ، ببشرة حنطيّة وشعر أسود ، طويل أحيانًا وقصير أحيانًا أخرى حسب المزاج ، مزاجها هي ومزاجه هو ، وبعينين هما عسليتان أو رماديتان ، بحسب الحالة النفسية التي تكون عليها . كانت ذات قوام طويل ، ببروزات حادة ومثيرة في منطقتي الصدر والردفين ، وامتلاءات موزعة باتساق عند الفخذين وأعلى الذراعين والبطن ؛ هكذا دله صوتها عليها . لم يلتقها . لا يذكر أنه اقترح عليها بأن يتشاوفا ، لكنه كان واثقًا من أن صورتها ، المشتقة من صوتها ، في خياله لن تفرق كثيرًا عن صورتها الواقعية .

لم يكن يستمع إلى كلامها بقدر ما كان يستمع إلى جملها الصوتية . لكن صوتها اهتزّ بعنف ، وكأنه ارتطم بشيء ما فتهشّم . كان ثمة صمت أقلقه . وضع يده في جيبه . للحظة نسي أمر الرسالة المطوية على فراغ

عظيم ومقلق . ثم انهال سيل من البكاء . خضّبتْ دموعها شفتيها ، كما استطاع أن يميز من صوت بكائها المتدفّق . طبطب على صوت بكائها ليهدّئها . اليوم أيضًا اقترفتْ جريمة . أخبرته . وواصلت البكاء .

خُطبتْ ثلاث مرات ، وفسختْ الخِطبة مرتين . في المرة الأخيرة مات الخطيب في حادث سيارة . كانت إلى جانبه . يده على المقود ويده الأخرى تداعب رغبتها تحت التنورة . كانت ممددة على الكرسي الذي أمالته إلى الوراء ، ما جعلها تخرج من الحادث بخدوش طفيفة بينما اندفع جسم الخطيب بكل قوة إلى الأمام ليرتطم بزجاج السيارة الأمامي ويحطّمه ، ثم يُقذف عدة أمتار إلى الشارع . تركت مدينتها البعيدة ، التي عملتْ فيها معلّمة ، وجاءت إلى أبوظبي لتقيم مع شقيقتها المتزوجة ، وتعمل معلّمة في مدرسة خاصة .

كانت لا تزال تبكي حين وصفتْ له ، بكلمات مبلّلة ، كيف تسلّل زوج شقيقتها ليلة أمس إلى فراشها . أغمضتْ عينيها ، لكنها لم تكن نائمة . لم تُفاجأ به . اعترفتْ له بكلمات خالطتها أنّات لاهجة متقطعة أنها كانت تتوقّعه ، وأنها كانت تنتظره ، وأنها كانت تريده جدًا . «وعندما شعرتُ بيده ترفع قميص نومي من تحت اللحاف درتُ حول نفسي وكدت أقع . . تَخيّل . . أن أقع وأنا نائمة . هل هذا ممكن؟» زوج شقيقتها يحبّ ملمس الزغب الذي يكسو فخذيها تحت كفه ، كبساط ناعم من الهواء . هكذا يقول لها . «أخذتني الدوخة . لحس وجهي وشفتيّ وعينيّ وأنفي ورقبتي ، لحس حتى جفوني . زحفت يده فوق فخذي ، ثم . .»

توقف صوتها عن الهمس والتلوّي ، فكأنّ الكلام ذاب في ماء عينيها .

– ثم ماذا؟ ما الذي حدث؟

سألها مذعورًا . قبض على سماعة الهاتف بثبات ، وألصقها بأذنه

المتعرّقة . أطلّ طائره برأسه من تحت المكتب ، وقد خلع انكماشه ، متمطّيًا بحذر . حشاه في كفّه التي كوّرها فأغلقتْ عليه تمامًا ، مستشعرًا النبض المتسارع للدماء التي كانت تتجمع فيه . كان يعرف ما الذي حدث ، وكان يستطيع أن يتخيّل اليد التي كانت ترتاح فوق البساط الزغبي والطريق الذي سلكته فيما بعد . لكن ، كان يجب أن يسمعها . كان يحتاج إلى صوتها ، ليكون تخيّله أكثر من مجرد تخيّل ، ليكون تخيّلاً حقيقيًا وليس أي تخيّل .

– وبعدين يا حكي؟ أرجوك!

عاد إليه صوتها . تجفّف من بلل الدموع ، لكنه ظل محتفظًا بطراوته . ما زالت فيه تلك المسحة التي توحي بالتهشم ، كهوية لا تفارقه ، وجزء من هويته تلك البطانة الداخلية من التأوّه حتى في أحوال الكلام العادية . «يده مشتْ من تحت قميص نومي إلى ثديي .» أتاه صوتها المتأوّه ، مداعبًا رأس الكائن الذي أطل من تكويرة كفه . «حوّط ثديي بكفه العريضة ، ثم بطرف أصبعه دعك حلمتي . أتعرف؟ انتفش رأس حلمتي . يحدث هذا لي في كل مرة يداعب فيها ثديي . أخذ حلمتي بفمه . كان يرضع مني كما يرضع علاء من أمه .»

توقف صوتها ثانية . فكّ حزام البنطلون وأرخاه تمامًا . طائره أفلت من كفه . لقد تذكرتْ شقيقتها . كانت قد أنجبتْ علاء قبل عشرة شهور ، ولديها ابنتان . سوف تقول له إنها لا تستطيع أن تتعايش مع شعورها بالخيانة بعد اليوم ، وإنها تشعر بالذنب كلما سكبتْ لها شقيقتها الطعام في صحنها قبل العائلة . تقول لها بحبّ أمومي : «كُلي! الهزال الزائد يطفش العرسان .» وتستعين بتأييد زوجها لوجهة نظرها ، الذي يرسل لها نظرات وحدها هي التي تفهمها وتؤلمها! ستقول له إنها تفكر بأن تضع حدًا لحياتها . وهو سيظهر تفهمًا للوضع المعقد ، صحيح أنها أخطأت لكنها لا

تتحمل المسؤولية وحدها . ومع ذلك ، ومن منطلق دوره كـ«نون» ، وبحسب التّوصيف الوظيفي الحسّاس والدقيق لهذا الدور ، عليه أن يشدّد على أهمية قيم مثل تعفّف النفس ومجانبة السير في طريق الغواية الذي لن يقود في النهاية إلاّ إلى الهاوية ، والحذر ، كل الحذر ، من أردية المتعة الجميلة التي يختال بها الشيطان وكل أنواع النصح وعبارات التحذير والترهيب . لا بأس سوف يعزف على هذه النغمة الأخلاقية لاحقًا . أما الآن ، فلا تستطيع أن تتوقف .

- يلّله يا حكي . . يلّله!

لن يفهم أبدًا كيف تستطيع أن تحزن وأن تبكي ماء غزيرًا يجرف صوتها ، وفي الوقت نفسه تُسْمعه موسيقى جسدها التي تعزف ، في الليالي السرية ، في غرفتها تحت اللحاف ، وتبدو كأنها ، رغم الأسى الذي يغمرها بسبب شعورها بالخيانة ، مستمتعةً بهذه الموسيقى ومستطعمةً ، أكثر منه رازحةً تحت وطأة الشعور بعذاب الضمير . بل إن الشيءَ الذي قد لا يفهمه أبدًا هو يقينه أنها تستشعر متعته حين يجري تأوّهها ، الذي يداخله شيء من بكاء وشيء من لهاث ، فوق جسده عبر الهاتف ، مدغدغًا حواسه . كان متيقّنًا كذلك من أنها تعرف وقع صوتها عليه ، ولعلّها تستطيع أن تخمّن أنه يعابث كائنه بصوتها ، ذلك أنها ، بطريقة ما ، تقوده من خلال فرك كائنه بصوتها وحكه به ودعكه إلى مناطق الاستثارة الأعظم في خياله ومن ثم جسده ، كأنها خبيرة بها أو مدربة عليها . ومن المؤكد أنها تنتشي بنشوته .

« . . . ثم نزلتْ يده إلى ساقي . ضغط على فخذي .» ضغط على كائنه ، الذي نبتَ يابسًا وطويلاً ، بقوة . «انزلقتْ يده تحت سروالي . همس في أذني بأنه اشتاق لعُشّي واشتاق أكثر كي يرقد عصفوره فوقه .» عبثتْ أصابعه بشعر عانته . أمعن صوتها في التأوه وغالى في التمطّي . كبر

كائنه . «حطَّ عصفوره على عُشّي ، فقبضتُ عليه بقوة كي لا يطير . كنتُ أعرف أنه من الخطأ أن آخذه ومع ذلك كنت أريده جدًا .» رقد عصفوره بين فخذيه وقد أدناهما إلى بعضهما ، ولم يزل يفركه ويدعكه صعودًا وهبوطًا ، فصعودًا وهبوطًا .

- كمان يا حكي . . كمان!

«كان فوقي تمامًا . هرس ثدييَّ . استقرّ عصفوره في عُشّي . تلحّف به . علق في تشابكات شعره الغزير . جسده كان خفيفًا . كنتُ أطير من تحته . كنت ألثم رقبته وذقنه ووجنتيه . طعمه كان لذيذًا . نكهة لحمه تفتنني دائمًا ، وهي تفتنني حتى عندما تكون مغمسة بزنخة النهارات الطويلة والحارة .» جسده كان يهتزّ ، يعلو ويهبط بتسارع . رفع جسمه عن الكرسي قليلاً محنيًا ظهره إلى الأمام . شعر بإعصار النشوة ، الذي اكتملت دوامته ، يقترب سريعًا .

- نعم يا حكي . . ثم؟

«ظلّ يقول لي طوال الوقت «أحبك» و«أحب جسمك» و«أحب عشّك» و«أحب أن ألتهمه» ، وظلّ يرتجّ وينتفض بعنف إلى أن شهق أخيرًا ، ثم صرختُ ، لكنه كتم صوتي بكفه . كنتُ تحته ما أزال ، وكنتُ دائخة ، وكانت ثمة بقايا انتفاضة تطلع من جسمي على دفعات . لم أشأ أن ينهض من فوقي . لكنه في النهاية ، كان يجب أن يتركني . كان يجب أن يذهب إلى شقيقتي النائمة .»

شعر بجسمه يثقل فجأة ، وبقدميه كأنهما ملتصقتان بالأرض أو مغروزتان في أعمق نقطة فيها . انتفاضته كانت عظيمة ، باذلاً مجهودًا لا يُستهان به كي يكتم صرخة انتشائه التي دوى صداها في جسده الجالس على الكرسي . مسح يده التي تلطخت بسائله الذي قذفه على الأرض بمحرمة ورقية . كانت لا تزال على الخطّ . دخلت في نوبة بكاء متجددة .

قالت له ما يتوقعه في كل مرة :

- لم أعد أستطيع أن أتعايش مع الشعور بالخيانة . إنه شعور مؤلم .
أيُعقل أن أفعل ذلك بشقيقتي التي تسكب لي الطعام في صحني على المائدة قبل الجميع؟ يا الله كم أشعر بالذنب!

ثم بذاك الصوت الذي يعرفه جيدًا ، والذي يأتيه كأنه يقطع مسافة طويلة ، مرهقًا من حمل ثقيل :

- «خَلَصْ» . . لم أعد أستطيع الاستمرار على هذا النحو . أفكّر بأن أضع حدًا لحياتي . يجب أن أموت .

أَخرج سيجارة من العلبة أمامه ، وضعها بين شفتيه ، وأشعلها . كان لا يزال يستمع إلى صوتها على الهاتف . صوتها ظلّ جميلاً ، بانحناءات وانعطافات ممتعة ، لكنه لم يعد مثيرًا تمامًا . وعندما وصلتْ إلى «أفكر بأن أضع حدًا لحياتي . يجب أن أموت» ، عرف أن دوره في الحوار قد بدأ :

- صحيح أنك أخطأتِ ، لكن قطعًا لا يمكن تحميلكِ كامل المسؤولية .

ومع ذلك ، عليها أن تشكم رغباتها وتلجم أهواءها ، كما يشرح لها ، رغم إقراره بصعوبة الإفلات من شرك الغواية . ويستحلي بينه وبين نفسه الحديث عن الحب كعاطفة ترقى إلى مرتبة القداسة طالما ترفعتْ عن الابتذال ، وتأبّتْ عن الاستغراق في اللذة المحرمة ، لكنه لا يسمح لنفسه بالاندماج في الدور كثيرًا ، إذ يحرص على إنهاء المكالمة بسرعة ليتفرّغ للتخلّص من بقايا انتفاضته . والأهم يكون عليه أن ينهي المكالمة بسرعة كي لا يكره نفسه أكثر مما يكرهها في الوقت الراهن .

أغلق السماعة وتأكد من تزرير البنطلون ورفع السحاب . عاد إلى الرسالة المطوية في جيبه ، فضها وقرأ محتواها بصوت مسموع . «حلمتُ بك . اتصل بي .» أرجع رأسه إلى الوراء ، واستدار بكرسي المكتب الدوار ليواجه النافذة ، من خلفه ، التي تطل على شارع فرعي غافل . تأمل

السماء الفارغة من الحركة والنجوم، ثم عاد إلى «هنادي». خطّها هو. لم يتغير. «الياء» التي في «هنادي» طويلة وممدودة، كأن القلم تزحلق في يدها أثناء توقيع اسمها، فجرّ في طريقه الياء إلى ما لا نهاية. لكن ياءها هكذا دائمًا. ياؤها كأنها لا تخلُص أو لعلها لا تريد أن تتوقف عند نقطة معينة. معظم أحرفها الممدودة، التي تنتهي بها كلماتها، تكون كأنها ماضية في طريقها إلى ما بعد خط النهاية. هذه هي هنادي، ذات أحرف المدّ التي تظل ممدودة حتى تتعب. معقول أن هنادي بعد ثمانية وعشرين عامًا لم تتغير؟

تفحّص رقم الهاتف. كان رقم موبايل في لبنان. طلب الأرقام الثلاثة الأولى من موبايله ثم ضغط على زرّ إنهاء المكالمة. عاد فطبع على شاشة الموبايل الأرقام الخمسة الأولى ثم مسحها ثانية. أطفأ السيجارة في الرواسب الجافة لفنجان القهوة المتروك على مكتبه منذ الصباح. كان ثمة عقب سيجارة مغروس فيه منذ زمن بدا غابرًا. أزاح كومة الرسائل المفرودة على مكتبه، مبقيًا على رسالتها ذات الفراغ الشاسع. وقفتْ كلماتها قبالته. تمددت وتفرّعتْ في وجهه. طلب الرقم بأكمله. سمع الرّنة مرّة ومرتين، قرر أنْ ينهي المكالمة عند الرّنة الثالثة، لكن صوتها جاءه في الرنة الثالثة.

«كيف حالك؟» سألته بحيادية، كما لو أنها التقته آخر مرة قبل أسبوع أو شهر على أبعد تقدير. لم يبدُ حقيقةً أنها كانت تسأله عن حاله وما آلت إليه أحواله، كما لم تدلّ نبرتها، غير المتفاجئة، بأن ثمانية وعشرين عامًا فصلتهما عن بعضهما. الأمر الذي بدا غريبًا جدًا، بالنسبة له، أن صوتها لم يتغير. قالت له إنها لم تنجب، ربما لهذا ظل صوتها كما هو. لعل الأمر خرافة، لكن هذه هي نظريتها. ثم إن الأبناء يسحبون من رصيد عمرنا وجسمنا، فلماذا لا يسحبون من صوتنا؟ قال لها إن لديه

ثلاثة أولاد . أكبرهم تزوج وأب لثلاثة أولاد . جزعتْ لأنه أصبح جدًا في هذه السن ، التي هي سنها ، وأدركتْ لماذا لم تتعرف في البدء على صوته! وافقها على نظريتها دون أن يعترف لها أنه حين بلغه صوتها شعر باختناق في صدره ، وكادت أنفاسه كلها تغادره ، فزحفت كلماته في الفراغ وجاهد حتى خرج صوته من حلقه ، شبه المفرغ من الهواء ، بصعوبة . لم يقل لها كذلك إنه يدخن ثلاث علب سجائر في اليوم .

مرت لحظة صمت ، كأنها العمر أو ما ذهب من عمريهما ، عرج خلالها في ذاكرته المشوشة على كلمات الرسالة الماثلة أمامه . عاد إلى الرسالة ببصره . «حلمتُ بك .» سوف يسألها بماذا حلمتِ بي . لكنها ، كعادتها القديمة التي كاد ينساها ، سبقته :

- هل قرأتَ رسالتي؟ لقد حلمتُ بك .

لماذا تسبقه دائمًا؟ سدّد لكمة في الهواء ، وأدرك أن عليه أن يجتهد ليصوغ جملة أو عبارة تكون منطلقًا لنقاش يستهلّه ويقوده هو . سوف يسألها عن عناصر الحلم ، حلمها به ، ولماذا تحلم به هو . ثم استدرك أنه لا يستطيع أن يسألها لماذا حلمتْ به هو بعد كل هذه السنوات ، إذ يفترض أنه ، كخبير في تفسير الأحلام ، أن يعرف السبب الذي حدا به إلى زيارتها في المنام بعد كل هذا الفراق . سيسألها أولاً كيف عرفتْ أنه يفسر الأحلام ثم كيف عرفتْ عنوانه . ضحكتْ في الفراغ الممتد بينهما وقالت :

- لعلك تتساءل الآن كيف عرفتُ أنك تفسر الأحلام ، وكيف عرفت عنوانك ، ولماذا جئتني في المنام بعد كل هذه السنوات . أليس كذلك؟

أطلقتْ ضحكة عالية كأنها كانت تعرف أنه يسابقها في الظفر باستهلال الحديث وأنه مغتاظ ، أشد الغيظ ، لأنها كرّرتْ ما فعلته قبل ثمانية وعشرين عامًا ، يوم سبقته بأن قالت له «أحبك» ، و«أعرف أنك

تحبّني» ، وهو اليوم نفسه الذي كان يجب أن يكون يومه هو لا يومها .

سدّد لكمة أخرى في الهواء ، أقوى وأشد إيلامًا . لا بأس . سوف يُحدّد هو موعد اللقاء .

- ما رأيكَ منتصف الشهر القادم في بيروت؟

وافق على موعد اللقاء المبدئي ، على أن يتصل بها فور وصوله إلى بيروت . حرص على أن يذكر لها أنه كان سيحدد منتصف الشهر القادم موعدًا للقائهما . «لقد سبقِتني .» أنهتْ المكالمة . لم تتطرق إلى الحلم . حسنًا ، سوف ينتظر حتى منتصف الشهر القادم . أخيرًا سوف يشرح لها كل شيء ، عن الأحلام وعن أشياء أخرى كثيرة . هذه المرة سوف يسبقها .

وضع سيجارة في فمه . فتش عن الولاعة . أين ذهبت؟ أزاح كومة الرسائل عن المكتب . وقع بعضها على الأرض . لم ينتشلها . فتح درج المكتب الأول . بحث بين الأقلام التي فقدتْ معظمها أغطيتها . فتش في الدرج الثاني . أين اختفت الولاعة؟ أغلق الدرج الأول والثاني والثالث بعصبية .

«حلمتُ بك . اتصل بي . هنادي .» طالعته رسالتها ثانية . نفث دخانًا متخيلاً من سيجارته المطفأة . لماذا يجب أن تسبقه دائمًا؟

(٥)

رمزي عيّاش
(٦٤ عاماً)

رآها عارية ، مُمَزقة الجسد ، استلقتْ على الشارع بساق واحدة وذراع واحدة . تدلّتْ من خاصرتها إحدى كليتيها . نهضتْ بصعوبة متّكئة على جذعها المتهاوي . مدّتْ ذراعها الوحيدة نحو ثدييها اللذين استلقيا ، كرتيْن منبعجتيْن ، بعيدًا عنها . أوشكتْ يدها أن تلامس أحدهما حين مرت فوقهما سيارة مسرعة ، لتهرسهما . بدا سطح صدرها المنزوع الثدييْن كوجه مفقوء العينيْن . ترسبّتْ في فراغ الثدييْن السحيق كتل من دم أسود متجلّط وخثارة حليب ناشفة . مدّ يده إليها ، متحاملاً على قرفه من تشوّهها ، لكن السيارة نفسها التي سحقتْ ثدييْها ، والتي كانت تقف في الزاوية متربّصة ، تتأمل المشهد بمحرّك يشخر متوعدًا منتظرةً توافر الظروف الملائمة لاكتمال المأساة ، أطاحت بها لتسوّيها بالأرض الإسفلتية تمامًا .

«سماااار!» صرخ . هوى صوته في بئر حلقه . فزّ من نومه مرعوبًا . كان غارقًا في عرقه . التصقتْ بيجامته ، التي فاحت منها رائحة سجائر خشنة ، بجسده الذي رُقّ لحمه . بحث عن زجاجة الماء التي يضعها عادة على طاولة الأدوية الكثيرة بجوار السرير . تذكر أنه نسي أن يضعها هذي الليلة . نعمة لم تكن تنسى الزجاجة أبدًا ، الزجاجة نفسها كل ليلة ، الممتلئة لآخرها مع أنه لا يشرب إلا مقدار كأس أو اثنتين منها ، بغبش

البرودة الثلجي الذي يكسو سطحها حتى إذا ما صحا في الفجر ، أو قبله أو بعده بقليل ، يكون الماء لا يزال يحتفظ بدرجة برودة معقولة . وهناك دائمًا الكأس الزجاجية المضلّعة ذاتها المقلوبة على فمها في المكان ذاته بجوار الزجاجة . في كل الليالي وكل الحياة كانت الزجاجة والكأس موجودتَيْن .

ماتت نعمة فجأة . لم تخطره بموعد رحيلها . لم تحذره أو تنذره . لم تكن ثمة إشارات صريحة أو مبطّنة توحي بالنهاية . لم تقع على الأرض مرات أو مرة واحدة وأخيرة . لم تصرخ من ألم غريب مباغت أو آلام تقترب وتلحّ حينًا وتبعد وتتباعد حينًا آخر . لم تلازم السرير أيامًا وليالي ، تصارع الموت ويصارعها . لم تشحب ولم تذبل ولم تذوِ ولم تضعف ولم تئن ولم تكتظ الطاولة المجاورة لها في السرير بالأدوية من كل لون وطعم مرّ . قال الطبيب الذي عاينها إنها تُصنّف ضمن فئة محدودة جدًا ، ولعلها منقرضة ، من البشر ممن قد تضربهم عشرات النوبات القلبية والجلطات الدماغية دون أن يستسلموا لها إلا بإرادتهم . وهكذا ، جاء المساء حيث كانت نعمة قد انتهت من تشذيب حوض البنفسج في حديقة البيت الصغيرة ، وقطفتْ بعض النعناع وقلّمت سويقات الورود ، كما فردت شراشف نظيفة تفوح منها رائحة خزائن تعبق بالصابون المعطّر فوق أسرّة البيت ، وغيّرت بشاكير الحمام وغيّرت أغطية وسائد الأرائك في الصالون ووسائد الصوفا والكنبتين القديمتين المتقابلتين أمام التلفزيون في غرفة الجلوس ، وأعدّت إبريق الشاي له ، وقدمته له مع بسكوت «القرشلة» ، لتستسلم بإرادتها الكاملة مع آذان الغروب لنوبة قلبية ، أكّد الطبيب أنها أخفّ بكثير من نوبات سابقة ألمّتْ بها ، وتموت على الكنبة أمام التلفزيون . عرف أنها ماتت حين نادى عليها كي ترفع صينيّة الشاي وتكنس فتافيت «القرشلة» من على الأرض ، فلم تقفز ، كالمعتاد ، كالمسعورة خشية أن «يأكلهم» النمل . تركتْ الفتافيت تتكاثر على الأرض ، وأرخت ذراعها

وبدت قانعة، وهي ميتة على الكنبة.

جاءه صوت فراس بطيئًا نعسًا، يئنّ متقلبًا تحت دثار النوم. قال له إنه رأى سمر، وأنها.. لكن فراس قاطعه: «إنه الحلم!» ثم سأله: «كم الساعة؟» روى له أن سمر هذه المرة كانت مشوّهة أكثر من كل الأحلام السابقة. قال له أيضًا، غارفًا كلماته من جوفه بصعوبة، إنه لا يستطيع أن يصف الحالة التي رآها عليها، لكنها كانت بشعة. ثم توقّف مستعيدًا صورة الفراغ الأسود الغميق في صدرها، كواد سحيق لا يبلغ نهايته بصر. مثُلَتْ في عينيه كذلك كِليتها التي تدلّتْ كبندول ساعة مُعطّل وجسدها الممزّق في أجزاء كثيرة منه. «لقد كانت بشعة جدًا»، قال بحزن، و«كانت تتألّم.» امتدّ صمت، بحجم المسافة بينهما، قطعه فراس بنبرة حاكها بحيث لا يجعل شعوره بالقرف يطغى فيها على شعوره بالإشفاق:

- أتّصل بها غدًا وأطمئن عليها.

- لماذا ليس الآن؟

- أجننت؟ أتعرف كم الساعة الآن؟

ثم قال بعصبية كمن تذكّر أصل الموضوع:

- هذا حلم.. مجرّد حلم.. لا يعني أي شيء.

- لكن..

صوت النغمة الجافة الممتدة التي تشير إلى انقطاع الاتصال بلغه قاطعًا مئات الكيلومترات. فكّر أن يتصل بها. المسافة بين الزرقاء، حيث هو، والشارقة، حيث تقيم، ساعتان. الساعة عنده الآن جاوزتْ الواحدة والنصف صباحًا، ما يعني أنها تجاوزت هناك الثالثة والنصف. سوف يصبر على رنين الهاتف مرة ومرتين، فإذا لم ترد في المرة الثالثة تكون نائمة. ثم جزع للخاطر اللئيم الذي لاح في لاوعيه. ماذا لو كانت، خارج حلمه، ممزقة الجسد، مبتورة الأعضاء، تمدّ ذراعها المدماة نحو ثدييها البعيدين

عنها؟ ثم . . الآن أو بعد وقت قليل جداً سوف تمر السيارة التي كانت تشخر منتظرة متربصة ، في حلمه فوقها بلا رحمة لتهرسها بغلٍّ وحقد غير مفهومين ، تمامًا بالقدر ذاته من الغلّ والكراهية اللذين سحقتها بهما في حلمه البغيض .

فتح درج الكومودينو المحاذي لسريره ، المكتظ ببطاقات التعريف لأناس لا يعرفهم أو لم يعد يذكرهم ، كما لم يعد يذكر دواعي الاحتفاظ ببطاقاتهم ، وبعشرات الوصفات الطبية وأشرطة الدواء الفارغة من الأقراص ومغلفات الرسائل ، التي ليست كلها له ، إذ جمع بعضها وربما أكثرها من الناس الذين لا يجدون معنى من وراء الاحتفاظ بأغلفة الرسائل ، محتفظًا بها لطوابعها . بعضها من القدم بحيث تعود إلى عشر سنوات ، وكان يجب أن ينتزع منها الطوابع بالتبخير ، ومن ثم يقوم بتصنيفها وتنسيقها في ألبوم طوابعه ، لكنه آثر أن يتركها على حالها ، وكان يعود إليها من وقت لآخر يقرأ العناوين المكتوبة على وجهي المغلف ويحاول أن يتخيل غايات البشر الذين كانوا يومًا داخلها وأهواءهم . رمقته الأغلفة ، الخالية من أناسها ، بأسى . كانت وحيدة وباهتة .

أطلّ عليه ، من بين كومة أشرطة الدواء الفارغة ، وجهها الذي استقر في إطار صورتها منذ زمن . الابتسامة المواربة التي أعطتها له لم تزل ، بعد كل هذه السنوات ، تصرّ على مواصلة عنادها ولامبالاتها إزاءه . أمالت رأسها إلى أحد الجانبين ووضعت يدها على خصرها الناعم متحدية . كانت في الثامنة عشرة ، بعد تسعة عشر عامًا لم تتغير كثيرًا . وحين تلقاه اليوم ، تستقبله بالابتسامة المواربة ، التي تنطوي على قدر من لا مبالاة وقدر من سخرية وقدر من إشفاق . وهو يكرهها ويكره نفسه كثيرًا حين تشفق عليه .

شعرها كان طويلاً بموج كستنائي هائج حتى في الأيام المشمسة

الصافية ذات النسائم الخفيفة . كانت تُرسله على كتفيها ، منسابًا دافقًا حرًا وقد تخايلتْ خصلات ذهبية على شلالاته الصهباء ، غير آبهة باعتراض والدتها ، التي كانت تلمه لها حتى سني مراهقتها الأولى في جديلتين سميكتين داكنتين . هدّدها مرة أنها إذا قصّته فسوف يتوقف عن حبّه لها . ذات يوم ، سرّحت موجه الحُرّ ووقفت أمامه يدها خلف ظهرها . لعله فهم ساعتها ما الذي كانت ستقدم عليه . وقبل أن يفتح فمه ، سحبت يدها من وراء ظهرها وقد لمع فيها نصلا مقص ذي قضيب أسود عريض لتجمع بيدها الأخرى ، في أقل من ثانية ، شلالات شعرها الفائرة وتقصّه في أعلى نقطة بلغها المقص . سدّدت نحوه نظرة شامتة ، غير عطوفة . كانت تتلذّذ وهي تسمع صوت المقص يجزّ شعرها . فجأة توقف سقوط الشلالات الغزيرة ، فخال قلبه يتوقف .

ومع ذلك لم يتوقف عن حبّها كما هدّدها . «الكوافيرة» أصلحت ما أفسده المقصّ ، بأن هذّبتْ وشذّبتْ ورمّمتْ ، فأعطتها له بعد ساعة من العمل عليها ، انتظرها أثناءها في مقهى مجاور للصالون ، «صبيًا» فاتنًا . قالت له الكوافيرة إنها لم تجد سوى قَصّة «الجرسون» الولادية لإنقاذ الموقف ، بالنظر إلى هيئتها التي جاءت بها . أبدى استحسانه للقَصّة . في الطريق اشترى لها الآيس كريم الذي تحبه وشوكولاتة «مارس» وكيلو تفاح أخضر ، قضمتْ نصفه قبل أن يصلا إلى البيت . قال لها ، وكان مفتونًا بوجهها المضيء :

- مع أنك عاقبتني لكن . . صدّقي! أنت الآن أحلى . . أحلى بكثير .

لم تردّ عليه . كانت مشغولة بالتهام قطعة الشوكولاتة التي سال بعض من حشوة الكريم كراميل فيها على أصابعها . تأملها في إنارة الشارع القوية . بدا وجهها أكثر استدارة وأكثر تفتحًا . كانت كلوحة خلعتْ إطارها العريض ونفضت عنها ظلّه الغامق ، فأشرقت تفاصيلها ، وبانت أشياء

جميلة وخفية في الحواف أو في المناطق التي حال الإطار السميك الباذخ دون وصول الضوء إليها . التناقض الحيي بين الأنوثة البهية ممثلة في ثدييها المليْن الكبيرين نسبيًا قياسًا بخصرها الناحل ، والغلامية «الشقية» التي ربضت في ملامح وجهها المشاكسة ، ومشيتها القريبة من النطنطة والركض كأنها في سباق مع نفسها ، ملأته سعادة .

في الليل ، نامت قربه . آخر مرة نامت إلى جواره كانت في الثالثة عشرة . مرت خمس سنوات على ليلتهما الأخيرة . يذكر حينها أنه قصّ عليها أشياء كثيرة ، من بينها الأشياء التي تعلمها في حياته ، وهي ليست قليلة بالمناسبة ، ويذكر حينها أنها كانت شاردة الفكر ، ثم تيقّن أنها لم تسمع كلمة مما قاله . كانت تلك أول ليلة لها تنام فيها امرأة ، بيولوجيًا ، وأدرك أنها كانت ستكون آخر ليلة ، وهو ما أدركته أيضًا نعمة التي ابتهجتْ لمغادرة سمر سريرها الزوجي أخيرًا .

كان سعيدًا على غير المألوف . بلعتْ نعمة ، التي أخلت لهما الفراش برجاء حار منه ، غيظها . هي نزوة بعد خمس سنوات من هجره تلك العادة التي لطالما مقتتها علانية . هكذا أقنعتْ نفسها . دفنت سمر رأسها في صدره . داعب شعرها الولادي بكفه . ارتدت البيجامة الزرقاء السماوية المليئة بالدببة العسلية الصغيرة . كالعادة ، كانت نصف أزرار الجاكيت على الأقل ليست في عراويها المخصصة لها . أعاد تزريرها لها . وحين ارتطمتْ يده ، دون قصد منه ، بانحناءات صدرها النائم إلى جواره قرصه حزن خفي . لكنه كان سعيدًا تلك الليلة بسمره التي ، في الثامنة عشرة وبالولد المشاكس الذي تشاقى في جسدها بعد قصة «الجرسون» ، غادرت فراشها وأتته كما كانت تأتيه زمان ، في ليال كثيرة ، لتنام ملتصقة به .

كوّرتْ جسدها وبكت . اعتذرتْ لأنها قصّتْ شعرها . اعترفتْ له أنها كانت تظنّ أنها ستعاقبه لكنها اكتشفت أنها عاقبتْ نفسها ، فلقد كانت

تحبّ شعرها . «ماهر أيضًا كان يحب شعري .» قالت له . «أنا أيضًا أحب شعرك!» قاطعها كي لا تعود إلى سيرة ماهر . لم يقل لها إنه أحبَّ شعرها كـ«جرسون» أكثر . لكن ماهر أمضى معهما شقًا لا بأس به من ليلتهما . قالت له إنها وماهر فكرا بما يشبه الخطوبة المبدئية . . «يعني قراءة فاتحة وتلبيس خواتم وحفلة على الضيق ، أو حتى بدون حفلة .» فرد ذراعه تحت رأسها ورفعها نحوه ، ضامًا إياها إليه أكثر ، ثم قال :

- هل تعتقدين أنني لا أريد أن أفرح بك؟

نعمة التي دخلتْ الغرفة تحمل مجموعة من البشاكير المطوية كي تصففها في درج خزانتها رمته بنظرة من يعرف الجواب . والجواب بالطبع لا يعجبه . تجاهل نظرتها الدّالة ، وشحذ كل حججه وبراهينه مستثمرًا استسلام سمر له ، ذلك أنها هي التي تسربتْ إلى سريره دون أن يطلبها أو يرجوها كي تأتي . مضى شارحًا أن القلب في الثامنة عشرة لا يكون قد عرف طريقه بعد أو رسم غايته بوضوح . عليها أن تسمح لقلبها بأن يمتحن خيارات أخرى . ثم إنها لا تزال في سنتها الجامعية الأولى . «انظري إليّ!» أعطته عينيها الواسعتين اللتين لمعتا من أثر دمع عالق ، فتأملهما قائلاً :

- أنت طفلة . من في سنّك لا تزال تلعب . هل تعرفين معنى خطوبة وزواج ورهن قدرك بقدر شخص منذ الآن؟

كان يعرف أن افتتانها بفتاها سوف يتلكأ في قلبها بعض الوقت ، لا بأس :

- تحبّينه؟ لم لا؟ أحبيه اليوم وغدًا وربما في السنة الثانية والثالثة . ما علاقة الخطوبة بالحب؟ ألا يكون الحبّ إلا بها؟

كان يعوّل على القلب القُلّب بفطرته . والقلوب حين تكبر تتبدّل وتتلوّن ويتغير اتجاه هواها ، فتنتقي عشّاقها الجدد بحسب اتجاه هواها الجديد ، تعشق من لم يكن في البال أن يُعشق وتغلق صندوق الذاكرة

على صور عشاق الأمس، وأحيانًا الأمس القريب جدًا، فلا تعود تزورها إلا على هيئة أطياف باهتة متباعدة. على أنه لم يشأ أن يطرح عليها حجة «القلب القُلّب» القاطعة، خشية أن تأخذها العزة بإثم عشقها الفتيّ ويتلبسها عناد صبياني للبرهنة، من باب الشيء لمجرد الشيء، على ما لا تصحّ البرهنة عليه وهو أن ثمة حبًا واحدًا ووحيدًا. لكنه لجأ إلى الحجة الأكثر إقناعًا وترويعًا. طلب منها أن تحاول أن تتخيّل نفسها بعد عشرين سنة من الآن، امرأة تقف على حواف الأربعين، تكابد شحم الزواج والإنجاب وخطوط العمر، وتتعارك مع هرموناتها المضطربة. «لكن ماذا عنه هو؟ ماذا عن ماهر؟ ماذا سيكون بعد عشرين سنة من الآن؟»

تربعتْ على السرير قبالته. بسطتْ كل حواسها أمامه. بضع شعيرات إبرية قصيرة انتصبتْ أعلى شعرها. حاذر دون أن تفضحه ابتسامة المنتصر التي علتْ وجهه. لقد بلغ غايته. وفي داخله كان راضيًا عن نفسه. كانت لا تزال باسطة انتباهها بالكامل حين وصف لها ماهر الأربعيني؛ شابًا، ما زال، رغم ما اعتراه من ترهل الزواج وشروط البيت والعيال، وقادرًا، ما زال، على النهوض بأعبائه كرجل، وشدد على كلمة «رجل» وضغط على أحرفها وغلّظها، حتى تيقّن من أنها فهمت ماذا يعني «رجل» في الأربعين مثل ماهر.

كانت نعمة تصفف مجموعة من فانلاته في أحد أدراج الخزانة، حين قاطعته بغيظ:

– ما رأيك أن تزوجها رجلاً مثلك؟

لم يشأ أن يأخذ ويعطي معها كي لا ينتهي الأمر، ككل مرة، بشجار وحرد متبادل. لكنه تأمل مقترحها بنوع من الجدية دون أن يصارحها بذلك. غادرت الغرفة بعدما أطبقت الباب وراءها بغضب. عادت سمر لتركن في حضنه، وقد لزّت عليه كثيرًا. طلبتْ منه أن يغني لها «جفرا».

طلبتْ أغنية «جفرا» بالصوت ذاته الذي كانت تطلبها به زمان . رقصت الفرحة ونطّت في عينيه . انطلق :

- «جفرا ويا هاالرّبع وتقول يا عيوني ، غشيم بنوم الحضن يا عالم دلّوني ، وان كان حَكْيي زلَل ، في البير دلّوني ، واقطعوا فيّي الحبل ، ما هو جزا ليّي .»

- «كمان .»

قالت له . ضحك ثم مضى :

- «جفرا ويا هاالربع بتقشّ وتلمّ ، ومفرعة بالقميص ولا استحتْ منّي ، ولو بيجوز البدَل ، لابدلك بامّي ، واخواتي الأربعة ، واللّي تطولو إيديّه .»

قالت له إنها لن تطيل شعرها ثانية . هز رأسه موافقًا . ثم نامت . تبدّتْ «صبيًا» فاتنًا وجميلاً . كان مطمئنًا ، وكان واثقًا من أن ماهر لن يصحو معها في صباح اليوم التالي ، أو على الأقل لن يصحو كما بات معها .

وضع صورتها على الكومودينو . توسطتْ كأسي ماء فارغتيْن مركونتيْن منذ أيام . مسح بروازها المترب بطرف كم بيجامته . قميص البيجامة فقد زرّين . نعمة ليست في الحياة لتخيطهما . مشى إلى المطبخ قاطعًا العتمة الطويلة عبر غرفة المعيشة فالممر . فتح الثلاجة ، لم يكن ثمة زجاجات ماء . ازدحم المجلى بزجاجات الماء الفارغة . شرب من ماء الحنفية . مضغ قطعة خبز يابسة على الطاولة . فتح الثلاجة ثانية . قرط نصف حبة خيار ذابلة ولحس بقايا لبنة بزيت الزيتون في صحن مكشوف . طعمها كان غريبًا . توقف بعد اللحسة الثانية ، ثم أتى على الصحن كله . أغلق باب الثلاجة ثم فتحها ثانية . كانت هناك نصف حبة بندورة . أكلها ثم أغلق باب الثلاجة .

كانت تقوم من نومها أواسط الليل إلى الثلاجة . تفتح بابها ، وتظل تتفحص محتوياتها بعينين نصف مغمضتين . ثم تغلقها . ثم تفتحها . ثم تغلقها . ثم تفتحها وتقف أمامها مطولاً قبل أن تتناول صحن رزّ بالحليب تلتهمه بينما لا تزال الثلاجة ، التي يعلو صوت محركها ، مفتوحة . ذات ليلة ، استمر ضوء الثلاجة وقتًا أطول ، مبددًا ظلمة المطبخ والممر المؤدي إليه . انتبه له في طريقه إلى الحمام ، واستمر الضوء حين عاد إلى غرفته . ترك باب غرفة النوم مفتوحًا ، منتظرًا غياب الضوء الذي انتشر حتى مدخل غرفة المعيشة . لكن الضوء تواصل ، متداخلاً مع صوت أنين متقطع . ارتفع الأنين أكثر في مسافة السكون بين أنفاس نعمة التي ربض جسمها إلى جواره في سريرهما . كانت نائمة بعمق . صوت تحطّم عنيف خرق صمت الليل . ركض إلى المطبخ . نعمة ظلت نائمة وإن تقلّبتْ إلى الجهة الأخرى . وجد سمر راكعة على ركبتيها أمام الثلاجة المفتوحة ، إحدى كفيها فوق بطنها . امتقع وجهها بشحوب أصفر للغاية ، زاده اصفرارًا انعكاس ضوء الثلاجة عليه . كانت تتأوه ، عاضةً على شفتيها من شدة الوجع . إلى جوارها ، استلقى حطام زجاجة ماء وسط بركة من الماء كانت تتسع تدريجيًا .

تلك الليلة هو الذي تسرّب إلى سريرها . قالت له إن مغصًا شديدًا ينهشها . الألم أيضًا نزل إلى فخذيها . فرد كفه الأسفنجية فوق بطنها الضامر . ضغط عليه بقوة . كانت تغمض عينيها ، مستشعرةً بعض الراحة التي انعكست في انبساط ملامح وجهها . وحين كانت يده تتخفف من الضغط ، كان الألم يعاودها بقوة وكان وجهها ينقبض . ظلتْ كفّه العريضة فوق بطنها حتى غفتْ . ذرفتْ عرقًا وشحوبًا هائلين . حين هطل الفجر على فراشها ، خلع وجهها اصفراره . شقّتْ حمرة الشفق البعيد طريقها إليها من خلال ستارة النافذة الشفافة ، افترشتْ سحنتها الوادعة بدفء .

لم يبد أنها ممغوصة . ولا يعرف لماذا تخيلها جميلة على نحو لا يليق بطفلة في الثالثة عشرة . لكنه ، مع ذلك ، لم يكن مطمئنًا . عدّل الوسادة تحت رأسها ليستقر تنفسها أكثر . حين نهض ، تخايل شيئًا داكنًا في فراشها . رفع الغطاء عنها بحذر . كان هناك دم . جزع . تأمل وجهها . كانت تبتسم بمكر ، ولعلها كانت تضحك عليه في نومها .

في اليوم التالي ، بدأت تكبر . كانت تكبر سريعًا ، كانت تكبر كل يوم وكل ساعة ولم يكن بمقدوره القيام بشيء حيال ذلك . صدرها كأنه نهض من سبات طويل . حوضها عرض واستدار وبرز على نحو انحشر معه بصعوبة في بنطلوناتها الجينز . وحين كان يستميلها إلى سريره برجاء ، حدّ استجدائها كولد صغير ، محاولاً أن يستعيدها بالحكايات ذاتها التي كانت تحب أن تسمعها بالمؤثرات الصوتية والحركية التي يضفيها عليها ، مستغرقةً فيها بكيانها الطفل ، أو بأغنية «جفرا» ، الماعز الصغيرة الشقية التي تتماهى معها ، كانت انفعالاتها تبدو مشلولة وعقلها غائبًا ، فتظل عيناها معلّقتيْن على السقف أو قد يرتحل بصرها إلى لا مكان بعينه . ثم بدأت تعطيه ظهرها عندما يحكي أو يغني . وفي أحيان كثيرة ، كانت تتظاهر أنها نائمة . وإذا حدث وأن لامست فخذه فخذها بعفوية ، ودون أي قصد ، كان يستشعر وجلها ململمةً جسدها المرتجف بعيدًا عنه .

بحث عن علبة سجائره . فتح أدراج خزائن المطبخ كلها . فتّش في صندوق الخبز . مرّر نظره بين فناجين القهوة الفارغة ، التي اصطفت فوق رخامة المجلى . أخيرًا أبصر العلبة فوق طاولة المطبخ . كانت الشيء الوحيد على الطاولة ، وكانت أمامه طوال الوقت . اكتسب عادة التدخين منذ أن ترك الكويت مرغمًا بعد تحريرها ليستقر في الزرقاء ، في البيت الذي بناه في أحد جبال المدينة . كان ينزل فيه مع العائلة في إجازات الصيف السنوية . احتججتْ نعمة لأن التدخين مع قصر ذات اليد مضر بالصحة

أكثر ، خاصة وأنه كان ينفث سجائر «الفيلادلفيا» ، الرخيصة نسبيًا ، بنكهة التبغ الحارقة التي تشعط الصدر ، أتبعها بسجائر أرخص ، بتبغ أقرب إلى نشارة الخشب ، مهربة من العراق .

لا يعرف كيف استحال التدخين من دلع عابر إلى ولع مستديم وحارق ، بحيث بات يُدخن ثلاث علب سجائر في اليوم . البداية كانت مع الخسارة الهائلة التي مني بها في محل كهربائي السيارات ، الذي فتحه على طريق الأوتوستراد ؛ فجلب عليه من المشاكل المالية ما جعله يبيعه ويبدد أكثر من نصف مدخراته لسداد الديون ، التي فرّخها خلال ثلاث سنوات من تشغيله بخسارة متراكمة . ثم ضاع النصف الآخر من مدخراته مع سيارة الأجرة التي اشتراها وتكبد رسوم تسجيلها وتشغيلها ؛ ليُضمِّنَها لسائق سحقها في ثلاثة حوادث لتبيت في كراجات التصليح أكثر مما تسير في الشارع . لم يعد مجديًا أن يفكر بمشروع آخر ، بعدما استنزف «تحويشة» سنوات الكويت بالكامل ، فاعتمد في مصروفه ومصروف نعمة المحدود على فراس . منذ أن ألَمّتْ به جلطة قلبية قبل خمس سنوات أُرغم على الإقلاع «تقريبًا» عن التدخين ، مكتفيًا بثلاث سجائر في اليوم ، واحدة بعد كل وجبة طعام مع فنجان قهوة ، يسحبها في أنفاس قصيرة متتابعة ، كي لا تحترق في الهواء دون داعٍ ، حتى إذا أتى عليها اكتشف كم أنه لم يستمزّ بها ، مصرحًا بينه وبينَ نفسه أن الإقلاع التام عنها قد يكون أجدى ، وقد يقرّر أن يترك السيجارة نهائيًا ، طالما أنها فقدتْ متعتها ، لكنه لا يتركها . هذه الليلة ، يقرر أن يدخن سيجارة رابعة .

جلس في الصالة على المقعد «المورِس» ، قبالة التلفزيون . تفرّج على انعكاس هيئته في مرآة التلفزيون المظلمة . أزاح ستارة النافذة المطلّة على عمود الإنارة اليتيم في الشارع ، الذي سكب شريطًا هزيلاً من الضياء امتص بعضًا من عتمة الغرفة . العتمة ليست موحشة بالضرورة ، لكنها

مزعجة ومقلقة إلى درجة ما ، ذلك أنها تجعل الأشياء تبدو على حقيقتها أكثر ، فهي ليست مضطرة لأن تكون جميلة ومذهلة ، أو حتى ضمن الحد الأدنى من القبول ، كما هي ضرورة الحال في الضوء الكاشف . من قال إن الضوء هو الحقيقة أو انعكاس لها؟ ثم إن الأشياء في الليل تفصح عن نوازعها ورغباتها بعدما ظلت مغلفة ومنطوية على نفسها في النهار ، وهو أمر لا يعدم مفاجآت وقد ينطوي على اكتشافات مرعبة وربما مخجلة . لم تعجبه هيئته في شاشة التلفزيون المعتمة . بدا مسنًا جدًا ، ومريضًا جدًا وباعثًا على الإشفاق جدًا . وبيجامته ظهرتْ في التلفزيون رثّة .

تمايلتْ سحابة الدخان الناحلة أمام عينيه ، قريبة منه ، قبل أن تتصاعد مبتعدة ، فتعرض وتستطيل وتتمدّد ، متلوّيةً منحنيةً ، وفي النهاية تتفتت وتتبدّد . تمايل قوامها الطري أمامه على التلفزيون . كانت ترقص . في البدء ، كان رقصها أقرب إلى النط والقفز ونفض ذراعيها وساقيها في الهواء والدوران حول نفسها دون هدف . كانت ترقص في الصالون ، أو في غرفة المعيشة ، وكانت تحدث جلبة كبيرة . كانت ترتطم بالمقاعد وطاولة التلفزيون و«البوفيه» ، وقد تضرب ذراعها أو ساقها الطائرة مزهرية أو تمثالاً رخيصًا أو منفضة سجائر فتتهشم . ونعمة تُجنّ ، ويحول هو بينها وبين راقصته . كانت ترقص على إيقاع الأغاني الغربية الصاخبة . زمن «الديسكو» لاءمها . لاحقًا ، تخفّف رقصها من حركات كثيرة زائدة . ظلّتْ تحب الأغاني الغربية ، وإن استقرتْ على حفنة شرائط ترقص عليها هي نفسها ، وأحيانًا أغنيات بعينها في الشريط الواحد ، تظل تعيد وتزيد فيها إلى ما لا نهاية . غصّتْ مكتبتها بشرائط للـ«بي جيز» والـ«آبا» والـ«بينك فلويد» و«دوران دوران» والـ«فيليج بيبول» ، والـ«إير سبلاي» ، ثم بشغف أقل «غلوريا غينر» و«ديانا روس» و«بوني تايلر» ، قبل أن تفتتن مؤقتًا بـ«لورا برانيغان» . كان يشتري لها الشرائط بنفسه ، تكتب له اسم الشريط

ويحضره لها كتلميذ شاطر . وإذ التفَّ قوامها وتدَوّر وتكوّر وبرزتْ هضاب جسدها ، لم تعد ترقص في الصالة . كانت تغلق باب غرفتها عليها وترقص . مرة أو مرتين رآها . كان الباب نصف مفتوح . كانت ترقص بالشورت أمام المرآة . وكانت تتحرك في مساحة ضيقة . لم تكن تقفز أو تنط ، ولم تطر أي أجزاء منها . كانت تتمايل بكتفيها وتنحني بساقيها ، تفرج ما بينهما وتضمهما بحسب درجة الميل والانحناء ، وكان خصرها اللدن يتثنّى ويتلوّى ، ومعه يصعد ردفاها ، اللذان تضخما ونتأ دونما إسراف ، ويهبطان . كانت تنظر إلى جسدها في المرآة ، وكانت تبرم بوزها إذا تكشفتْ لها تفصيلة فجة هنا أو عيب هناك ، وتبحث عن الحركة الراقصة الأنسب لمداراته . لا يعرف لماذا قدّر في أثنائها أنها كانت ترقص دون أن تستمع إلى الموسيقى .

أطفأ السيجارة التي ذابت حتى آخر عقبها في المنفضة . استراح ليل نيسان الجبلي على نافذته المشقوقة . لسعة هواء باردة نفذتْ إلى عظامه . أشارت ساعة الجدار إلى الرابعة والنصف . لم تسقط عباءة الليل عن كتف السماء بعد . لكن عتمة الغرفة انزاحت . هيئته في التلفزيون أصبحت مكررة ومملة وأكثر بؤسًا . بحث عن «الريموت كونترول» . شغل التلفزيون . قلب بين القنوات . توقف عند برنامج حواري معاد في «الجزيرة» . ثبت التلفزيون على وضعيّة الصمت ، فلم تبلغه أصوات المتحاورين . لكن من الجليّ أن النقاش كان حاميًا . كانوا أربعة . كانوا محتدّين . أفواههم ونظراتهم تلبستْ هيئة الصراخ .

حين يطلع الصباح بالكامل ، سوف يتصل بها . قطعًا لن ينتظر فراس . في كل مرة وفي كل حلم ، يقول له فراس إنّه «غدًا» سوف يتصل بها ويطمئنه عليها ، لكنه لا يتصل ولا يطمئنه عليها . وفي كل مرة وفي كل حلم ، يقرر هو أنّه «غدًا» سوف يتصل بها لكنه يعيد النظر في قراره ،

منتظرًا حلمًا آخر، أكثر ترويعًا ربما. لكن حلم هذه الليلة لا يحتمل المزيد من الانتظار.

كاد المتحاورون العصبيون يخرجون من صمت الشاشة، مطيرين أذرعهم في كل الاتجاهات. أطفأ التلفزيون. عاد إلى مشهد العجوز المضجر. أدار شريط الكاسيت العالق منذ الأزل في المسجلة على الطربيزة الجانبية. خرج صوت محمد عبد الوهاب مبحوحًا ومتعبًا، مثقلاً بالصدى ونفاد الأيام وشيء من الخَنْخَنة، من تكرار الغناء في الشريط القديم نفسه. «سهرتُ منه الليالي، ما للغرام ومالي، إنْ صدّ عني حبيبي فلست عنه بسالي، يطوف بالحب قلبي، فراشةً لا تبالي، لا تبالي، لا تبالي.»

ثم أشعل سيجارة خامسة.

الجزء الثاني

(٦)

كمال القاضي

في مرآة الخزانة ، مرّرتْ رُقيّة أصابعها فوق كَلَف الحمل الذي لم تمحِ آثاره تمامًا بعد الولادة ، متركّزًا عند حدود وجنتيها . كان تحت السرير ، مختبئًا من شقيقه الأصغر فتحي ، يلعب معه الغمّيضة ، عندما باغتته المرآة الطويلة بمشهد بطنها ، الآخذ في التسطّح بتلكّؤ يغيظها بعد شهرين من ولادتها شقيقته مُنتهى . سكنتْ إلى وحدتها في الغرفة ، رافعةً ثوبها ، تفرد بطنها وتكويه بيدها ، فتلتئم تشقّقات الحمل لوهلة ، ثمّ يتفسّخ بطنها ثانيةً حين ترخي يدها . وقفتْ بزاوية جانبيّة تحتوي بعينها غير الراضية استدارة حوضها الذي لم يجمع نفسه ، مقطّبةً جبينها لمرأى اللحم المتغضّن أعلى فخذيها . غضبتْ من مرآتها لأنها لم تُرِها ، بعد الولادة ، جسدها الذي كان عليه ما قبل الحبل ، فعصرتْ ثدييها بكفّيها ليرشق حليبها سطح المرآة . أصدرتْ منتهى في مهدها أنينًا هزيلاً . لم تلتفتْ إليها ، ضاغطةً كفها فوق صفحة بطنها كي تخسف تحدّبها . ارتفع بكاء الطفلة متقاطعًا مع صياح فتحي ينادي عليه . ثم ارتفع صوت جدّته مسعدة ، ممدّدة تحت الدالية في الحوش ، في موقعها الأزلي على المصطبة الإسمنتية المكسوّة بطبقات عدة من البطانيات ، تصرخ على أمّه :

- يا رقيّة! رضعي البنت!

أفلتتْ رقيّة الثوب بعصبية ، فتهدّلتْ أطرافه بغضب ، محدثةً هزّة في الهواء من حوله ، فانكمش تحت سريرها ، ململمًا أطراف جسده ، قابضًا على أنفاسه كي لا تفلت من صدره الحبيس فتفضح مخبأه ، لها قبل فتحي . حملتْ الصغيرة التي لم تكبر كثيرًا منذ أن خُلقتْ ، تُربّت على ظهرها الرقيق بنزق ، وخرجت بها إلى الحوش . تداخل بكاء منتهى المستمر مع نداءات فتحي المتكررة له كي يخرج من مخبئه ، فقد ملّ البحث عنه في ثقوب البيت وجنباته الكثيرة ، حتى إنه أهال اللُّحف المكدّسة في غرفة جدّته مسعدة ظنًا منه بأنه مطويّ بينها . انتظر كي يتوارى صياح فتحي ، مرتفعًا إلى الأعلى ، مقدرًا بأنه صعد الدرجات إلى السطح ، قبل أن يغادر مخبأه تحت السرير ، متسرّبًا إلى الحوش دون أن تتوقف العيون عند خروجه من غرفة نوم رُقية ، وما أضفى غيابًا أكبر على حضوره اشتباك والدته مع جدته المتوقع في كل أوقات اليوم . تشكو رقية من أن ثدييها لا يدرّان ما يكفي من الحليب ، فتؤنبها مسعدة ، بنبرة شامتة أكثر منها معاتبة ، بأنها لم ترد حملها من الأساس فضنّ عليها ضرعها بالحليب ، ثم تذكّرها بأنها ضبطتها بنفسها تحاول أن تسقط حملها ؛ فلقد أفاقت ذات ليلة على جلبة في غرفة الغسيل . من طاقتها المطلّة على الحوش ، رأتها تحضن وعاء الهاون النحاسي الضخم وتنط على الأرض من فوق دلو الشطف الحديدي وقد قلبته على فمه . استيقظ والده عزّام على ولولة مسعدة ، التي وشتْ له بما رأت ، حائلةً بينه وبين رقيّة كي لا يكسر عليها عصا الخيزران وهي حبلى ، فتجهض كما تتمنى ، مقسمًا بأن يوفّر لها العقاب البدني إلى ما بعد الولادة . يخرج صوت رُقيّة من بين فواصل بكاء منتهى قائلة :

– زهقتُ من هذه الحياة كلها .

فتتمطّى مسعدة فوق المصطبة لتردّ عليها :

- ربما يحتاج عزّام إلى من يذكّره بيمينه!

حتى في غير أوقات الغمّيضة ، كان يختبئ تحت سرير رُقيّة الزنبركي العريض ، مأخوذًا بجسدها المُغطّى بغبار الماء حين تخرج من الحمام دون منشفة تُعانق عريها الفوّاح ، يطلع الدخان من كتفيها الساخنتين ، كما يشتعل ظهرها ، الذي تبدو علامات الفرك بالليفة الخشنة جليّة عليه ، باحمرار متوهّج . كانت تأتي مرآتها برغبة فتهبها جسدها عن طيب شهوة ، مستطلعةً تضاريسه ، التي تفرد أمامها بوفرة ، نابشةً مجاهيله غير هيّابة ، لاكزةً كائنات كهوفه المظلمة فتوقظها من سباتها الطويل . بكت كثيرًا وهي تراقب جسدها ينتفخ بمنتهى في داخله ، وحين منعتْ عن نفسها الطعام بطحها عزّام أرضًا وصعدتْ مسعدة فوقها لتحشو فمها بكُتل اللحم والأرز التي تقيأتها لاحقًا . في ليالٍ كثيرة ، كان يوقظه بكاؤها ، يزحف إليه من غرفتها ، فيجلس إلى جواره يواسيه حتى الفجر ، متخيّلاً عريها المنكسر على السرير إلى جوار عري والده المزهوّ . وحين ينام ، يظلّ بكاؤها مستيقظًا في وعيه المغمض .

لكن صباحات رقيّة ، التي تذهب فيها إلى السوق ، أحلى من كل الصباحات والمساءات ، وأحلى من كل أيام الحياة الأخرى . تصبح رقية في صباح السوق ، ذي الطقس الجميل على غير العادة ، أجمل ، تكون أحنّ عليه وعلى فتحي ، تركض وراءهما ، توقعهما أرضًا وتقع فوقهما ، فتحضن رأسيهما الصغيرين بيديها الطريتين ، وتطبع شفاهها المترعة بالحياة على وجههما منتشييْن بماء قبلاتها ، كما تكون أكثر عطفًا على منتهى ، فتلقمها ثدييها ، قبل أن تغادر البيت ، حتى الشبع . تطيل التحقق من هيئتها التي تنتعش في مرآة خزانتها ، بالثوب الأسود ذي التطريز الزاهي ، تحدّ عينيها بخطّ سميك من الكُحل العربي ، تفتح الدرج الثالث في الخزانة ، تمدّ يدها إلى الخلف ، تحتِ كومة ملابس مطوية بعناية ، فتقبض

Twitter: @ketab_n

بفرح الاطمئنان على وجود شيء سرّي عزيز في مكانه على علبة بودرة خدود دائرية ، تفتح غطاءها فتفوح رائحتها العطرة الحبيسة منذ زمن في الغرفة ، تضرب وجنتيها بضربات خفيفة من اسفنجتها . تُبلّل شفتيها بلسانها ، تلفّ الشال الأبيض الشفاف حول رأسها باسترخاء يسمح لغرّة شعرها الطويلة بالانزلاق من حوافه على وجهها الدائري ، تحمل حقيبة الخضار البلاستيكية وتخرج من الباب مسرعة كأنها تطير ، فتلحق بها مسعدة لتتلو عليها قائمة الخضار المطلوبة . لكن رقية تكون قد طارت في الشارع .

حين تعود بعد ثلاث ساعات ، تستقبلها مسعدة حانقة ، لا لأنها تأخرتْ فقط ولكن لأنها لم تحضر كل ما طلبته منها . تظل رُقيّة ، مع ذلك ، مبتهجة بصباحها الذي تحمله معها بقية نهارها ، فلا يمسه الغروب إلا متأخرًا ، تُخرج من حقيبتها حلوى اشترتها له ولفتحي ، تغرس رأسيهما في حضنها في اشتياق أصيل لهما ، كأنها غابتْ عنهما دهرًا وإن كانت سعيدة في غيابها . إذ ترتفع أنّات منتهى تفرش لها ثدييها بضيق أقل . تطلب منها مسعدة أن تشطف الحوش ، فتشطفه دون تبرّم كالمعتاد . تنادي عليها كي تنشر الغسيل ، فتصعد باللجن الثقيل الدرجات العشر المؤدية إلى السطح ، مسرّية عن نفسها بأغنيات عرائسية ، يتمايل عليها عودها الليّن ، الذي لم تفسده ولاداتها الثلاث . ويتواصل غناؤها في المطبخ مع طشيش الزيت والثوم والريحان فوق البامية . قد يستمر صباح السوق البهيج ، مشرقًا ضاجًا بالحيوية ، لصباحين أو ثلاثة ، لكن في الصباح الرابع أو الخامس على الأكثر ، تنهض رُقيّة خاملة ، مريضة أو متمارضة ، هرِمةً قبل أوانها ، بلحم مرتخ لا تعرف كيف تشدّه ، فإذا ما نادت عليها مسعدة لتحضر الفطور ، وقفتْ قبالتها بيديها حول خصرها ، في إشعار ببدء معركة مؤجّلة ، تنطلق شرارتها بتساؤلها الاستفزازي لها :

- متى ستموتين يا خنزيرة الشيب؟

مع أن رقية كانت في الرابعة عشرة عندما تزوجها عزّام، لكنها بطولها الفارع وامتلائها الصحي ونهوض الحياة في جسدها مبكرًا، كانت امرأة شهيّة. لم تُرِد عزّام، لا لأنه يكبرها بخمسة عشر عامًا، وإنما لأنها، كما تداولت نسوة قريته، كانت تهوى محمود، صبي الفران ذا الذراعين الطويلتين المعضّلتين، الذي يستلم «فرش» عجينها أوّل الكل ويخبزه لها في الآخر، فيستطيل بقاؤها في الفرن، وسط النار وحمّى الرغبة، تتابع ذراعيه تمدان عصا الخبز الطويلة، ذات اللسان الرفيع، إلى الأقراص المنتفخة، متعمدًا حتى عندما يكون ظهره لها أن يُمتّع عينيها اللتين لا تحيدان عنه بحركة جسده السريعة واللينة، كراقص رشيق. ربض أشقاؤها له خارج الفرن وأوسعوه ضربًا، مهشّمين ذراعيه وساقيه. بكتْ رقية ليلة عرسها، وأشاحت بجسدها عن جسد عزّام شهرًا كاملاً، طاوية سكينًا تحت وسادتها، مهددة إياه بأن تقتل نفسها إذا اقترب منها. وحين فضّ بكارتها أخيرًا، بعد أن كمّم فمها وربط يديها برأسية السرير، ظلتْ شهرًا ترفض أن تخاطبه. كان عزّام يتقاسم مع ابن عم له معصرة لزيت الزيتون في المالحة. بعد النكبة، قطع مع رُقية، الحبلى ببكرهما، وأمه مسعدة الطريق غير الحريرية إلى الأردن. استأجر بيتًا في السلط، عند عائلة من أصول دمشقية شغّله صاحبه في محلّ لبيع مستلزمات الخياطة يملكه وسط عمّان. بمصاغ مسعدة، استقلّ عزامٌ بعد ثلاث سنوات بمحلّ خاص به لمستلزمات الخياطة والتطريز، من كلف وخرز وأزرار وخيطان وأصواف، يجلبها من الشام.

سوف تُزهر رُقيّة أكثر بعد ولادة فتحي، فيتفتّح ربيع جسدها، خالعًا عنه بقايا طفولة مستحية، لتستيقظ امتلاءاتها، ومعها رغباتها، بصخب أكبر. وسوف يبدأ أهل الحي يتداولون، بهمس مرتفع، حكاية زوجة تاجر

الكلف الصبية ، التي تدخل محل فرحان لبيع الدجاج كل يوم ، ولا تخرج منه قبل ساعة . في مرات كثيرة تنسى ، حين تخرج متعجّلة ، أن تعقد زنارها فوق ثوبها أو تتغافل عن جمع شعرها تمامًا تحت شال الرأس . أكلت خيزرانة عزّام من لحمها الطري ، فغابت عن السوق والحياة الخارجية ثلاثة شهور ، رحل بعدها عزّام من السلط . كانت تجارته قد توسّعتْ ، فاشترى بيتًا في صويلح .

في ذلك المساء الشتوي ، غرستْ رُقيّة نظرها في عزّام . طلبتْ منه أمام مسعدة ، المستلقية على الصوفا الخشبية في غرفة الجلوس تستدفئ بالصوبا الكاز ، الطلاق . قالت له إنها لا تحبّه ، فسقطتْ كفّه فوق وجهها . وقعتْ على الأرض . مسحتْ أنفها النازف بظاهر كفها . وقفتْ بثبات . ارتفع بكاء منتهى . قالت له إنها لم تحبه يومًا ، بل لا تذكر ساعة أحبّته فيها . جذبها من شعرها وسحق رأسها في الجدار . استحال بكاء الطفلة إلى زعيق حادّ . تربعتْ مسعدة فوق الصوفا ، تحرّض عزّام كي يهشّم رأس «الشرموطة» ، التي كان أولى بها صبي الفران أو بائع الدجاج . حاولت رقيّة أن تحرر شعرها من قبضة يده ، فلم تستطع . لفّتْ رأسها ناحيته بصعوبة حتى بات وجهها شبه ملتصق بوجهه . في عينيها رأى عزّام ما عجز عن رؤيته ، أو ما لم يشأ أن يراه في السنين الماضية ، فذعر لكل هذا القدر من الكراهية . انزلقتْ يده من شعرها ، مطبقةً على عنقها الصغير . سألها :

- من؟

لمع الخوف في عينيها اللتين جحظتا . ضغط على عنقها أكثر ، فعلقتْ روحها في حنجرتها . حاولتْ أن تدفعه عنها ، فثبّت جسمها على الحائط بأن غرس ركبته في بطنها . حرّر حنجرتها مساحة تكفي كي تقول الاسم الذي يريده :

- من يا كلبة؟ من؟!

كأنها تبحث عن خلاصها، أقرّتْ أخيرًا :

- مُراد .

ضربتْ مسعدة على صدرها فزعةً :

- الخُضرجي؟!

لم يرَ رُقيّة بعد تلك الليلة . لكنّها لليال كثيرة، طويلة من أرقه واشتياقه وشكوى نفسه غير المسموعة، ظلّتْ تسحره بأثوابها السوداء والليلكية والخمريّة، التي تُشعل بشرتها البيضاء، تطرّز صدروها بنفسها، على هيئة أسود رابضة تحرس قصرًا أو شمعدانات وثريّات تتدلّى من سقف الصدر إلى أرضه . لنهارات كثيرة ظلّ شالها الأبيض بتطريز الورود والعصافير الملونة في حوافه يطير قريبًا منه فيضرب وجنته بلطف . في العصريات الكسول، كان يزحف تحت سريرها، ينتظرها تخرج من الحمام، يقطر الندى من جسدها، بشعرها المبلول ملتصق بظهرها، تنفضه في الهواء فينتثر ماؤه على صفحة المرآة، وقد تغمر وجهه الحار بضع نقاط باردة، تغافله وهو حابس أنفاسه تحت السرير، فيلعقها مُستبردًا، لكنه لا يتحرك، كما لا يتنفس، كي لا يُباغت عريها المفروش في خياله، فينتفض عندئذ متبدّدًا . يتناهى إلى سمعه صوت فتحي، يبحث عنه في الحوش . إنهما لا يلعبان الغميضة، كما يقول له، فلماذا يختبئ منه؟ في عصريات أكثر ارتخاء، ترهقه خيالاته تحت السرير فيغفو، فتكتشف مسعدة مخبأه حين يعلو شخيره . تسحبه من تحت السرير حانقة، تشدّه من أذنه، حتى تكاد تقلعها غير مشفقة على صراخه من الوجع، قائلة :

- أنت هنا يا عديم النفع وأنا أفتّش عنك من ساعة! يا ليت مصيبة أخذتك كما أخذتْ أُمّك!

في بعض العصريّات، تكون روحه ماحلة . يستلقي تحت السرير

بجسد عاجز عن الحركة ، كأنه مقيّد أو مشدود إلى الأسفل ، ينتظر رقيّة تخرج من الحمام . تمرّ ساعة وساعتان فلا تخرج . يحاول أن يشحذ خيالاته كي يسمع صوت الماء في الحمام ، تغمر شلاّلاته جسد رُقيّة ، متداخلاً مع غنائها الفرِح . يسقي عريها الغائب بخيالاته لكنه ، مع ذلك ، لا ينمو . خيالاته ، التي يحيق بها جدب مفاجئ ، تقْفر من جسدها ، وكلما بدأت ذاكرته تردّد إحدى أغنياتها بُتر النّغم بقسوة . بعد وقت يغمره صوت أنفاسه المتسارعة . تضيق المساحة تحت السرير الضيقة عليه أكثر ، ويتضاءل كل فضاء متاح من حوله ، فيشعر أن الهواء يتقلّص من حوله وأنه سوف يختنق . يحاول أن يخرج من السرير ، فيعلق رأسه بالزنبركات التي تخسّفتْ من ثقل والده اليومي . يعلو بكاء منتهى ، ويتشابك معه صوت مسعدة في الحوش تنادي عليه كي يحمل شقيقته أو ليكون ذا نفع في الحياة ، داعيةً عليه بالفناء . يبذل جهدًا مضاعفًا كي يخرج من السرير ، ولا يهمّه حينها أن تكشف رقيّة مخبأه السري وتؤنّبه بأن تشدّ أذنه ، لكن بلطف ، واثقةً من أن جسدها سيبوح له بالمزيد من أسراره ، في غفلةٍ منها ، في مرات أُخرى . يزحف من تحت السرير ببطء شادًا جسده الملتصق في قعر إحساسه شدًا قويًا . حين ينجح أخيرًا في الخروج يكون العرق يزرب من كل ناحية في جسده ، وقد التصق شعره الذي تبلل بعرقه بوجهه ورقبته . بكاء منتهى يشتدّ ، ومسعدة لم تزل تدعو عليه بسوء المآل ، تُلوّح بالخيزرانة . يقف قبالتها مستنفرًا ، مستعدًا لهجوم مرتقب ، قبل أن يسألها بعينين تنزّان سُخطًا :

– متى ستموتين يا خنزيرة الشيب؟

لكن مسعدة تتأخر كثيرًا قبل أن تُريح وتستريح . بعد عشرين عامًا ، سوف يموت والده عزّام الذي ظلّ ، بعد أن عشِقتْ رُقيّة عليه ، زاهدًا في النساء ، مستعيضًا عنهن بثلاث محلات لمستلزمات الخياطة استنزفت

طاقته وسبع حجاّت وشعائر عبادة كثيرة ، من فروض وسنن وملحقات دينية ، سلبته مباهج الدنيا فلم يُقبل على المسرّات إلا ضمن الحدّ الأدنى ، ولن تلحق به مسعدة إلا بعد عشرين عامًا أخرى . في يوم خرجتْ إلى السوق ، فعادت بعد أربع ساعات بسلة الخضار مليئة بأكياس فارغة جمعتها من الشارع ، تحاول أن تفتح باب البيت بالمفتاح ، فتفتح لها امرأة تميزها بأنها أم عزّام وأنها قد تاهتْ عن بيتها ثانية ، أضاعت النقود ولم تشتر الخضار . ثم في مرة تسرّب الغاز وكادت تموت اختناقًا لولا أن الجيران كسروا الباب فوجدوها ممدّدة في أرضية المطبخ ، محاولةً أن تستبقي روحها في جسدها الهشّ بجهد جهيد . ارتأى ، مُكرهًا ، أن يؤويها عنده . قاومت ختام الفكرة ، ثم رضختْ للأمر الواقع بعدما اتّفق مع شقيقه فتحي بأن يتقاسما ما تبقّى من وجودها . منتهى كانت قد قاطعت مسعدة منذ زواجها ، فاستُثنيتْ من الاتفاق .

ملأت ختام ذات صباح البيت عويلاً حين لم تجد مسعدة في غرفتها أو في أي مكان في البيت . حلفتْ له أنها أحكمتْ إغلاق باب البيت الخارجي بنفسها في الليلة الفائتة ، كما تفعل كل ليلة . خرج إلى الشارع مذعورًا ، سأل عنها الجيران والباعة في الدكاكين المجاورة فلم يلقَ لها أثرًا . عزم على الذهاب إلى الشرطة عندما رآها ، بعد انقضاء نصف النهار ، تقف على الباب متأبطةً ذراع شاب غريب . فردتْ شعيراتها الفضيّة السلكية الملمس على كتفيها ، سحل شال رأسها ، فبانت فروة رأسها شبه الجرداء . كحّلتْ عينيها بسواد عظيم سال حتى وجنتيها . طَلتْ خدّيْها بدائرتيْن حمراويْن . قبضتْ يدها على محرمة فيها قلم كحل وعلبة بودرة كانت ختام قد فقدتهما قبل أيام . اعتذر الشاب عن الصّدفة التي قادتْ الحاجّة إليه . اعتذر مرات عديدة ، كأنه يبحث عن مخرج من مأزق لم يسر إليه برجليْه . أمسكتْ مسعدة ذراعه بقوة . حاول الشاب أن يتحرّر منها ،

فجذبتْه إليها وقبّلته في وجهه . ذُعر . قال لهم إنه يملك محلاً لبيع الخضار في السوق القريب ، وأن «الحاجة التي تدخل محلّه أول مرة . . .» لم يشرح تفاصيل ما حدث . شبكتْ مسعدة ذراعها بذراعه بإحكام . غمرتْ إصبعها بلعاب فمها ثم انزلقتْ بها فوق بشرة الفتى . قال لهم إنه كان يبحث منذ ساعات عمن يدلّه على أهلها . أكدتْ له ختام أن أهل الحي كلهم يعرفون الحاجة مسعدة أم عزّام ، فنظر إليها الشاب متشككًا :

- لكنها قالت لي إن اسمها رُقيّة .

ما أحزنه ، أنه بعد أقل من عامين على رحيل رُقيّة ، لم يعد يذكر وجهها . تضخّم جسده فجأة واخشوشنتْ أعضاؤه لدرجة لم يعد يستطيع معها أن يحشر نفسه بيُسر تحت السرير . وإذا ما انحشر ذات مرة ، تخرج من الحمام نساء أخريات يقطرن ماءً على أرضيّة الغرفة ، بعضهن يلففن المنشفة حول أجسادهن باسترخاء ، أخريات يتركنها تسقط عند عتبة الحمام . بعضهنّ لم يرهن من قبل وأخريات يلُحن له في السوق ، حين يذهب مع جدّته مسعدة لشراء الخضار ، يحمل لها السلة ويتحمّل مناكفاتها للباعة . لم تعد رُقيّة تخرج من الحمام إلا في ما ندر . وإذ استبدل والده سريرها وخزانتها بالمرآة الطويلة على بابها بسرير مفرد وخزانة أصغر بلا مرآة ، تشقّقتْ صورتها .

لكن الصورة بُعثتْ فجأة . يوم شبّتْ منتهى فزعتْ مسعدة لأنها كانت تشبه رُقيّة . في العاشرة ، فاقت الطفلة سني صباها طولاً وامتلاءً . بلغتْ حكمة الأنثى مبكرًا . أحكمت مسعدة إغلاق الأبواب والنوافذ . وحرّمتْ على المرأة التي خلعتْ طفولتها ورمتها على طرف سريرها في غفلة منها الخروج من البيت ، حتى لشراء الخبز والسكّر من دكان أبو توفيق الأعمى ، فكانت مسعدة تتأبّط عمرها المتآكل وتنزل نزلة الشارع المُنحدِر من بيتهم ، ثم تطلع طلعة السوق لشراء الخضار ولوازم البيت بعد

سفر الكبير إلى دمشق للدراسة والتحاق الصغير بمحلّ والده . ثم كانت تأخذها في الصباح من يدها إلى المدرسة ، وقبل نهاية الدوام ، تربض لها عند البوابة ، تسير وإياها في الطرقات الخلفية التي لا يستسيغها البشر والكائنات الأخرى . باغتتها ترسم عينيها الواسعتين بالكُحل ، في خطّ حدودي ، بالغ السواد ، بالغ السمك ، بالغ العمق ، فقبضتْ على عنقها بيدها المتعرقة ، ورفعتْ رأسها نحوها . اتّسعتْ عينا الصبية محدّقتيْن في مسعدة بثبات . زلزل الرعب ساقي مسعدة ، لكنها تماسكتْ . بلّلتْ أصابع يدها الأخرى بلعابها ثم مسحتْ بها خطّ الكُحل المرسوم بدقّة وحرفيّة ليستحيل ليلاً قاتمًا سكب شُحباره على وجه منتهى ببياضه النقي . على أن منتهى تستعيد كحلتها الغامقة في عرسها ، لتغيظ مسعدة التي لم تستطع أن تحول دون أن تفتن العالمين .

الطالبات في جامعة دمشق كنّ شديدات البياض بعيون تتاريّة المقطع ، يمتدّ فيها الكحل باتّساق ، بسماكة أقلّ وبعمق أكثر . لكن بياضهن ، الذي نقّحته الحياة والمعرفة المستقاة خارج البيوت ذات الستائر الداكنة ، ماطَلَ قبل أن يستولي على شهوته ، ذلك أن بياض صباح لم يكن قد فارقه تمامًا . أثناء تحضيره امتحانات التوجيهي ، كانت صباح تأتي مع أمّها إلى بيتهم ، تحمل كتاب اللغة العربية وكرّاسة النحو ، ضامّة ذراعيها إلى صدرها بخجل ، فتتنادم أمّها وجدّته مسعدة في الحوش ، نابشتيْن أخبار الأهل من الطرفيْن وآخر الاحتكاكات بين الجارات ، في ما يجلس مع كتلة البياض المستفيض في الصالون ، الذي يظلّ بابه نصف مفتوح على الحوش ، يشرح لها أصول النّحو وقواعد اللغة العربية فيصل إليهما صوت المرأتيْن ، ويُفترض أنّ صوتهما أثناء الدرس والشّرح المُفصّل بين الاستطراد والاستدراك يصل إلى المرأتيْن ، اللتين تطمئنّان إلى سير عملية المذاكرة ، فتُفصّلان في النّميمة وتستطردان . كان يبدأ بإعراب

مبتدئها وخبرها ، ما تقدّم منهما وما تأخّر . يضع يده على يدها رافعًا كمّ فستانها الطويل إلى الأعلى كاشفًا عن ذراع ذات بياض خام يفور مع الضغط . وإذا تأكّد أنها فهمتْ الدّرس الأوّل ، انتقل إلى الأفعال اللازمة والمتعدّية ، متعدّيًا على أزرار الفستان ، زرًا زرًا ، فيتدفق ثدياها ، كرتي ثلج ولهب ، تتمطّى حلمتاهما فيأمرهما وينصبهما ويجزمهما ، ثم يمتدّ فعله المضارع من صدرها ، جامعًا بياضه الذي اندلق على كفّيْه ، منحدرًا إلى صفحة بطنها المستوية ، مُعليًا صوته بالشرح الوافي ، إلى أنْ يبلغ حافة سروالها ، فتنزلق يده على المفعول به والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول لأجله والمفعول المطلق ، ولا يتوانى عن تشكيل أحرفها الملساء بحركات الفتحة والضمّة والكسرة والسكون ، الوثّاب التوّاق ، برأس أصبعه المستدفئ بجُمْلتها الممتعة ، والمفيدة . حين ينتهي من شرحه يسألها ما إذا فهمتْ الدرس ، تهزّ رأسها بنعم واثقة ، أقلّ توتّرًا عن «النّعم» في البدايات . لكن الأمر لا يعدم طرح بضعة أسئلة أخرى ، لمزيد من الاستيضاح . ثم في الإعادة ، في أحايين كثيرة ، متعة وإفادة .

فرح بنجاح صباح أكثر مما فرح بنجاحه . نجاحها لم يكن يعني لزامًا بأنها قد تواصل دراستها الجامعية ، لكن رسوبها ، قطعًا ، كان يعني زواجها بابن عمها راجح ، وهو ما سعتْ ، وسعى هو الآخر ، في سبيل ألا يتحقّق ، فانكبّتْ على مذاكرتها وانكبّ بدوره على دروسه الخصوصية لها في اللغة العربية والإنجليزية والتاريخ ، يجلسان في الصالون مرة ، فيمضي مستفيضًا في الشرح ، بجسد منتبه ومتنبّه لكليهما فيتوقّف عن الشرح ، وتلتقط هي ما سقط من جسدها من معلومات ، في حال دخلتْ مسعدة عليهما بالعصير أو الشاي . وقد يجلسان في حاكورة بيتهم المفتوحة على الحوش ، تحت سقف المعرّش العريض في العصريات المكشوفة ، فيكونان أكثر حيطةً ويقظةً ، فلا يُسهب في شرحه لها كثيرًا ، مارًا على أبرز النقاط

وأهمها بشيء من الاختصار . في حصص أخرى ، يجلسان في الحوش تحت عين مسعدة وأم صباح ، فيختصر لها في الشرح كثيرًا ، ويضطرّ إلى تجاوز بعض الفصول ، فلا تكون الحصّة مفيدة .

دسّتْ منتهى في يدها ورقة مطويّة منه . سألتها صباح عن مسعدة ، فقالت لها الصغيرة ذات الثمانية أعوام بابتسامة منتصرة تبطّنتْ بمزيج من براءة ولؤم ، إن جدّتها ذهبتْ إلى السّوق وأن فتحي خرج مع رفاقه وأن والدها في المحلّ . فضّتْ صباح الورقة بإثارة ، تتابعها عينا منتهى المخترقتان . دعاها في رسالته كي توافيه في بيتهم حالاً ، فلبّتْ دعوته متذرّعة لأمها بالذهاب إلى الخيّاطة . في الصالون وقفا يُراجعان دروس الأسابيع الفائتة . لم يعبّر جسدها عن استيعابه التام فحسب ، وإنما توصّل إلى أفكار شخصية ، أقل اجترارًا لأفكاره وشروحاته وأكثر إبداعية ، متخطّيةً تلقينه البحث لها . حضنها . من تحت ملابسهما ، اصلبّتْ أشياؤهما . لثم رقبتها بشوق ، كاويًا بشرتها الناعمة بلعابه الحار ، فحذّرته هامسة بألا يترك علامات حمراء على عنقها . أحيانًا ، بعد انتهاء المذاكرة ، كانت تخرج من الصالون بوجه ، أكثر ابيضاضًا من بقايا رغبة لم تُطفأ بالكامل ، ترفع يدها إلى وجهها وعنقها كي لا تنتبه أمها أو مسعدة لآثار سحق شفتيه على بشرتها . ارتفعتْ بجسدها المطاطي إلى أعلى قليلاً ، ثم هبطتْ إلى الأسفل بمقياس شعرة ، حتى تأكدّتْ من أن رغبته ، المُصْلَبّة جدًا ، قد أخذتْ موقعها ، ضاغطةً على رغبتها المُنْشَدّة جدًا . مع ارتفاع صوت احتكاك ملابسهما على إيقاع تسارع احتكاكهما الجسدي ، حرّر أزرار فستانها ثم أنزله حتى ما دون خصرها . وقف ثدياها متحفزّيْن ، فدثّر وجهه في سفحيهما . غمرته طراوتهما التي داخلتها صلابة جسد يانع لم تُستهلك شهوته .

تكوّم فستانها على الأرض . همستْ له وسط جُمَل ممتعة ومفيدة من

التأوّه، بأن منتهى قد تدخل عليهما، لكنّه لم يشأ أن يفسد اللحظة بالحيطة من منتهى أو غير منتهى. ركع على ركبتيه. لثم بطنها الذي كان يتنفس بتسارع ثم انحدر إلى الأسفل. كان قد دسّ أنفه تحت سروالها يشتمّ رائحة برعمها الصغير المندّى، عندما قالت له، بجملة مفيدة لكن غير ممتعة على الإطلاق، بأن والدها سيزوجها راجح. رفع رأسه إليها، ليجد وجهها قد استعاد صحوته سريعًا من حالة الغشيان فبدا حزينًا ببياض قاتم. نفض رغبته متسائلاً:

- لكنك نجحتِ في التوجيهي.
- لم يكن يتوقّع أن أنجح.
- ألم تقولي له إنك تفكرين بالالتحاق بمعهد المعلمات.
- بلى. لكن راجح أقنعه بأنني إذا نلتُ شهادة أخرى فلن يتمكن من كسر رأسي.

غطّتْ دموعها بيديها وهي تستعيد ذاك المساء البغيض. فتحتْ الباب، فوجدتْ راجح. قالت له إن أباها في الجامع وأن أمها تزور شقيقتها المتزوجة وأن أشقاءها الثلاثة خارج البيت، وقبل أن تسدّ الباب، حشر ساقه الغليظة في الشق ليدفعه بقوة، متلفّتًا حوله، مطمئنًا إلى خلوّ الطريق من أناسه المعتادين. قال لها إنه واثق من أنها لوحدها. وضع يده على فمها ودفعها إلى الداخل. هدّدها إذا صرختْ أو قاومت، فسيقول إنه ضبطها مع «جاركم.. حبيب قلبها.» أوقعها على السرير وهبط فوقها، لكنه اضطرب لسماع صوت خطوات قريبة تحت نافذتها، فرفع جسده عن جسدها متلصصًا من شق النافذة على الشارع، حينها تمكنت من الإفلات من قبضة جسده، لتركض إلى الحمام وتقفل بابه على نفسها. ظل راجح يرجوها كي تفتح الباب، ثم إذ بدت عودة أهل البيت وشيكة، غادر متوعدًا. مسحتْ دموعها قائلة:

- «مش كل مرة تسلم الجرة .»

أطرق مفكرًا . سألها :

- والعمل؟

ارتدتْ فستانها وسوّت إيشاربها . خفضتْ رأسها ثم عاجلته بنظرة راجيةً ، قائلة :

- لم لا تطلب، يدي من أبي قبل أن تسافر إلى الشام للدراسة؟ نستطيع أن نكتب الكتاب ، أو حتى قراءة الفاتحة فقط .

فزّ من نومه لاهثًا . كان مُغتسلاً بعرقه الغزير . حين رأى الستّ دلال فوق رأسه أدرك أنه ربّما صرخ ، فخجل من نفسه . ناولته كوب ماء ، فعبّه دفعة واحدة . قالت له ، بعدما استعاد أنفاسه ، إن ما وقع لصباح ليس ذنبه . في كلّ حلم ، يمثل له وجهها الأبيض ، يحتلّ صفحة الرؤيا بالكامل . لكنه لم يكن بياضًا فتيًا أو منعشًا . ففي حلم ، يكون بياضًا شمعيًا جافًا ، وفي حلم آخر يكون بياضًا مصفرًا ، وفي ثالث يكون بياضًا مسودًا . وكلّ بياض ، تنمو وسطه دائرة حمراء ، تتّسع وتتّسع حتى تنقضّ عليه .

الستّ دلال ، أو دلال خانوم كما تُعرف في السّوق ، على صلة طيبة مع الحاجّ برهان الرّاوي ، التّاجر الدمشقي صاحب محلّيْن للكلف ؛ واحد في سوق الحرير وآخر في باب توما في دمشق ، الذي تربطه علاقة متينة بوالده عزّام ، حيث يستورد منه كلّ أنواع الكلف ولوازم الخياطة . حين سافر إلى الشام ، بعد قبوله في كلية الآداب في جامعة دمشق لدراسة اللغة العربية ، حمّله والده رسالة إلى الحاج برهان . هزّ الحاج برهان رأسه بعد قراءة الرسالة وقال له إن لديه السكن الأمثل له ، عند خانوم طيبة وبنت ناس ، لديها شقة كبيرة في ضاحية البرامكة ، على بعد شارعين من الجامعة . من حين لآخر ، تؤجّر إحدى غرف بيتها لطالب أو اثنين ، للونس

أكثر منه استثمارًا . فهي امرأة في منتصف الأربعين ، وحيدة ، «لا ولَد ولا تَلَد» ، كما شرح له الحاج برهان . ترمّلتْ في الثلاثين . ترك لها زوجها بيت البرامكة ومحلاً للبياضات والملابس الداخلية القطنية في سوق الحميديّة تديره بنفسها . أبناء المرحوم زوجها من زوجته الأولى حاولوا أن ينتزعوا منها المحلّ . في البداية ، طعنوا في قانونيّة عقد بيع المحل الذي حرّره أبوهم باسمها ، وإذ لم ينالوا مرادهم طعنوا في شرفها . «لكن الخانوم مستورة وسمعتها في السّوق مثل العصملية الذهب .» رفع الحاج برهان كفّه في الهواء كأنه يقسم في شهادة علنيّة .

بانت دهشته جليّة على وجهه ، عندما فتحتْ لهما الست دلال الباب . رغم منتصف أربعيناتها الموثّقة ، فإن قوامها الغضّ الذي احتواه فستان عصري ، ووجهها الذي خلا من أي أثر لأربعة عقود طوال ، خصما عشر سنوات من عمرها على أقلّ تقدير . استقبلتهما بترحاب . أكّدتْ للحاج برهان أن ضيفه ضيفها ، وأنها ستضعه في عينها ، فهو مثل ابنها . كان صعبًا عليه أن يتخيّل أن أمّه رقية قد تكونها . ثم حين أشعلت سيجارة بثقة ، غير متحرّجة من وجوده أو من وجود الحاج برهان أمامها ورفعتْ ساقًا على ساق ، كان من المستحيل أن يتخيّل رقيّة هي . بشقاوتها وفتنتها وكحلتها الغجريّة ، غادرته رقية في عشريناتها ، غير العاقلة ، لا في أربعيناتها المحظورة ، الأقرب إلى القرارات والمشاعر الواقعية . بعد سنوات ، سوف يغفر لأمّه ، ذلك أنها لا بدّ كبرتْ ، وبالتأكيد لو أُتيح له أن يلتقيها ، وهو ما لم يتحقّق ، لأبصر امرأة خمسينيّة ، تتمدّد على مصطبة الحوش ، تلضم حبّات البامية الجافة أو تفرم الملوخيّة ، أو تنظّف العدس من الزوان ، تلوك سير الجارات ، وتضحك فتلمع في زاوية فمها في النهار الخالي من المفاجآت سن ذهبية . بعد سنوات أخرى ، سوف تختلط عليه صورتا رُقيّة والستّ دلال ، فرقيّة سوف تتعلم لاحقًا أن تُحبّ كما قد تُحبّ الستّ

دلال ، حُبًا أرقى وأبقى ، كما أن رُقيّة سوف تتعلم أن تلبس كما تلبس الستّ دلال وأن تكبر مثلها ، لا تستعجلُ فرحًا قادما كما لا تستبقي حزنًا قائمًا . ما أدهشه أكثر أن الحاج برهان هو الذي أشعل السيجارة بنفسه للخانوم .

من البداية ، عرّفته الخانوم على وجوهها الكثيرة ، فكانت صاحبة البيت التي شرحتْ له قواعد إقامته بوضوح ؛ عليه ألاّ يترك ملابسه الداخلية مكشوفة أو ملقاة على الأرض أو على السرير ، كي لا تصطدم بها فهيمة ، «الصانعة» التي تعمل عندها ، حين تنظّف غرفته . يستطيع أن يستقبل ضيوفه في الصالون ، لكن يجب أن يحيطها بعلم مسبق ، ومن غير المُصرَّح له أن يستقبل أي بنت ، زميلة كلية أو غيرها ، في عدم وجودها . له أن يغيب خارج البيت ما شاء له من الوقت ، لكن لن يُسمح له بالدخول بعد منتصف الليل . وهي الست دلال التي لا تطيق أن تتأخر فهيمة عليها ، فتنادي عليها : «يا فهيمة!» فإذا تباطأتْ فهيمة في تلبية النداء ، كعادتها ، صرختْ بأعلى صوتها : «لِكْ يا فهيمي!» مادةً الياء بوعيد ، فتهبّ فهيمة راكضة من المطبخ : «جايي ستّي . . جايي!» تمسح يدها المبلولة بمريلتها ، لتشدّ الستّ دلال أذنها ، ثم تُريها سبّابتها العالق بها غبار مسحته من رفّ البوفيه في الصالون ، تطلب منها أن تفتح فمها ، فتحلف فهيمة بأنها مسحتْ كل أرفف البوفيه ، لكن الستّ دلال تشدّ على أذنها فتفتح فهيمة فمها ، لتَلْعَق أصبع الستّ دلال ، ثم تهزّ رأسها مؤيدةً : «غَبْرة ستي . . غَبْرة .» وهي الستّ دلال نفسها التي تنهض من نومها فجر الجمعة بعد ثلاث سنوات ، وهو في سنته الأخيرة ، مفزوعة على طرقات متتابعة على الباب ، لتجد فهيمة بالكاد تسند قامتها الهزيلة ، تلهث : «دخيلك يا ستي . . دخيلك!» فتقف الست دلال بينها وبين والدها الذي يهدد بنحرها ، بعدما ضبطها مع زيدان في منجرته . ولا

تخرج فهيمة من عندها إلا عروسًا ، فتجعل زيدان يعقد عليها في بيتها بحضور المأذون ، ووالدها ، وكيلها ، والحاج برهان ، كشاهد ، وأحد تجار الحميدية ، كشاهد ثان ، وتحمّلها جهاز عروس كاملاً من قمصان نوم وملابس داخلية وبياضات مطرزة ، وتقيم لها عرسًا يظلّ أهل قريتها يحكون ويتحاكون عنه لسنوات .

في صباحات الجمع ، تشبه الست دلال كثيرًا أمًا لم تكنها له ، تنهض من الصباح بعد ذهاب فهيمة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع عند عائلتها في الغوطة ، تحضّر «التّسقية» بالصنوبر والخبز المحمّص والشطّة الحمراء والسّمن البلدي ، والفول المدمس بالبندورة الناعمة والبقدونس والثوم والفلفل الأخضر والبيض المقلي والزعتر الحلبي بالفستق ومقدوس الباذنجان ، المحشو بالجوز الذي كبسته بنفسها ، ومخلل الفقّوس والزيتون بنوعيه الأخضر ، والأسود ، ومُربّى البرقوق ، واللبنة البلدية ، التي توصي عليها من والد فهيمة ، فيستمر صباح فطورهما حتى الضحى . في الصباحات الأخرى ، تكون الست دلال الخانوم ، تلبس «المانطو» فوق طقم عصري أنيق وتعقد الإيشارب القصير حول شعرها المرفوع في شنيون بسيط ، تتدلى من يدها حقيبة صندوقية الشكل من لون حذائها نفسه ، وتمضي إلى محلّها في سوق الحميدية . قد يمرّ عليها بعد انتهاء محاضراته في الكلية ، تكون بالكُزلك ذي الإطار العظمي السميك ، تراجع فواتير المحل ، تتابع من تحت نظاراتها الشلحات القطنية التي يفردها نعيم ، صبي المحل ، أمام زبونة متردّدة ، فتطلب منه أن يُري الزبونة النوعية الجديدة من الشلحات التي وصلت منذ يومين . حين تقع عينها عليه ، تفرح بحرارة يستشعرها ، فتطلب من نعيم بعد أن تشتري الزبونة الشلحات الجديدة أن يذهب إلى محلّ «بكداش» ليحضر لضيفها بوظة عربية بالمستكة .

في الأمسيات التي تعبق بصوت ناظم الغزالي ، تكون دلال المرأة

الجميلة جدًا ، تجلس في الصالون على أحد مقاعد طقم الموازييك الدمشقي ، تحمل فنجان القهوة بيد والسيجارة المشتعلة بيد أخرى ، فتسحره تفاصيل لا تلقي هي بالاً لها ، كاتّساق أظافر قدميها المطليّة بلون أحمر ساتاني ، تبرز من فتحة قبقابها الأبيض ، أو كأن يبين طرف كشكشة شلحتها من تحت تنّورتها حين تضع ساقًا على ساق ، يميل رأسها على انحناءات الصوت النائح في «أقولُ وقد ناحتْ بقُربي حمامةٌ ، أيا جارتا لو تَشعرينَ بِحالي ، مَعاذَ الهَوى ما ذُقتِ طارقةَ النّوى ، ولا خَطَرتْ منكِ الهُمومُ ببالِ ، أيضحكُ مأسورٌ وتبكي طَليقةٌ ، ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالِ ، لقد كنتُ أولى منكِ بالدّمعِ مقلةً ، ولكنَّ دمعي في الحوادثِ غالِ .»

لم يُقصَ ذاك اليوم بعيدًا في ذاكرتها . كان عدنان مختبئًا في بيتها منذ ثلاثة أيام . أصمّتْ خبطات أيديهم الحاقدة الحياة . اقتادوه موثّق العينين . قبّلتْ حذاء كبيرهم كي يتركوه . تكلبشتْ في ساقه ، متوسلةً ، لكنّه ركلها بحذائه العسكري اللامع ، فارتطم جبينها بالباب . اختفى مع عشرات الضبّاط الناصريّين ، ممّن لم يعد لهم أثر . لم تكن قد مرّتْ سوى شهور على «ثورة آذار» ، آخر انقلاب ضمن مسلسل الانقلابات الوطنية العُظمى ، حين وقع انقلاب مستجدّ . ككلّ انقلاب ، انقسم المنقلبون على أنفسهم ، ثم انقلبوا على انقلابهم ، وأحرار الأمس هم عملاء اليوم ، وفي النهاية طلعوا على أبناء دولتهم المشتبكين في واقع عدم الفهم اليومي وفي إنهاك عقولهم المتعبة لاستيعاب منطق الوحدة والحريّة والاشتراكية بحقيقة انتصار الثورة وتطهيرها من أعدائها ، حتى وإن اقتضى ذلك غسل الثورة بالدم ؛ دم ابن البلد . قال لها الحاج برهان إنه من الأفضل والآمن لها ، لحياتها وتجارتها ، أن تنسى عدنان .

- لكنّني أحببته . كنتُ سأبيع البيت والمحلّ ونهرب إلى عمّان ومنها

إلى أي بلد ولو في آخر الدنيا . كُنّا سنتزوّج .

اختلطتْ دموعها بالصوت الشجيّ الرقراق لناظم الغزالي ، إذ يصفو ويرقّ في حُزنه : «قُلْ لي يا حلو امنين الله جابَك ، خَزَّن جَرحِ قلبي من عذابَك ، جَرح القَلْب من فَرقاك خَزَّن ، ما حَدّ مِثْلي بْمَحْبوبه تِمَحَّنْ ، هَمْ هذا نَصيبي وانْجِبُر بيك ، لا آني أَتوبُ ولا الله يِهديك .»

لكنها بعد بضعة صباحات ، تتخطى أمسيات الغزالي وما ترافقها من ذكريات ومرارات وهشاشة وقهوة ومشاعر متخففة من حذرها ، فتعود دلال الستّ دلال ، تقف عند باب غرفته ، بعينيْن غاضبتيْن ، تسأله :

- قالت لي فهيمة إنك استقبلتَ ليلة أمس في غيابي فتاة . هل هذا صحيح؟ لقد استيقظتْ على صوتكما في غرفتك . أجبني! هل تُنكر؟

توسطتْ الحائط الرمادي المُتقشِّر أمامه بقعتان بيضاويّتان متجاورتان فبدتا ، بلونهما المصفرّ من أثر القِدم ، مقلتيْن غائرتيْن في وجه بالٍ ، تحدّقان فيه . كلّما حاول أن يهرب منهما ، اصطدم بهما ثانيةً . لدقائقَ ، استحالت في مساحة كيلومترات الصمت الشاسعة إلى ساعات ، ظل المُحقّق يُدحرج قلم حبر فوق أصابع يده ، يوازنه ، فيظلّ متأرجحًا فوق نهاياتها ، ثم يفلته عمدًا ، فيقع على المكتب ، ويظلّ يتدحرج حتى إذا ما وصل حافة المكتب وضع المحقّق يده فوقه ، ليحول دون وقوعه على الأرض . لم يسعفه أثاث الحجرة المتقشّف في الهرب من عيني الحائط الرمادي ، أو من عيني المحقق الرصاصيتيْن ، اللتين خرقتا بصره . لاحظ أن أظفر إبهام المحقق نشفتْ فيه الدماء فاكتسى بلون دخاني مزرقّ . خال الغرفة عندما دخلها أكبر مساحة ، لكن ما إن سأله المحقق عن صباح حتى تقلّصتْ كثيرًا ، فبات لا يستطيع أن يلتف ببحبوحة ، حتى حول نفسه .

كانت كأن الحوائط يغمق لونها أكثر ، ميالة إلى الظلمة ، والبلى كأنّه سارٍ طوال الوقت ، فكان السقف يُمطر قشرة الطلاء الرمادي على شعره

وقميصه .

قال له المحقّق إن جثّة صباح وُجدتْ ملقاة في أحد الأحراش على طريق السّلط . ماتت خنقًا . هذا ما جاء في تقرير الطبيب الشرعي . ليس هذا فقط ، بل تبيّن بأنها ليست عذراء . ثمّة آثار جروح ورضوض في جسدها ، ما يعني أنها كانت تُقاوم . عاد المحقّق إلى صمته وإلى لعبة القلم ، عندما سأله :

- هل كنت تعرف الجني عليها؟

- جارتنا في صويلح . والدي يعرف والدها ، وجدتي تعرف أمها .

- وأنتَ؟ كيف كانت علاقتك بها؟

- ساعدتُها في مذاكرة امتحانات التوجيهي .

اتّسعتْ الحدقتان في الحائط الرمادي . قرّب المحقّق وجهه إليه ، هامسًا :

- فقط؟

في عيني صباح اللتين رجتا عينيه ، اشتدّ خَبْط راجح العنيف على باب الحمّام . صدى الطرقات تجاوز أيامه الراهنة إلى أيامه الآتية . أطفأ ذاكرته القريبة على بياض صباح ، إذ أضاءها ثانية كان بياضها يشحب ، وعيناها كانتا تتّسعان ، يتجمّد فيهما الذعر .

- ما زلتُ أنتظر جوابك .

قال له المحقق . تدحرج القلم من يده على المكتب ، فبلغ حافته ، ثم وقع على الأرض .

(٧)

فراس عيّاش

أُمّه نعمة ماتت قبل عامين . كانت تريد جدًا أن تفرح به عريسًا ، بل إنها خطّطتْ لزفّة حمام العريس ، فكانت لتطلّعها البالغ تصفها في صور بهجة حقيقية تتخلّلها زغاريد النسوة وغناء الشباب ، الذي يندلع من حناجر جهورة ترهب الحسّاد والحاقدين ، كأنها وقعتْ حقًا . كانت تريده أبًا تحمل أبناءه الكثيرين وتضعهم على حضنها بالساعات ، حتى وإن بالوا عليها . كانت تحبّ أولاد شقيقته سمر ، لكنها كانت تجزم دائمًا بأنها سوف تحبّ أولاده أكثر ، وهو أمر لا يعتقد أنها كانت تقوله من قبيل المبالغة في إظهار محبّتها ، التي تراكمتْ مع التأجيل ، لأولاد ولدها القادمين . فهي وإن أحبّت سمر إلا أنها أحبته أكثر ، فكان حصّتها التي أخذتها من أبيه بالتراضي .

تأخر حتى نزل من حضنها ، الذي بال عليه كثيرًا . وحين أقلع عن حضنها ، ظل يبول على فراشه ، فكانت نعمة تنهض في الصباح قبل الجميع ، تقوم بالمهمة التي تنتظرها بمنتهى الحيطة والسرية ، تمسح رطوبة البول العالقة بفرشة سريره المغلفة بمشمع سميك يحول دون تسرب الماء إليها ، وتُبدّل الشرشف والبطانية ، اللذين تشبّعا برائحة بوله ، تُجرّده من بيجامته وملابسه الداخلية ، ثم يقف تحت الدوش ، منتصبًا بثقة أكبر وهو

يستشعر الماء الدافئ ينحدر على جسده ، متحررًا بالتدريج من حياء فعلة الليلة الفائتة ، متخففًا من انكماشه . حين يستيقظ الجميع ، يكون بملابس جافة ، نائمًا على شرشف جاف ، مُغطّى ببطانية لا أثر لرائحة بول فيها .

تأجّل مشروع خطبته مرات كثيرة . في المرات الأولى ، كانت ظروف عمله غير مستقرة ، خاصة بعد مغادرته الكويت في أعقاب حرب تحريرها . عمل مترجمًا غير متفرغ ، متنقلاً بين عدد من الصحف اليومية والأسبوعية في عمان . من حين لآخر ، كان يترجم الكتب ذات العناوين الضاربة لعدد من دور النشر ، عن تورّط الموساد مثلاً في شبكات عربية لتبييض الأموال ، أو فتح الملفات المغلقة للاغتيالات السياسية في العالم ، التي تظل ، مع ذلك ، مغلقة حتى بعد الانتهاء من ترجمة الكتاب ، أو المؤسسات الثقافية والاقتصادية والخيرية التي تشكل غطاء لأبرز المحافل الماسونية العالمية . كثيرًا ما كان يضطر للعمل ست عشرة ساعة في اليوم ، ومرة اضطر أن يترجم كتابًا عن مذكرات عميل للـ«سي آيه إيه» ، كان على اتصال مع المليشيات المتحاربة في لبنان في السبعينات والثمانينات من ثلاثمائة وسبعين صفحة في أقل من شهر ، لتتمكن دار النشر التي أسندتْ إليه الترجمة من طبع الكتاب قبل أخرى منافسة لها في سوق لا تعترف بما اصطلح على تسميته حقوق الترجمة والنشر . كان يتقاضى دينارين على الصفحة ، وأحيانًا دينارًا ونصف الدينار . وقد يضطر ، في حال مماطلة دار النشر في الدفع ، إلى التنازل عن جزء من المبلغ المتفق عليه ، وأحيانًا نصفه مقابل الحصول على المتاح من الفلوس ، وهي شحيحة .

في المرات الثانية ، ظروف والده لم تكن مستقرّة ، وقد استنفد مدخرات العائلة في جُملة مشاريع جرّت عليهم ديونًا اضطر هو إلى سدادها على مدى سنوات لاحقة . كان يعمل في السنوات الثلاث

الأخيرة في مجلة اقتصادية ، حين قرأ إعلانًا في إحدى الصحف لمؤسسة «العالم العربي» للدراسات في أبوظبي تطلب مترجمين . أرسل لهم بالبريد وانتظر أسابيع كي يردّوا عليه ، ثم نسي الأمر تمامًا . بعد ستة شهور ، استدعوه للمقابلة في مقر السفارة الإماراتية في عمّان . كل شيء تمّ بسرعة . وقع العقد ، وقدم استقالته من المجلة ، مبتهجًا لأن مشروع خطبته ، الذي كان قيد التداول من جانب نعمة التي وضعته أمام خيارات عدة متشابهة ، تبدأ بابنة شقيقتها وتنتهي بابنة شقيقتها الأخرى ، تأجّل مرة أخرى . لم يكن مبتهجًا لأنه كان سيذهب إلى الإمارات ، كان مبتهجًا أكثر لأنه كان سيغادر الأردن .

لم يحبّ الأردن ، والأردن كذلك لم تحبّه ، أو لم تحاول . في الأردن ، كان عليه أن يتذكر أنه أردني من أصل فلسطيني ، وفي الوقت نفسه عليه أن يكون مواطنًا أردنيًا كاملاً ، قلبًا وقالبًا ومتقلبًا ، منسجمًا مع الخطاب العاطفي الرسمي : «أخي المواطن» ، و«عزيزي المواطن» ، الذي حاصره بالحب والإرشادات والتعليمات الحيوية في كل شارع وفي كل زقاق وفي الإعلانات الحكومية التي كانت تصبّح عليه في الصحيفة ، تذكره بواجبه الوطني ضمن تهديد مبطن ، وتغبطه على الحقيقة أن مواطنته هي مصدر دخل البلاد القومي الأكبر . هذا لا يعني أن الكويت ، التي وُلد فيها ، أحبّته . في الكويت كان لا يستطيع أن ينسى للحظة أو لجزء من لحظة أنه فلسطيني ، وهو أمر كان يثقله ، لا لأنه كان يريد أن ينسى ذلك بل لأنه لم يكن بحاجة لأن يتذكّر بإلحاح ويُحاصر ، بناء على ذلك ، في عيشه اليومي . كانت فلسطينيّته حاضرة معه بقوة ، رغمًا عنه ، يحدّدها ليس شعوره أو الإرث «النكبوي» ، وإنما قوانين الحياة في اللجوء ، التي تضيق الدائرة على هويته . لشدّة ما حضرت فلسطينيّته وطغتْ عليه ، كرهها أحيانًا . لكنه لم يكن يصرّح بحنقه أبدًا . وما زاد في حنقه أنه جاء في

الزمان والمكان الخطأين جدًا، البعيدين جدًا عن فلسطين، حتى بالمنطق النظري، المقفريْن تمامًا من حيث الممارسة، سواء بالانتماء الحزبي العملي أو الفكري التنظيري. اقتصرتْ التظاهرات التذكيرية الفلسطينية البائسة على المهرجانات الخطابية، في مناسبات الضياع الكثيرة، التي كانت تنظّمها منظَمة التحرير الفلسطينية في مقرّها المتهالك في مدينة حولّي، يوم وعد بلفور، ويوم انطلاقة «فتح»، ويوم الأرض، ويوم النكبة، ويوم النكسة، وأيام المذابح الكثيرة، التي تكون فرصة لولادة شِعر كثير، مزعج، عالي النبرة، مقفًى بمدّات عظيمة من وزن «الفدا» و«العدا»، بانيًا مشاعره الوطنية بالاستناد إلى ما جاء في الكتب المدرسية. وعندما تحوّل إلى مخزون والده النوستالجي، اكتشف أن ما قاله له لم يختلف كثيرًا عما ورد في كتابه المدرسي. هل يكفي أن يكون فلسطينيًا ليكون فلسطينيًا؟

نعم بالنّسبة لسميح، ابن الجيران الذي لم يسلم أحدٌ من جيرانه من شرّه. كان سميح يشتري البوظة المثلّجة المغروزة بأعواد خشبيّة، يعطيها للصغار، هو بينهم، ثم يأخذ الأعواد فيبري رؤوسها بالشفرة ليغرسها في فتحات تنفيس الهواء في إطارات سيارة جار يناكفه أو يجادله في حقّه في التسكّع في ساحة العمارة. ومع ذلك، يوم مات بكاه كل الجيران في العمارة التي تكاثر فيها المغتربون، على مدى سنوات، داخل الشقق الصغيرة فكثروا وكبروا وقَدِموا مع قِدَم العمارة. كان سميح يدرس في إحدى جامعات الهند، أو يفترض أنه كان كذلك، حين سمعوا أنه التحق بصفوف المقاومة الفلسطينية في بيروت، مستشهدًا عشية الاجتياح الإسرائيلي للمدينة. في العزاء المهيب الذي أقيم له في ساحة العمارة الواسعة وحضرها الداني في الكويت والقاصي، طأطأوا رؤوسهم حزنًا، وأولئك من ناكفوه أكثر من غيرهم، خزيًا. جميعهم اكتشفوا في ساعة الحزن والبكاء تلك أنهم يحبّونه. شباب كثر اشتهوا موته. بعضهم

خطط علنًا لموت مماثل .

سميح هو الذي قاد تظاهرة طلاب مدرسته الثانوية في حولي ، المدينة ذات التجمع الفلسطيني الأكبر في الكويت ، احتجاجًا على توقيع اتفاقية كامب ديفيد . من صفه في الطابق الثاني في مدرسته المتوسّطة المجاورة للمدرسة الثانوية ، شاهد سميح يبزّ الكثرة البشرية المتزايدة عند مدخل المدرسة بطوله الهائل ، الذي كاد يبلغ نافذة صفه في الطابق الثاني ، حيث كان يراقبه مأخوذًا به ، هو الوسيم الفاتن ، الذي طغتْ إطلالته على المشهد البشري كله ، رغم عظمته . تحدّث سميح إلى مدير المدرسة طالبًا منه تعليق الدراسة وانضمام الطلبة إلى التظاهرة . ساندَه المتظاهرون من ورائه بالهتافات التي اهتزّت على وقعها أجسامهم ، حديثة العهد بهذا النوع من النشاط . كان بعضهم كأنهم يرتفعون فوق الأرض ، مع جلجلة الأصوات ، ثم يهبطون . غادر طلبة المدرسة المتوسطة صفوفهم دون انتظار موافقة المدير ، ملتحمين بالطلبة الأكبر سنًا . ضاقت ساحة المدرسة بهم . تدافعوا للخروج من البوابة . وقع على الأرض . امتدّتْ إليه يد يعرفها . رفعه سميح على كتفيه متقدمًا التظاهرة التي شقتْ الشارع الفرعي المطل على مجموعة مدارس متجاورة منطلقة إلى الشارع الرئيسي ، وقد أفسحتْ السيارات القليلة الطريق أمام البساط البشري الذي تمدّد كثيرًا وعَرُض . من فوق كتفي سميح ، ملأ الجمع الغاضب بصره . انطلقتْ حنجرة سميح مدوية بـ«التعلب فات فات» ، ليردّد الجمع من ورائه : «وبإيدو أنور السادات» . ساقاه الهزيلتان اللتان تدلتا فوق صدر سميح ارتجّتا مع ارتجاج الصوت . ثم علا الصوت أكثر غضبًا وقوة : «جابلك إيه يا بهية عبد الناصر لما مات» ، فأجابه الحشد الحانق جدًا : «جابلي جحش من المنوفيّة اسمه أنور السادات .»

في المساء ، انهالت عليه نعمة بالشبشب . رفع والده صوت التلفزيون

ليسمع نشرة الأخبار بعدما طغى صراخه على صوت المذيع . كان قلبها يغلي عليه ، فلقد عاد كل أولاد الجيران في العصر إلا هو . سألتهم عنه ، فقالوا لها إنه يقود التظاهرة مع سميح . «هل أرجعتَ فلسطين يا ابن الكلب؟» ، سألته وهي تشوّح فردة الشبشب البلاستيكي في الهواء قبل أن تلذع ذراعه حينًا ثم ساقه حينًا أخرى . رفعتْ سمر صوت المسجِّلة في غرفتها بالأغنية الغربية ذات القرع الصاخب ، لتحول دون تشوّش إيقاعها بصراخ توأمها المتداخل مع لسعات الشبشب وهدير صوت المذيع الغاضب في التلفزيون . جُنّت نعمة لأنه أضاع إحدى فردتي حذائه . كانت قد أفلتتْ من قدمه ، دون أن ينتبه لها ، مع خضخضة جسمه فوق كتفي سميح . حين أنزله سميح أخيرًا ليسير إلى جواره ، اضطر إلى أن يخلع الفردة الأخرى ويضعها في حقيبته المدرسية خلف ظهره ، ماشيًا فوق الإسفلت بجوربه . كاد يغمى على نعمة إذ رأت أصابعه تنبت من داخل جوربه الذي تمزّق بقسوة .

في ذلك النهار الذي بعد كثيرًا عن فلسطين ومصر ، بينما كان يقطع الشارع الممتدّ تحت الجسر الواصل بين الجابرية وحولي ، استوقفه حاجز نصبه جنود عراقيون أغلقوا الشارع المؤدي إلى حولي ، ووجّهوه مع عدد كبير من الشباب والرجال جمعوهم تحت الجسر ، قلّة منهم كويتيّون أنزلوهم من سياراتهم والغالبية وافدون ، للمضيّ إلى اليسار باتجاه الطريق السريع في تظاهرة تضخّمتْ بعناصر أمنية عراقية . رموا على الوافدين دشاديش مطوية تكسّرت أقمشتها طلبوا منهم ارتداءها ، ملوّحين بالعصي والبنادق ، مطلقين عيارات ناريّة في الهواء . تلقّفتْ يده دشداشة بيضاء مصفرّة . ضربه ضابط عراقي بالعصا على ظهره . طلب منه أن يرتدي الدشداشة ، فهز رأسه رافضًا . سأله عن جنسيته . «فلسطيني» ، أجابه . عاينه الضابط بنظرة ساخطة ، قائلاً :

- «على مود نْرَجّعلكم القُدس!»

- القدس في الخريطة التي أحفظها جيدًا لا تمرّ عبر الكويت .

ضربه بالعصا على ظهره ثانية ، فمشى حاملاً الدشداشة بين يديه ككفن مطوي . ارتدى معظم المتظاهرين الدشاديش التي بانت من تحتها ياقات قمصانهم غير المتجانسة معها . وزّع عليهم ضباط عراقيون أعلامًا وصورًا للقائد ، من بينها صورة له بالبزة العسكرية والبسطار راكعًا فوق سجادة الصلاة ، ويافطات مكتوبة بخط اليد . إحدى اليافطات جاء فيها : «جمعية المعلمين الكويتية تهنئ القائد الركن المؤمن بالله صدام حسين بعودة المحافظة التاسعة عشرة إلى العراق» ، ويافطة أخرى حملت : «كافة الأطر العمالية والنقابية في الكويت تهنئ القائد البطل الملهم صدام حسين بمناسبة عودة الفرع إلى الأصل» .

قاد التظاهرة ، التي رصدتها كاميرات التلفزيون ، حفنة من الطبالين وأصحاب الحناجر المدوية ورشيقي الخطو المدربين على القفز والنط في الهواء لساعات ، يلامسون بعدها حافة الانتشاء ، ممن يُجلبون خصيصًا لهذه الفعاليات . شقّتْ صيحاتهم الشارع المفتوح أمامهم على فراغ من البشر والسيارات ، وقد تلصّصتْ على هذا الفراغ بضع أعين من نوافذ العمارات وشرفاتها المغلقة على الانتظار : «بوش بوش شيل إيدك . . هذا الحكي ما يفيدك . . بوش بوش شيل إيدك . . هذا الحكي ما يفيدك .» ثم يأخذ القفز والنتر اتجاهًا أكثر عمودية مع : «صدّام إنتَ السيف وإحنا ذراعك . . صدّام إنتَ السيف وإحنا ذراعك . . صدّام إنتَ السيف وإحنا ذراعك .»

تعمّد الضابط نفسه الذي سأله عن جنسيته التحرّش بكويتي ، التزم الصمت طيلة التظاهرة . ضربه الشرطي بالعصا على ذراعه وطلب منه أن يردّد صيحات تمجيد القائد الذي حرّرهم من الطّغمة الفاسدة في الكويت .

لكن الكويتي لم يفتح فمه ، مكتفيًا بالسير برأس مُدلّى لفّه بغترته البيضاء ، دون عقال ، فلم تبن سوى عينيه الخاليتين من الشعور . ضربه الضابط بالعصا على ظهره ، قفز فوق الأرض من الألم . طلب منه أن يردّد من خلفه : «صدّام اسمك هزّ أمريكا .» ثم صرخ في الجميع وطلب منهم ترديد الصيحة ذاتها ، فتحولّوا لها على الفور . ضرب الكويتي بالعصا على ساقيه ، فصاح الأخير : «صدّام اسمك هزّ أميركا» ، فصرخ فيه الضّابط كي يرفع صوته أعلى ، فعلّى صوته : «صدّام اسمك هزّ أمريكا .» لكن الضابط قال له إنه لا يسمعه جيدًا ، فخلع الكويتي غترته ولوّح بها في الهواء ، مع الصور والأعلام التي لوّح بها المتظاهرون ، وصاح ، متقافزًا : «صدّام اسمك هزّ أمريكا . . صدّام اسمك هزّ أمريكا . . صدّام اسمك هزّ أمريكا .»

أدرك أن لا فائدة من مجادلة مِشعل في أسلوب المقاومة الكويتيّة البائس . مشعل كان رفيق سني الدراسة في قسم اللغة الإنجليزيّة بكلية الآداب في جامعة الكويت . لم يكن يحضر محاضراتهما المشتركة إلا لمامًا . كان دائم التعطّر والتّهندم بدشداشته ناصعة البياض التي لا تلمح فيها كسرة واحدة حتى بعد يوم كامل من ارتدائها ، دائم العشق ، يلقي برقم هاتفه من سيارته للفتيات الخارجات من مراكز التسوق ، دائم الرغبة في الإقلاع عن الدراسة ، لولا الوظيفة المضمونة الموعود بها بعد الشهادة ، دائم الاعتماد عليه ، هو الرفيق المُنقِذ كما يسميه ، في تأمين كراسات المحاضرات والمراجعات المطلوبة أيام الامتحانات . بعد أقلّ من شهر من تخرّجه ، تعيّن مشعل في وزارة الداخلية . وعند اجتياح الجيش العراقي الكويت ، آثر أن يظل وطنه ، كما تبجح لاحقًا أمام أبناء جلدته الهاربين ، ليشكل خليّة مقاومة للعدوّ الشرس الذي توزّع أفراده في الجمعيات التعاونية ، يتذوقون الجبنة البيضاء غريبة المذاق والقوام في علب

النيفيا من على الأرفف، مبدين تقزّزهم من طعمها.

قبل أيام قتلوا جنديًا عراقيًا. كان متمركزًا عند مستوصف حولي، يتربّع فوق جريدة، يغطي رأسه بكيس ورقي تحته قماشة وسخة. كانت الشمس تترشّح عبر مسامات الكيس فيختزن لهيبها داخل رأسه ليقطر عرقًا طوال الوقت. ارتدى بزّة كاكيّة لا تحمل أية علامات خدمة في جيش نظامي وحذاء رياضيًا خفيفًا أبيض بفردتين عسراويتين. لم يكن يحمل في كتفه سلاحًا، وإنما حقيبة جلدية متفسّخة. غرسوا خنجرًا في ظهره. ظلّتْ الجثة تقتعد الجريدة، بالكيس الورقي فوق رأسها، وبالخنجر في ظهرها يومين. حذّر «رجال» مشعل الناس من رفع الجثّة، التي أرادوها عبرة للجيش العراقي الذي في النهاية لم تكن قيادته معنيّة بموت أحد مجنّديها على جريدة بكيس ورقي فوق رأسه، وبخنجر في ظهره بات في نهاية اليوم الثاني جثّة حافية القدمين بعدما سُرق حذاؤه الرياضي ذو الفردتين المتماثلتين.

اتّصل به الطبيب المناوب في المستوصف. كان يعرف أنه على علاقة ببعض أفراد المقاومة الكويتية، هو الذي أمّن لهم الدواء والضمادات والإسعافات الأولية من خلاله. وفي مرة، أخذه بسيارته إلى بيت أحدهم لانتشال رصاصتين اخترقتا كتفه وساقه. رجاه الطبيب أن يتوسّط عند الكويتيين ليدفنوا الجثة، إن لم يكن من أجل حُرمة الميت، فلدواعي الصحة العامة؛ فالجثة كانت قد انتفختْ، ومع الشمس الحارقة، فإن تحلّلها وشيك. رضخ مشعل لطلبه مكرهًا، إذ كان يُمنّي بصره بمشهد تحلّل العدو واندحار جسده، كلحم متعفّن، أمامه.

- ما هذه الحماقة؟ عن أي عدوّ تتحدّث؟ هل رأيت المجنّد الذي قتلتموه؟ كان أقرب إلى شحّاذ منه إلى جندي.

انتفض مشعل غاضبًا:

- كُلّ العراقيّين أعداؤنا .

لكن هذا الأمر لم يكن موضوع خلافه الوحيد مع مشعل . تناءيا جدًا في تفسير مبدأ «التعاون» مع العراقيين . فأن تذهب إلى عملك في مدرسة أو صحيفة ، أو مؤسسة حكومية ، تجلس على مكتبك ، تقوم بوظيفتك ، لتتلقى آخر الشهر راتبك بالدينار العراقي ، فتشتري الخبز والخضار واللحم والسجائر التي تحرق بها ليالي الانتظار وأنت تحرك مؤشر الراديو ، مستكشفًا إذاعات نائية متلقفًا خبرًا شاردًا هنا أو واردة هناك ، أو تذهب إلى البصرة لاستخراج بطاقة هوية بناء على أوامر صريحة من الحكومة العراقية ، أو تبدل لوحة السيارة الكويتية بأخرى عراقية ، رغم أن هواك ليس كذلك قطعًا ، هو تعاون من نوع العمالة في نظر الكويتيين ، الذين أمروا البشر بالإضراب عن الحياة ، على اعتبار أن الرزق سيسقط عليهم من السماء مع صورايخ الأمريكان ، متوعدين المتعاونين بالعذاب الأليم حين يؤون أوان التحرير .

بمساعدة طبيب المستوصف ، سحب الخنجر من ظهر القتيل ، ولفّاه بشرشف أبيض قبل أن يحملاه ويضعاه في صندوق به ثلج لتنقله سيارة تابعة للمستوصف إلى مدفن تم استحداثه لهذه الحالات . استبقى لنفسه الحقيبة الجلديّة المتفسّخة التي تدلّتْ من كتف المجنّد ، أيام عيشه وأيام موته . في الليل ، أغلق على نفسه في غرفته ، ووضع الحقيبة على السرير أمامه . بعد تردّد ، فتحها بحذر ، كما لو كان يخشى أن تكون في داخلها قنبلة تتسارع تكّاتها نحو الصفر قبل الانفجار . ظنّ أنه سمع التكات بوضوح . لكنه استدرك أن مصدرها قلبه .

حوتْ الحقيبة بطاقة هوية للمجنّد حملتْ صورته . سليمان اسمه . نظرته في الصورة التي تلبّستها غيبوبة ما لم تختلف كثيرًا عن تلك التي تجمّدتْ في وجهه ، إذ اخترق نصل خنجر غادرٍ منتصف ظهره . كانت هناك أيضًا صورة ملونة تجعّدتْ من أثر الضغط عليها بقوّة ربما ، أو جرّاء

معانقتها بحنوٍّ عظيم يكابد حرقة البكاء وإحساس ثقيل بالبعد المتراكم، لثلاثة أطفال، ولدين وبنت، وقفوا بملابس روعي فيها كل تفاصيل أناقة المناسبات العزيزة جدًا والنادرة للغاية، بما فيها انتعالهم أحذية لامعة وجوارب. فاضت بهجة وجوههم في جوّ الصورة التي عبقتْ بضحكاتهم، دون أن يخطر في بالهم أبدًا أنهم سوف ينتهون في حقيبة جلدية متفسخة.

كمن في قاع الحقيبة كيس أسود معقود جيدًا. فكّ العقدة برفق. شال أزرق من الحرير الهشّ تعلّق ببصره. حضر في إحساسه على نحو مفاجئ وعنيف. تملّكته رعشة. كأنه له أو كأنه يعرفه، إذ ضاع منه وبحث عنه طويلاً قبل أن يجده. بعد وقت، تخفف في أثنائه من طغيان زرقته في بصره، فرده على السرير. توشيحات برتقالية وذهبية ناعمة تداخلتْ في نسيجه الناعم. حمله كامرأة استلقت بميوعة لطيفة بين ذراعيه. قربه إلى فمه وأنفه. تسللت إلى كيانه من النسيج الهش رائحة عذبة جدًا وفردية جدًا، حاول أن يقارنها برائحة أخرى تشبهها فلم يستطع. كانت حميمة جدًا، مخلصة لذكرى بعينها، محيكة بمشهد خاص تصوّره لامرأة تجري في باحة الدار الأمامية في قرية نائية، التفّ شال أزرق من الحرير الهشّ حول عنقها فطار وراءها أثناء ركضها لترتمي بين ذراعي رجل عاد من غياب مؤلم، فيربّتُ جناحا شالها على وجهه الذي تجعد، نافضًا عنه آثار البعد. تمنى لو أن الرائحة مبعثها هذا المشهد، لكنه كان يعرف أن سليمان وحده كان سيشرح له أصل الرائحة.

بعد شهر لم يره أثناءه أو يسمع منه زاره مشعل. تعمدا ألاّ يتحدّثا في كل الأشياء التي بدأت تُباعد بينهما منذ الاجتياح، وهي أشياء مع الوقت واختلاط الأشياء بعضها ببعض أصبحتْ كثيرة. أحضر له مشعل من مخزن إحدى الجمعيات التعاونية دزينة حفاظات بامبرز للأطفال، بناء

على طلبه . سألته نعمة بعد رحيل مشعل عن السبب الذي جعله يطلب الحفاظات ، فاكتفى بأن قال لها إنها لـ«ناس» . لم تتوقف عند غمغمته واختياره ألا يشرح أكثر ، وهو يضع الكرتونة في الخزانة ، إذ كان فكرها قد قادها إلى اقتراح مدهش :

- هل يستطيع مشعل أن يؤمّن لنا بضعة شراشف وأغطية وسائد «كانون» من الجمعية بأسعار رخيصة؟ ما رأيك أن تسأله؟

ارتدتْ رُبى ملابسها بسرعة . طلبتْ منه أن يدير ظهره كي لا يرى انحناءات عريها وتفلّتاته وهي تُدخل ساقها في ساق البنطلون أو وهي ترفع ذراعيها أثناء ارتداء بلوزتها ، فيتسطّح ثدياها مع انحشار صدرها في البلوزة أو تنبعج مؤخرتها وهي تعتصرها في البنطلون . لم تكن تحبّ عريها بعد الجنس . وكان يزعجه أنه بعد أن يبرق ويرعد فيها ، ليرويها بغزارة ، تنتفض من السرير راكضة إلى الحمام لتغتسل من دبقها ودبقه على عجل . لكن ما كان يحبه فيها أنها كانت تعطي بكرم وهيام . بالتأكيد كانت تُمتّعه . متّعته وهي حبلى ومتّعته بعدما ولدت ، وإن اضطُرّ أن ينتظر شهرًا كاملاً قبل أن ينشف دم رحمها وتهيئ له جسدها ، وتعيد ترتيب هرموناتها ورغباتها . فاجأته كثيرًا حين استقبلته في رحمها الذي ضاق بسرعة بعد أسابيع من ولادتها ، كما استعادت عضلات عضوها رشاقتها ومطواعيّتها وانشدادها ، لتظل قابضة على شهوته ، تستنطقها حتى آخر كلمة وآخر حرف فيها ، وإن ظل بعد شهور من ولادتها ، يحنُّ دون أن يعرف لماذا ودون أن يصرح لها بذلك ، لوطئها وهي حُبلى ولتمرير شفاهه فوق بطنها الصلب ، حيث السُّرة التي تضخمتْ وتنأتْ للخارج ، مستعذبًا رفس الكائن الغيور في أحشائها وتقلقله ، مدركًا أنه في منافسة كيدية معه . ومع ذلك ، ظل شيء ما ينغص عليه شهوته ، فلم تُلبِّ تمامًا ، ذلك أنها رفضت أن تلقمه ثدييها بعد ولادتها . فحليبها ، بحسب مبدئها غير

المقنع له ، يجب أن يظل لصغيرها . وحلمتاها ، اللتان تشققتا وأدميتا ، باتتا مكرستين بالمطلق لشفتي وليدها اللتين كانتا تمصانهما بضراوة . حينئذ ، أدرك أن الرفاس الصغير هزمه أخيرًا .

تعرّف إليها في المركز الكويتي للأبحاث العلمية والبيئية ، الذي التحق به بعد تخرّجه مترجمًا . كانت سكرتيرة في الإدارة ، تكبره بعامين ، مطلّقة حديثًا وحُبلى . في شهرها الثالث ، كانت تقضي وقتًا طويلاً تحت مكتبها تُكافح غثيانها وتُداري نوبات القيء المباغتة . كان يبلّل المحارم الورقيّة بالماء البارد ويضعها على وجهها المكسوّ بالصُّفرة . في شهرها الرابع ، صارت تعمل حسابه بسندويشات اللبنة بالنعناع الطازج التي تجلبها معها ، يأكلانها في الاستراحة ويتحدّثان في أمور كثيرة . حدّثته عن طليقها الطبيب الذي كان يضربها بالحذاء . في الشهر الخامس بدأ يُضاجعها . استحوذتْ على بصره حلمتاها القاتمتان جدًا ، المتورّمتان جدًا مع الحمل . بطنها وإن كانت استدارتها صغيرة إلا أنها حالت دون أن يباشرها وجهًا لوجه . بعد محاولات عدة ، توصّلا إلى أن أفضل وضعيّة هي أن تنحني بزاوية قائمة ، تسند يديها على حافة السرير ، تعطيه ثغرها من الخلف ، فيأتيها وقوفًا . تطلّقتْ وهي حامل في الشهر الأول ، ولم يكن قد مضى على زواجها عام . بعد طلاقها ، رجعت إلى بيت أهلها . والدها كان يعمل مدرّسًا في التربية منذ عشرين عامًا . كانت تسكن معهم في الفروانية ، لكنها كانت تلتقيه في شقة صديقة لها متزوجة في السالمية ، تفرغها لها في أوقات بعينها . بعد الاجتياح العراقي ، سافرت الصديقة ، فأعطاه وجيه ، شقيق سميح ، مفتاح شقة خاله الذي تركها في عهدته بعدما أخذ متاعًا قليلاً وغادر الكويت .

وجيه أتمّ دراسته في كلية التجارة في جامعة الكويت . ليس معدّله في الثانوية العامة هو ما أدخله الجامعة ، وإنما أحد المقاعد العشرة المخصصة

لمنظمة التحرير الفلسطينية لأسر الشهداء . لم تربطه به صداقة حقيقية ، لكنه أحب مجالسته لأن فيه شيئًا من سميح ، كما أوهم نفسه ، مع أنه لم يكن يشبهه . وجيه هو الآخر لم يجد أي شيء في سميح في داخله ، باعترافه ، وكان يُسرّ له أن أهله ناقمون عليه لأنه لا يرتقي بنفسه وأهدافه في الحياة إلى موت شقيقه الذي وهبه له ، هو الذي لم يطلب موته . قال له إنه مضطر أن يرتدي حياتيْن ، حياته وحياة سميح التي أودعها عنده ، وهو أمر ظل عبئًا عليه لسنوات إلى أن خلع إحدى الحياتين ، وإن لم يعرف أيهما .

تحت الاحتلال العراقي ، احتلّ وجيه بقعة في ساحة في الجابرية أُفردتْ لأغراض البيع والشراء ، فكان يشتري اللحم والخضار التي تحضرها الثلاجات من العراق بالجملة ليبيعها بالمفرق . كان يراعيه في السعر ، حتى في ثمن كروزات سجائر المارلبورو والبيرة المهربة . عند بدء العمليات الحربية الجوية ، كان يتسلّل إلى مواقع البناء غير المكتملة ، يفكك الدعامات الخشبية ، ينشرها قطعًا صغيرة ، ويبيعها حطبًا للوقود في أعقاب توقُّف إمدادات الغاز للمنازل . كان يعطيهم الخشب بالمجان ، ما جعل موقد نعمة الذي نصبته في بلكونة المطبخ لا تخمد ناره ، تخبز عليه الخبز ، وتطبخ «صيّاديّة السمكّ» بالأرز ومعلّبات التونة . بعد عودة الكويت ، لم يعد لوجيه أي بقعة يبيع فيها ويشتري في الجابرية أو في غيرها . حزم شطارته وسافر إلى عمان ، متنقلاً بين مشاريع تجارية متوسطة النجاح ، وفرت له بذلات رسمية وربطات عنق وأحذية أنيقة ومرسيدس «شبح» جعلت مدراء البنوك يستقبلونه عند الباب ، مؤهّلين بالرجل ذي الحقيبة السامسونايت المليئة بدراسات الجدوى ذات الأرقام المحسوبة بالفرجار .

في لقائهما الأخير ، لحسته رُبى بنهم أقلقه ، كأنها تريد أن تأتي عليه كُلّه دفعة واحدة ، فلا تستبقي منه أي مقدار للأيام القادمة . ثم ركبته

بهياج عظيم ، خال بعده أنها قد تموت . قالت له بعدما اغتسلتْ وارتدتْ ملابسها بسرعة إنها سترجع إلى طليقها . فهذا أفضل لها ولطفلها . سيغادران إلى عمّان قبل الحرب ومنها إلى الولايات المتحدة ، فطليقها يحمل الجنسيّة الأميركية . قالت له إنها لا تحتمل فكرة البقاء في الكويت مع بدء الحرب الفعلية . هي لا تعرف معنى الحرب ، كما لم تعشها من قبل . لكن الشيء الذي بدت واثقة منه هو أنّ ما هم فيه الآن ليس حربًا . الناس يشترون ويبيعون وينهبون ويتزوجون ، وينتقلون للإقامة في شقق ليست لهم ، ويتناسلون ، ويتزاورون ، بل إن والدتها تقدم الفاكهة والحلوى والمكسّرات المكلفة لضيوفها . في الحرب لن يفعلوا شيئًا سوى الانتظار ، وحتى الانتظار قد لا يكون متاحًا . حاول أن يثنيها عن قرار رجوعها إلى طليقها . «أحبّك» ، قال لها ، و«سوف نتزوّج حين ينتهي كل شيء .» ركع عند قدميها ، عاريًا لم يزل ، وبكى ، ثم خجل من بكائه الذي جرّده من آخر علامات تماسكه الظاهري . ركعتْ إلى جواره . مسحتْ وجهه بكفّها الأموميّة . صوتها كأنه كان يتدحرج من علوٍّ حاد ، شديد الميلان ، ليهوي على الأرض بقسوة وهي تقول له :

- عندما ينتهي كلّ شيء ، سيكون كلّ شيء قد انتهى .

شعر أن الأمر قد لا يكون انتهى تمامًا ، رغم أنهم أوحوا له أنه قد يكون كذلك ، مبتسمين مُدّعين تلهّيهم عن غده . العيون التي أغلقتْ الباب خلفه ارتدتْ خفافها ، وتبعته من تحت الباب . ركبتْ إلى جواره في سيارة «السيرفيس» من الدوار الأول في جبل عمّان إلى وسط البلد . استشعر نظراتها تهمس له في عنقه . ثم مشتْ إلى جانبه طيلة الطريق التي قطعها سيرًا على قدميه من وسط البلد إلى مجمع السيرفيس في رغدان ، مدعية النظر إلى كل الأشياء ما عداه هو ، ثم التصقت به في سيارة الأجرة ذات السبعة ركاب إلى الزرقاء ، تُمسك بقميصه كي لا

تُطيّرها ريح الطريق ، ومن حين لآخر تقع عينه ، في غفلة من العيون الملتصقة به ، على يافطة بخط غليظ : «أخي المواطن» .

لم تترك له الكنبة الرمادية الضيقة مجالاً ليتحرك في مساحتها بحريّة ، فانحشر فيها ملتزّ الساقين ، متجاور القدمين مقابل الرجال الثلاثة المتفائلين به ، السعيدين كما بدا عليهم بوجوده معهم ، الأنيقين ببذلاتهم الرمادية المتماثلة . أحدهم جلس على مكتب رمادي تغطّى بلوح زجاجي مشعور ، تحته صور أطفال قديمين ، في حين وقف آخر عند باب المكتب نصف المفتوح على يمينه ، ما سمح له برؤية رجال آخرين رماديين كانوا يقطعون الممر الخارجي وينظرون إليه نظرة يُفترض أن لها مغزى ، أما الثالث فكان يجلس على كنبة رمادية إلى يساره ، يعتصر كرة مطاطية بين أصابعه . تصفّح الرجل الجالس على المكتب جواز سفره ، الصادر حديثًا ، قارب بين وجهه المضطرب الماثل أمامه وبين صورته المُنقّحة المسترخية في الجواز ، وضحك قائلاً :

– الوطن له علينا الكثير . . أليس كذلك؟

توقّع أن يكون تجديد جواز سفره إجراءً عاديًا جدًا . انطلق إلى دائرة الجوازات العامة في عمان أول ما طلع الصباح . كانت قد مضتْ ستة شهور على استيطانه الزرقاء . في ذاك الصباح ، كاد يُصدّق وهو يشتم رائحة مناقيش الزعتر تغادر باحة أحد البيوت إلى الحي الذي كان يمتلئ بالحياة ، أن الحياة اليومية كما تفرض شروط بؤسها تفرض دواعي سلاستها . أوراقه كاملة . بياناته صحيحة . «تستطيع أن تراجعنا لاستلام جواز سفرك الجديد في الثانية ظهرًا .» قال له الموظف الذي ختم أوراقه دون أن يعاين وجهه . كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا . اشترى صحيفة واحتلّ طاولة في مقهى «دبلومات» على الدوّار الأول ، يحتال على الساعات الثلاث المتبقية بالبيرة .

في الباحة الخلفية لدائرة الجوازات، عند نافذة الاستلام، تلقّف جمع الانتظار الطويل جوازاتهم، دون أن يخفي بعضهم الأشد قلقًا فرحتهم ببراهين هويتهم التي هطلتْ عليهم من النافذة المُقضّبة بعد تباطؤ. بضعة أشخاص ظلّوا ينتظرون أن يُنادى على أسمائهم، هو أحدهم. اقتربت الساعة من الثالثة. سُدّتْ النافذة من وراء قضبانها المانعة. كان يجلس على مقعد خشبي متآكل شبيه بمقاعد الحدائق المهجورة يتأمل ساعته، ثم يتأمل النافذة التي قد تفتح في أية لحظة سحرية لتُفرح من تبقى من البشر. تقدم نحوه رجل ببذلة رمادية، كان يعلك، وكان يلعب بكرة مطاطية بين أصابع يده اليمنى، سأله عن اسمه ثم عصر الكرة في قبضته وطلب منه أن يتبعه.

تعجّب كثيرًا، دون أن يعبر لهم عن بالغ عجبه، لأن الوطن أعطاه أشياء كثيرة، كما شرح له الرجل الأرفع مرتبة، وهو ما خمّنه من الحقيقة أنه هو الذي تولّى الحديث، بينما التزم شريكاه الرماديان الصمت. وعجبه زاد لأنه كان يفترض أن يخمّن بنفسه هبات الوطن، لكنه سمعها بدلاً من ذلك من الآخر، من بين هذه الهبات أنه آواه، مع أنه لم يلده، حين رماه الوطن الآخر. خاله يتحدّث عن فلسطين، لكنه اكتشف أنه كان يقصد الكويت، ثم اكتشف أن لا فرق جوهريًا.

فجأة، تحولّتْ مغناة الوطن العاطفية المنسابة بكلّ رقّة على لسان الرجل إلى صرخة سخط. حدّثه عن أعداء الوطن اللئام الذين يتربصون به:

- هؤلاء الأعداء بيننا. نعتقد بأنهم مثلنا، لكنهم ليسوا مثلنا يتكلّمون عن الوطن كأنهم غيورون على مصالحه أكثر منا بينما هم في حقيقة الأمر حاقدون.

من طريقة كلامه معه افترض أن الآخر يفترض سلفًا أنه منهم.

واصل الرجل التعبير عن غضبه باللغة ذاتها التي استهدفته مباشرة ، فخال نفسه أنه يمكن جدًا ، بحسب ما تشير إليه أصابع الآخر المسددة نحوه ، أن يكون عدوًا :

- إنهم جاحدون ، حاقدون ، يضمرون للوطن ، الذي أعطاهم الأرض والهوية والأمن ، شرًا ودمارًا .

لوّح له بجواز سفره في الهواء ، ثم وضع الجواز على المكتب ، إلى جهته ، قبل أن يدفعه بأصابعه ببطء نحوه . طلب منه أن يحمله . نظر إلى الرجل الآخر الواقف عند الباب نصف المفتوح ، ثم نظر إلى الثالث يعتصر الكرة بوتيرة أشد قسوة . تردد ، فأكد عليه الرجل الأعلى منزلة أنه يستطيع أن يأخذ جوازه ويمضي . قبض على جوازه بيديه ، غير مصدق تمامًا . نهض من على الكنبة الضيّقة ، نافضًا تصلّب جسده . ابتعد الرجل الآخر عن الباب ، ولكن ليس كثيرًا ، ففشل في تجنّب الاحتكاك به أثناء خروجه . نادى عليه الرجل من خلف المكتب مرة أخيرة ، فسدّ الرجل الواقف عند الباب عليه طريق الخروج بذراعه .

قال له إنه يستطيع أن يساعدهم في إحباط نوايا أعداء الوطن الشريرة بفضح مخططاتهم . هم موجودون حوله ، لن يتعب في البحث عنهم ، ولن يتيه عن أفعالهم وأقوالهم الشائنة ، وقد يُفاجأ بهم يأتون إليه قبل أن يمضي نحوهم ، يخاطبونه قبل أن يخاطبهم ، يحاولون أن يستميلوه إليهم ، فيجد نفسه قد أصبح منهم .. لا منهم .

قال له إنه يستطيع أن يفكر جيدًا ، يستطيع أن يفكر ما دام له التفكير ، وسوف ينتظرون جوابه .

(٨)

إياد أبو سعد

تزوّج فاديا بعد ثماني سنوات من صمته على مشاعره نحوها . كان يتصوّر أنها تحبّه أو تستطيع أن تحبّه ، أو على الأقلّ لديها نحوه مشاعر مريحة من نوع ما ، لكن مشاعرها نحوه ، وإن هدهدته في مياهها الضحلة الآمنة ، لم تكن كافية كي تسحبه إلى عرض محيطها . لم تشجعّه ليخطو خطوة إلى الأمام فتتبعها هي بخطوة مماثلة ، كما لم تكن واضحة وصريحة من جانبها ، لتقول له بتبطين في الإحساس لا لُبس فيه بأن «هيّا . . ما بك تنتظر؟ تقدّم!» لقد كانت من النوع الذي يُحَبُّ ، لا الذي يُحِبّ . وأن يحبّها أحدهم هو شأن يقينًا قاطعًا لم تطلبه ، لم تسع وراءه ، لم تستدرجه ، لم تستمله ، لم تستمرئ هواه متمنّعة ، وبالتالي هو شأن لا يعنيها ولا يتعيّن عليها أن تقيم له وزنًا أو تضعه في اعتبارها ، مظهرة تقديرًا أو تفهّمًا ، أو حتى إشفاقًا ، دون أنْ يعني ذلك أنّ في شخصيتها ما يوحي بنيّة ساديّة لاشعورية في استنهاض عذابات الآخرين واستنطاق مرارات رغباتهم المجهضة . كلّ ما في الأمر أن في شخصيّتها لم يكن ثمة حبّ عنيف أو حبّ جليّ أو حبّ على غرار حبّ القصص الخلاّق .

تعرّف إلى فاديا من خلال شقيقها مازن ، «الثوري الأنيق» ، كما يصفه الرفاق ، زميله في قسم العلوم السياسية في الجامعة الأردنية ،

وصديقه ، وصائغ وعيه السياسي . كان يتدافع يائسًا مع عشرات الطلبة للتسجيل في الشعبة الوحيدة المفتوحة لمبادئ علم الاجتماع حين تقدم من خلفه شاب ، خطف من يده جدول المواد ، وأعطاه بثقة للمسجل «أبو عرب» ، كما دعاه بلهجة من يعرفه ويعرف دواه ، ليسجله «أبو عرب» في الشعبة ويطبع ختم التسجيل على جدوله ، مذكرًا الشاب الواثق ذا الابتسامة التي كشفت أسنانًا معتنى بها جيدًا بوعده في تعيين ابنه العاطل عن العمل منذ ثلاث سنوات في أحد مصانع والده . «مازن الناطور» قدّم نفسه له ، وقبل أن يفتح فمه مستفسرًا ، قال له : «نعم . . والدي عوني الناطور ، صاحب مصانع الناطور للشوكولاته .» ثم همس في أذنه ضاحكًا : «بيني وبينك . . أنا لا أحبّ شوكولاته الناطورا» تأمل جدول مواده وقال : «بعد مبادئ علم الاجتماع ، عليك بمبادئ الفلسفة .»

عرّفه هو الآخر بنفسه ، ثم سار معه ، بناء على اقتراحه ، إلى الحديقة الخلفية لمكتبة الجامعة . هناك التقى أربعة من الرفاق ، من كليات وأقسام مختلفة ، تعاملوا معه كأنهم يعرفونه ، الأمر الذي عزز استغرابه من الألفة السريعة التي تطورّت بينه وبين مازن ثم بينه وبين رفاق مازن ، ومن ثم بينه وبين رفاق الرفاق والرفيقات . في لقاءاته القليلة معهم بعد ذلك ، بدوا كأنهم اتفقوا معه على كل شيء ، مفترضين أنه معهم . لكنه لم يكن واثقًا أنه معهم أو يريد أن يكون معهم ، وهو ما أسرّ به إلى مازن قبل أن يسأله :

- ما الذي جعلك تعتقد أنني يمكن أن أكون معكم؟
- أنا لا أعتقد شيئًا ، ولا أجزم بشيء ، لكن لنقل إنه حدس .
- وهل يصيب حدسك؟
- في معظم الأحيان . . نعم .

بعد تردّد ، حسم أمره . بدا له التنظيم المقترح خيارًا أمثل ؛ فهم ، من خلال مازن ورفاقه ، سعوا إليه . كان قد أمضى الفصل الأول في الجامعة

يفتش عن طريقه الذي يعرفه، مع أنه لم يمش فيه من قبل، لكنه رسمه في رأسه، من شعارات بعيدة ظلّتْ رنّتها صافية لسنوات وسنوات في خيال لم تخنه تحوّلات الحقيقة. ازدحمتْ في رأسه أسماء التنظيمات الكثيرة والأهداف العظمى لها، وكلها في النهاية تصب في فلسطين واحدة، لكن تنظيم مازن ورفاقه كان الأنشط جامعيًا، من بين تنظيمات سرية كثيرة، الأوضح حضورًا، الأعلى صوتًا، الأكثر عددًا، الأوفر حظوظًا في انتخابات الجمعيات الطلابية، ثم اكتشف بعد سنوات أنه كان الأكثر تجميعًا للبشر من فئة «عِدّي رجالك عِدّي..»، وكنسهم إليها من تحت عتبتها المتدنية جدًا، ومن ثم الأكثر اختراقًا أمنيًا، ليسير في التظاهرات والاعتصامات السياسية الأتباع والمريدون المؤمنون بالتنظيم يدًا بيد مع المخبرين وكتبة التقارير الأمنية، من أبناء التنظيم أيضًا الذين كانُ يُفترض أنهم أتباع ومريدون مؤمنون ومخلصون، وفي النهاية كان عليه أن يدفع الثمن، كما دفعه المئات من الأتباع والمريدين المجاهرين بإيمانهم وإخلاصهم.

خلال وقت يسير، تعيّن عليه أن يلحق بمن سبقوه في فهم آليات الثورة. أشرف مازن بنفسه على تثقيفه، فأعطاه مقالات ودراسات وفصولاً سبق نسخها مرات عديدة على آلات تصوير مستهلكة عن أدبيات التنظيم. قرأ «المانفيستو» دون أن يشعر بثقل الأفكار، لكنه فوجئ بحجم الفصول التي يتعين عليه أن يقرأها من «رأس المال» ومن «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي»، ثم أعطاه مازن ملخصات عنها. وقف مرتبكًا أمام مصطلحات مثل المادية الجدلّية والمادية التاريخية وعلاقات الإنتاج، والاتجاه التاريخي للتراكم الرأسمالي والصراع الطبقي، وتكتيك نضال البروليتاريا الثوري. لم يعرف كيف يوفّق بينها. لم يعرف كيف يستثمرها في الثورة أو لنفسه. المشكلة أنه لم يفهمها تمامًا. لكن مازن كان رحيمًا

به ، فكان يجلس معه بالساعات ، يشرح له بكلمات جدّ مفهومة ومقنعة كيف أن المجتمع البرجوازي الحديث ، الذي خرج من المجتمع الإقطاعي المحتضر والمتآكل ، قد خلق ظروفًا جديدة للاضطهاد والقمع وبالتالي أوجد أشكالاً نضالية مستجدة ، مبشّرًا بما بشّر به ماركس أن تناقضات النظام الرأسمالي ستقود حتمًا إلى زوال الرأسمالية ، ليتحول المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع اشتراكي . و«هكذا يا رفاق سوف تُحلّ كل مشاكلنا .» فرح بفهمه الجديد وفرح أكثر بأسماء جميلة مثل ماركس وأنجلز وهيغل وتروتسكي وغرامشي ولوكاتش ، تجعل طالبات الجامعة مبهورات بثقافة من تجري على لسانه بمناسبة ودون مناسبة .

اجتماعات الرفاق كانت تتمّ في الغالب في بيت مازن في الشميساني ، رغم استياء والد مازن الصريح ، إذ كان يطرق عليهم الباب في الصالون ، فينسحب مازن لدقيقة ، يراقبون ظلّي الولد والوالد يتعاركان على زجاج الباب العريض المغبش ، ثم ينضم مازن إلى المجموعة بوجه مبتسم لم يلحق به أي كدر . يشتدّ صياح الرفاق ويوشك بعضهم أن يضرب الآخر ، فيهرب ذهنه في أثناء ذلك من المصطلحات والتعريفات والصفحات المكتظة بالرؤى والأفكار ، التي ستنقذ البشرية أولاً ثم فلسطين ، يغرق بصره في تأمّل الصالون ، حيث طقم الكنب البنيّ الفخم ، كثير القطع ، ذو الخشب المُذّهب والرسوم النافرة على قماشة المقاعد والمساند ، وطقم الطربيزات ذات الأرجل المعدنية العريضة المزخرفة ببذخ ، والأسطح المفروشة بألواح الرخام البيج ، واللوحات الممتدّة على طول الجدران وعرضها ، والتحف العملاقة في الزوايا التي أقيمت لها قواعد لتقف عليها .

ثم يعيده علي قاسم إلى المجموعة ، التي لم تتفق بعد على آليات تغيير العالم ، بصوته الذي يكاد ينفرط معه جسده الضئيل ، كما انفرطتْ

ثنية بنطلونه من الأسفل وتكرّس الانفراط في جيب قميصه الهالك .
يقف علي بوجهه المعروق الغاضب ، ماطًا قامته القصيرة إلى أقصى ما قد تصل إليه ، مسددًا إصبعه الذي ينتهي بظفر مصفرّ ، من أثر تدخين السجائر الرخيصة ، في وجه مازن يتّهمه بأنه «برجوازي صغير» ، وأنه بانضمامه إليهم لا يتنكر لطبقته وإنما يسعى لاختراق البروليتاريا ، التي يمثّلها هو ، ليعرف مواضع ضربها في مقتل . وحين تدخل عليهم فاديا بصينية الشاي وعشاء خفيف من الساندويشات ، تتراجع الأصوات ويخفت ضجيج التصوّرات الكبرى ، وتتعلّق الأعين بالجسد الخفيف الهشّ الذي كأنه مخلوق من هواء . ويحتاجون إلى وقت ليس بالقصير قبل أن يستعيدوا حياتهم ما قبل وطء صورة فاديا في أبصارهم ، إذ تظل عيونهم شاخصة باتجاهها ، يتابعونها تجلس ، تسمع ، أو لا تسمع ، ولا تتكلم . عند انفضاض المجموعة ، يرافق مازن علي إلى الباب ، يضع ذراعه على كتفه ، ثم يدسّ في جيب بنطلونه ورقة نقديّة ملفوفة . كان عليّ يسكن في مخيم الوحدات ، و«لن تجد سرفيسًا في هذا الوقت المتأخر» ، يقول له مازن بحنان . يضع عليّ يده في جيبه لكن مازن يضغط عليها كي لا يُرجع له الفلوس ، فلا يقاوم عليّ طويلاً ، ويهزّ رأسه بامتنان .

في طريق عودته إلى بيته في الجوفة ، يُحاول أن يستعيد تفاصيل النقاشات الكثيرة التي دارت في الجلسة . بضع جُمَل مألوفة ومكرّرة يرنّ صوتها في رأسه الذي يضيق يومًا بعد يوم عن استيعاب المقولات العظيمة . للآن ، لم يجد مخرجًا من حالة السرحان التي تأتي عليه ، فيكون معهم وهو ليس معهم . ويكون قد حضر وتحضّر بنيّة الاستماع والتدبّر في ما يقولون وفي ما يجب أن يشاركهم بقوله ، لكن ما إن تعلو أصواتهم وتتداخل حتى يشعر بدوار في رأسه وبماء غزير يتدفّق في أذنيه فيصدّ أصواتهم الكثيرة المزعجة عنهما . بعد وقت ، درّب نفسه كي

يشاركهم الكلام دون أن يسمعهم، وقد يتجرأ فيقاطعهم وبحماسة شخص ذي أفكار وثّابة مستعدّة لدحض أفكار الآخرين بجاهزية حاضرة دائمًا.
طلب مازن منه أن يلخّص له أبرز نتائج الاجتماع كي ينطلقوا منها في اجتماعهم القادم. أغمض عينيه معتصرًا الصور المسموعة في ذهنه فلم يرَ سوى وجه فاديا واضح الخطوط، سهل الاستيعاب، بعينيها الزرقاوين وشعرها الأشقر الذي ورثته عن جدتها الشركسيّة. تذكّرها حين دخلتْ عليهم أول مرة بالعصير، ثم حين غادرتْ، ثم حين رجعتْ، ثم حين غادرتْ مرة ثالثة، ثم حين رجعتْ بصينية الشاي، ثم حين جلستْ ورفعتْ وجهها إلى الأعلى عينها على سقف الغرفة، ثم حين غادرتْ، غابت مطولاً قبل أن ترجع أخيرًا بالقهوة. لم تكن معهم، كما لم تكن مع أي جهة أخرى. كانت تدرس علم النفس في السنة الأولى. قد تنضمّ إليهم في جلساتهم في الحديقة الخلفية لمكتبة الجامعة أو في الكافتيريا دون أن تشاركهم نقاشاتهم حتى العادية منها. مع الوقت، تضخمتْ المجموعة. انضم إليهم رفاق جدد، وبدأت الرفيقات يترددن على الاجتماعات في بيت مازن، يتحدثن ويصحِن ويكلن الاتهامات ويقاطعن الجميع بغضب، ويأكلن الساندويشات بنهم يفوق نهم الرفاق. ظلّتْ فاديا تستمع، تتحرك بين الصياح وضجيج الآراء كهواء يميل دون أن يتكسّر.
لكنه، مع الوقت أيضًا، بدا له النضال أصعب مما أعدّ له في فكره. الطريق إلى فلسطين لم تعد تبدو قصيرة، كما لم يعد ممكنًا السير في خط مستقيم لتحريرها. عليه أن يتغيّر، وعلى المجتمع أن يتغيّر ثم الدولة، ممثلةً بنظامها الحاكم، فالدول، من خلال أنظمتها الحاكمة، فالعالم، فالله، وأخيرًا، بعد مسيرة طويلة متعرّجة، تتحرّر فلسطين. لم يكن يتخيّل أنّ عليه أن يحارب أعداء كثيرين كي يصل إلى فلسطين. في طفولته، كانت فلسطين قريبة جدًا، وكان العدوّ واضحًا، دون أن يحتاج إلى نقاشات

وتحليلات كثيرة كي يميّزه . الأشياء كانت تفصلها خطوط داكنة وسميكة ، لم تكن ثمة خطوط متقطّعة أو مائلة أو مظلّلة تسمح بترشُّح الرؤى والمبادئ في ما بينها ، وتبعًا عليه ، لا شيء تداخل مع الآخر . قبل أيلول الأسود ، كان العالم كله مختصرًا في الفدائي ، وفلسطين كانت على امتداد الذراع . بعد أيلول ، رحل الفدائي وبعدت فلسطين ، لكنها لم تبعد كثيرًا . لطالما غصّ الشارع الذي يُطلّ عليه بيتهم في الجوفة بصياحه وصياح رفاق المدرسة وهم يلعبون «طخّ» . كانوا ينقسمون إلى فريقيْن ؛ الفدائيين والجنود الإسرائيليين ، يتبادلون إطلاق الرصاص بمسدسات بلاستيكية وأخرى خشبية منتزعة من ألواح صناديق الخضار . لا أحد كان يريد أن يكون جنديًا إسرائيليًا ، وكان الفدائيون يكبّدون الإسرائيليين خسائر مؤلمة . بعد أيلول ، ظلّوا يلعبون «الطخّ» ، بصياح أقل ، وكانوا ينقسمون إلى فريقيْن ؛ الفدائيين والجيش الأردني .

في النهارات التي تثاءب فيها الانتظار ، كان الناس ما إن يستمرئوا الرحيل ساعة أو بضع ساعة حتى تدفعهم أغاني المقاومة المتدفّقة عبر «إذاعة صوت فلسطين» من القاهرة للاستغفار من الغفلة ، لتُسمّي عليهم بـ«الله» ، ثم بـ«الفتح» ثم بـ«الثورة الشعبية» . تهتزّ ضلفات النوافذ المهلهلة في البيوت المتلاصقة على «يا شعبنا هِزّ البارود يا شعبنا ، سَمِّع الدنيا صوت رصاصنا ، قسمًا ما نرمي سلاحنا من يدّنا ، إلا بعد ما نحرّرك يا أرضنا .» ويعلو صوته ، الذي يشقّ شرنقة الأيام شقًا ليكبر بسرعة ، مع أصوات الصّحب في طريق عودتهم من مدرسة الوكالة القريبة في الجوفة على «ثُوري ثُوري يا جماهير الأرض المحتلة ، ثورتنا انطلقتْ قيدي من دمك الشّعلة .» ومهما يكن ، «آمنتُ بالشعب المضيع والمكبّل ، وحملتُ رشاشي لتحمل بعدنا الأجيال منجل .» ومع انقضاء يوم آخر على الاحتلال ، تبعد فيه فلسطين يومًا آخر ، يظل صامدًا ، و«بأرض بلادي أنا

صامد ، وان سرقوا زادي أنا صامد ، وان هدموا بيتي أنا صامد» ، تفتّ طلعة جبل الجوفة ، بحقيبة المدرسة الثقيلة التي تتدلّى من كتفه ، في ساقيه النحيلتين لكنها لا تهزم صموده ، «بعزمي وإيماني أنا صامد ، بظفري وأسناني أنا صامد ، وان زادت في جسمي جروحي ، بجروحي ودمي أنا صامد .»

ظنّ أن فلسطين ظلّتْ ، رغم البعد ، قريبة في الجامعة مع مازن والرفاق الصامدين المؤمنين بحق ، حاملي الرشاشات في قلوبهم ، لكنه لم يمض كثير وهْم قبل أنْ يرى أنّ كل واحد منهم كان يحمل منجله الخاص ، بحوافه الماضية التي تجزّ الآخر بلا رأفة . مازن ربما كان الأرقّ قلبًا ، والأكثر إيناسًا إلى روحه . غالبًا ما يترك منجله في الكتب ، وفي لقاءاتهما الثنائية التي بات مع الوقت يتطلّع إليها أكثر من اجتماعات الرفاق ، يكون لطيفًا على غير العادة ، ليّن الفكر واللّسان ، متخفّفًا من صرامة المصطلحات الحزبية ، خفيفًا ، مرحًا ، هفهافًا ، عاشقًا لمتع كثيرة ، هو الذي أذاقه دم المسيح الغالي من خزانة والده المقفلة للمشروبات ، وأوقعه على كنز موسيقي سيرافق حواسه لسنوات طويلة لاحقًا .

فإذ دارتْ إبرة «الفونوغراف» فوق الاسطوانات الداكنة ، قاده مازن من يده إلى تشايكوفسكي وبيتهوفن وموتسارت وشتراوس وشوبير وفاغنر وبيسيه وأسماء كثيرة أحدثتْ وقعًا مهيبًا في سمعه . أسره هذا العالم المكلِف ، الذي لم يتمكن من تأمينه في أشرطة تسجيل عادية . لكن مازن فتح له صالون بيتهم فيزوره ، حتى في غيابه ، كلّما عنّ له أن يستمع إلى ما باتت موسيقاه . أدمن السيمفونية التاسعة لبيتهوفن و«كارمن» بيسيه ، والسيمفونية الأربعين لموتسارت ، متوقفًا عند مقطع الـ«مولتو أليغرو» ، مستعرضًا ثقافته الموسيقية الجديدة ، التي لم تزل في مراحلها الهزيلة ، أمام الزملاء والزميلات ، رفاقًا وغير رفاق ، ممّن لم يتسن لهم دخول هذا العالم

المترف متباهيًا ، دون حضور مازن ، باكتشافه أن اللحن الجذِل لأغنية فيروز «يا أنا يا أنا» هي المولتو أليغرو . لكن الاكتشاف الأعظم بالنسبة له كانت «كارمينا بورانا» لكارل أورف . شحنتْ مقدمتها «أيها القدر» روحه مئات المرات ، ولم تبْدُ له مع التكرار أنها قادرة على تجاوز تأثيرها الأولي بالدهشة . بمساعدة مازن ، حفظ بعض مقاطع منها . نسخ الأحرف اللاتينية صوتيًا باللغة العربية . في مساءاته الوحيدة في غرفته الصغيرة كان صوته ينطلق بالكلمات الغريبة ، هامسًا ، موشوشًا ، «سوْرْس إيمانيس . . إِتْ إينانيس» ، مستطعمًا البديع الصوتي في اللفظة والمفردة ، قبل أن يرتفع صوته سِنًا ، «ستاتوسْ مالوسْ . . فانا سالوسْ» ، مفتونًا بالإيقاع السّلس المطواع ، ليرتقي درجةً أعلى في الشعور ، «سوْرْسْ سالوتيسْ . . إِتْ فيرتوتيسْ» ، ثم ليصعد أعلى فأعلى ، «هاكِنْ هورا . . سِنِي مورا» ، مزهوًا بلسانه الذي اعتاد بيُسر على لغة عصي عليه معناها دون أن يعصى عليه إحساسها .

شاركته فاديا بعض جلسات الاستماع الموسيقية ، فاقدًا في حضرتها القدرة على تمييز مقطوعة من غيرها ، مستمعًا معظم الوقت لسيمفونيّة حفيف جسدها إذ تنهض لتبديل الاسطوانات برشاقة الخبيرة . ترتفع ذراعها شبه العارية في الهواء بخفة ، فيقرع إيقاع وجودها ، رغم هشاشته وضعف تفاعله مع ذاته ومع الغير ، بدويٍّ عنيف في روحه . جزء من فتنتها كمن في شحوبها ، وهو ليس شحوبًا مرضيًا ، تمامًا ، وإنّما شحوب من اختارت أن تسير بمحاذاة الحياة الصعبة ، بأقلّ قدر لازم من الاحتكاك بها ، فتظلّ على حافتها دون أن تجرؤ أن تتوغّل فيها أو تسمح لشتى ألوانها بالانعكاس على بشرتها الفاهية . للآن ، لا تزال تسير على حافة الحياة محاذرةً ألا تقع فيها .

مقابل وجهها القانع باليسير اليسير من اللون والحياة ، يستحضر وجه

أمّه الضاج بالورود حتى في أيام اشتداد المرض عليها، وهي من كثرتها حتى استحالت الحياة السائدة أو الطبيعية . كانت أمه عايدة، بذراعيها الحاسرتين الممتلئتيْن لحمًا مشدودًا واحمرارًا خفيفًا كارتداد لبياضها السخي، فاتنة في سرير المرض، بقمصان نوم قطنيّة بيضاء كريميّة وزرقاء سماويّة وخضراء ريحانيّة وصفراء ليمونيّة، وحمراء كخصور الدرّاق التي تنهنهتْ من الاستواء، مقطوفة من حبل الغسيل حديثًا، تفوح من شعرها الأسود المستلقي بتكاسل على كتف الوسادة رائحة الصابون النابلسي . كان في الرابعة من عمره حين وعى عليها تنام أكثر مما تقوم، تعيش في المستشفى أكثر مما تعيش في البيت، ووعى على عمّته صفيّة التي تخطاها النصيب تغسل لها قمصان نومها وتفردها بعناية على حبال الغسيل في الحوش، تكويها بيدها فلا تتغضن حتى حين تقبض الشمس عليها بقوة، كما وعى على والده مصطفى، المعلّم في مدرسة الجوفة، ينهض في ليال كثيرة يبكيها معتقدًا أن أحدًا لا يراه ويسمعه، وفي نهارات المرض الطويلة يحملها على ظهره إلى الحمام، ساندًا مؤخرتها بيديه بينما تطوق عنقه بذراعيها . في بعض النهارات النادرة، التي يتغاضى المرض عنها، يحملها على ظهره، يدور بها في الحوش وبين الغرف، مناديًا : «كاز . . كاز»، فيغمر ضحكها الفضاء . وكان هو يحبّ تلك النهارات، لأن دوره كان سيأتي لاحقًا . كان يشعر بأنه يطير على ظهر والده، بينما يصرخ الأخير : «كاز . . كاز»، دون أن تفوته متابعة وجه أمه المبتهج إذ تسكنه الحياة فجأة .

في المرة الأخيرة التي دخلتْ فيها المستشفى غابت ثلاثة أسابيع، قبل أن تعود إلى البيت لتعيش ليلتها الأخيرة في عمرها الموجز في غرفتها . اغتسلتْ، مشّطتْ شعرها وتركته حُرًا خلف ظهرها، وارتدتْ قميص نومها الدرّاقي . تمدّدتْ فوق سريرها، سعيدة بالشرشف الأبيض

المنقوش بورود الجوري المتفتّحة ، والمشدود فوق الفرشة بالتساوي من جميع الأطراف ، تمامًا كما تحب ، وكما تحرص صفية أن توضّبه لها . نادتْ على صفيّة . خلعتْ سواري الثعبان اللذين لم يغادرا معصمها منذ يوم عرسها ، أعطتهما لها وأوصتها على وحيدها . تقطّع بكاء صفيّة بالشهيق . حاولت أن تردّ لها سواريها ، لكن عايدة دفعتهما إلى صدرها . غطّى مصطفى وجهه كي لا ترى دموعه ، لكنها أخذت كفيه في كفيها وقبّلتهما ثم رجته أن يحضر لها فلافل . كانت تحب الفلافل من عند عزمي ، تطيش في زيت الصاج الحار خارج باب محله القريب ، فتعبئ رائحة قليها الجوّ . في الشهور الأخيرة ، لم تعد تستطيع أن تأكل فلافل عزمي ، كما لم تعد تأكل أشياء كثيرة تشتهيها .

بدأت تقصّ عليه حكاية بنت السلطان وابن الحطاب الذي شفاها من مرض حار في أمره حكماء الشرق والغرب ، فتزوجها رغم محاولة السلطان التنصّل من وعده له بتزويجها ، قاطعًا سبعة جبال وسبعة وديان وسبعة بحار وسبع صحاري ، ليحضر لها رأس الساحرة الشريرة التي كانت السبب في مرضها . في كل ليلة كان ينتظر صوتها الدافئ ينسج خياله بـ«كان يا ما كان . . يا سامعي الكلام .» كثيرًا ما كان الانتظار يخذله ، تكون متعبة ، شبه ميتة في الحياة المطفأة على السرير ، فلا يشتعل صوتها ولا تُنير الحكاية في خياله الطري . في كلّ مرة ترويها ، لم تكن حكايتها لتنقص كلمة أو تزيد ، لكنها تظلّ مع ذلك طازجة ، تطوي الإثارة إياها ، فيعرف أن النهاية السعيدة سوف تتحقق ، لكن ثمّة قلقًا كثيرًا وصعابًا أكثر وشرًا أعظم قبل أن ينتصر ابن الحطاب المتيّم بالجميلة المريضة على الساحرة . قطعتْ عايدة مع ابن الحطاب الجبال السبعة ، وقبل أن تمضي في اجتياز الوديان السبعة توقفتْ عن الكلام .

أغلق مصطفى على نفسه الباكية في الغرفة ، ممدّدًا على سريرهما

الزوجي بملابسه دون اغتسال ، يحضن قميصها الدراقيّ ، يرفض الطعام والشراب اللذين تضعهما صفية في فمه ، ترجوه أن يعيش من أجل ولده . بعد شهر ، سحبه رجالات الحيّ من بيته ، جراً ، إلى صلاة الجمعة في الجامع . جلس في باحة الجامع ، ساندًا رأسه الثقيل على كتفه ، دون أن يشاركهم صلاتهم . دخل سمعه صدى جمل متناثرة من خطبة الإمام . أمّة الإسلام كانت تمضي ، على ما فهم ، في طريق الهاوية بعدما تخلّتْ عن رسالتها واستسلمتْ لغرور الحياة . بعد انتهاء الصلاة ، تقدّم منه الحاج علاّم ، سادن الجامع الذي يؤمّ في المصلين في بعض الصلوات ، بدشداشته البيضاء ولحيته الفضية وجلس بجانبه . وضع يده البيضاء الطرية ، المكتنزة بالرطوبة من الاغتسال اليومي ، على كتفه وقال :

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ ونَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلَيْنَا تُرْجَعُون .﴾

استوى مصطفى في جلسته ورفع نحوه عينيه المحمَرّتيْن قائلاً :

- لم تأكل الفلافل التي جلبتُها لها من عند عزمي .

- ﴿الَّذينَ صَبروُا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون .﴾

- لا أعرف ماذا أفعل .

- ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إلى اللهِ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَاد .﴾

- كيف أستطيع أن أعيش؟

- ﴿رَبَّنَا آتِنَا من لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنا رَشَدًا .﴾

- لا حياة بعدها .

- ﴿أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلين .﴾

- لم أحبّ أحدًا في الوجود قدر ما أحببتُها .

- ﴿والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله .﴾

ثم أمسك الحاج علاّم كفّيْ مصطفى وطلب منه أن يردّد الدعاء التالي

وراءه : «هَبْني اللّهم الصبرَ والقدرةَ لأرضى بما ليس منه بدٌّ ، وهَبْني اللّهم الشجاعةَ والقوةَ لأغيّر ما تقوى على تغييره يد ، وهَبْني اللّهم السدادَ والحكمةَ لأميّز بين هذا وذاك .» مسح على رأسه عدة مرات ثم عانق انكفاءته بنظرة حانية قبل أن يقول له : «تزوَّجْ!» نفض مصطفى رأسه باستنكار :

- هل تتخيّل أنّني يمكن أن أتزوّج بعد عايدة؟

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ . .﴾

بعد ستّة شهور تزوّج . رضيتْ رباب ، الصبية ذات التسعة عشر عامًا ، أن تسكن في بيت عايدة وفي غرفة نوم عايدة وعلى فراشها ، لكنها طلبتْ منه ليلة الدخلة فقط أن يرفع صورة عايدة ، في فستان عرسها ، من على الحائط فوق مرآة التسريحة قبالتها ، إذ إنها تستحي من نظراتها المعاتبة ، كما قالت له . فرفعها . أعطته جسدها البكر . بخبرة غريزية كأنها تفتّحت في مداركها فجأة ، تشكّل جسدها في انحناءة العطاء دون تمنّع لا قيمة له ، فأخذها بنهم . في اليوم الثاني ، أدارتْ له رباب ظهرها . قالت له إن عيني عايدة تعاتبانها بقسوة أكبر . خمسة أيام ، تستحمّ وتتعطّر ، ترتدي قميص نوم يفوح بالجدّة واللذة المتوقَّعَة وتدير له ظهرها ، رافعة إحدى ساقيها ، كاشفة عن فخذ ريّانة ، وبطّة بضّة ، بلحم طريّ شفاف يسيل كالقَطْر عند كاحلها ذي النتوء الناعم مستقرًا عند قدم صغيرة مقوسة ، ذات كعب محمرّ ملمَّع بالجليسرين .

في اليوم السادس ، رفع صورة عايدة فأطعمته رباب جسدها ، ألقمته له لقمةً لقمة ، ثم جعلته يزدرده مرة واحدة . بعدما شبع ، بكى ، ثم نام . غادر غرفته في الفجر . كانت صفيّة في الحوش تفرك أرطال الملوخية المتروكة لتجفّ منذ أسبوع ، تُقلّبها من وقت لآخر ، كي لا يلحق بها رطوبة أو عفونة . قالت له ، دون أن تنظر في وجهه ، ألا شيء يعادل الملوخية

الطازجة ، «لكن هذه حال المواسم» ، وقد أزاحتْ وجهها في نصف استدارة كي لا تتنشّق غبار الملوخية الناشفة أثناء سحقها بيديها . قال لها مصطفى إنه لم يحب امرأة قدر ما أحب عايدة ، لكن عايدة تركته . انحدرتْ دموع صفية في سيل متّصل دون أن يثنيها البكاء عن مواصلة فرك الأوراق الجافة التي كانت تُسحَق بقسوة بين يديها . قالت له إنها يجب أن تنتهي منها قبل طلوع الشمس . لكن بكاءها كان من الغزارة بحيث أعماها عن انتشال بعض الأعواد في الكومة المجففة . توقفت عن الفرك . سألته ما إذا كانت رباب تُمتّعه . هز رأسه بخجل علامة الإيجاب . كانت صفية تكبر مصطفى بعامين . من بين أشقائها الثلاثة المتزوجين آثرت بعد وفاة والديها أن تسكن عنده ، لا لأنها كانت تحبه أكثرهم ، بل لأنها كانت تحب عايدة . ومع المرض الذي استوطن جسد عايدة ، بات وجودها ملِحًا . تخفّف وجهها من كدره قائلة : «فلتعجّل رباب إذن بإنجاب شقيق لوحيدك .» ثم عادت إلى كومة الملوخية ، «إن شاء الله يكون موسم الملوخية القادم أفضل .»

لم ترجع صورة عايدة إلى الحائط وانزوتْ عيناها المعاتبتان في أحد أدراج الخزانة المظلمة . بعد ثلاثة شهور ، باع مصطفى غرفة نوم عايدة واشترى غرفة نوم جديدة لرباب . بعد عام أنجبتْ له رباب بنتًا ، بعد عامين أنجبتْ له بنتًا أخرى ، ثم أنجبتْ له بنتين أخريين في عامين متتاليَيْن . مع مجيء البنت الثانية ، انتقلتْ العائلة إلى بيت أكبر في الجوفة . ظلّ الوحيد وحيدًا ، فاغتبطتْ صفيّة في داخلها للأمر . رباب أدركتْ غبطة صفيّة فاغتاظتْ في داخلها للأمر .

مشكلة رباب لم تكن مع وحيد مصطفى وإنما مع شقيقته . حين عرّفه والده عليها قال له : «سلِّم على خالتك!» منذ تلك الساعة ، بات مُتنازَعًا عليه بين عمّته صفيّة وخالته رباب . صفيّة كانت تحبّه ، رباب لم تكن

تكرهه . كلتاهما أرادته لنفسها، وإذ لم تفلحا في أخذه بكامله اقتسمتاه . صفيّة تُحمّمه ، فتُلبسه رباب . رباب تطهو ، فتطعمه صفيّة . رباب تُحضّر له سندويشة المدرسة ، فترتّب له صفيّة حقيبته . صفيّة تستخرج من صدرها الدافئ شلنًا ، مصروفًا له ، تلفّه له بمحرمة قماش وتضعه في جيب بنطلونه ، فتوقفه رباب عند الباب غامزة ، تدسّ في يده بالسرّ شلنًا آخر مستدفئًا بصدرها ، الأكثر نهوضًا وابتهاجًا بعمرها الفتي من صدر صفية المتهدّل بحزن وانكسار متواتر مع الأيام التي قفزت عن أمنياتها . حين تصفعه صفيّة في حال عاد بقذارة اللعب في الشارع على ملابسه تفزع له رباب ، وحين تشدّ له رباب أذنه إذ تضبطه يقذف الحجارة على حمامات بيت الجيران تشدّ صفية شعرها ، وتكيل لها الشتائم التي تطال شرف عضوها وشرف عضو أمها وشرف أعضاء أخواتها . طلب من صفية ، ذات ظهيرة ، حلقومًا فتركتْ الغسيل يدور في حوض الغسالة ونزلتْ طلعة جبل الجوفة لتشتري له علبة حلقوم من سوبرماركت الخليلي . أيقظ رباب ، في منتصف ليلة ، لتقلي له بطاطا ، فسترتْ شبه عريها ولبّتْ له وحَمَه . أحبّ صفيّة أكثر بوجود رباب ، وكره رباب أقلّ بوجود صفيّة .

تجاذبتْ صفيّة ورباب أيضًا شقيقاته ، وهي معركة شكّلتْ تحديًا أعظم لصفيّة ، فخاضتْها بضراوة أكبر ؛ فهو كان لها أكثر ممّا كان لرباب ، بينما انحازتْ البنات في المنشأ لأمّهن ، ملتجئات إلى العمّة الحنون يوم تعرض الأم عن مساندة خيارات أهوائهن وهواهنّ ، لاعبات على تنافس الضرّتَيْن بين صفيّة ورباب ، حيث تتغاضى صفية عن استغلالهن لها ، مستقطبةً شقيقها مصطفى إلى صفّهن ، الذي هو صفّها ، مضحّيةً في مواقف كثيرة بحكمتها التي تلتقي في جوهرها مع حكمة رباب دون أن تعترف لها بذلك ، منساقةً وراء غايات البنات الخطيرة بدل أن تردعهن كما يُفترض ، متستّرةً على ما لا يجب التستّر عنه ، في مقابل سعادتها التي لا توصف

بغرز مخالبها في أعصاب رباب . المرّة الوحيدة التي وجدتا نفسيهما عاجزتيْن عن التّناحر والاستقطاب يوم أعلن عزمه الزواج بفاديا .

- فاديا؟!

لم يعرف ما إذا كان الاستنكار مصدره عمّته أو خالته . كلتاهما ارتسم الرفض على وجهيهما المذعوريْن بفجاجة . كانتا لا تزالان تذكر انها يوم جاء بها إلى البيت في سنته الجامعية الأخيرة . لم تأكل ولم تشرب ولم تتكلّم ، وحتى صمتها كان بلا روح ، لم تضحك كما لم تعبس ، لم ينطق جسدها شبه المستوية تضاريسه ، حدّ الضمور ، أو يضجر بإيحاء ، كما لم يخرس على نحو دالٍّ . يداها ظلّتا مفرودتيْن على حضنها طوال الوقت ، ساقاها في الجلوس تعامدتا على الأرض مغروستيْن في الجمود ، وعيناها الواسعتان لم يتحرّك بؤبؤاهما بزرقتهما ذات اللمعة البلاستيكيّة من وسط البياض ، كما لو أنها تحدّق في الأشياء دون أن تراها ، وفي الوقت نفسه دون أن تتأمّلها . بياض بشرتها تحت إضاءة النيون الصدفيّة استُلّ منه كلّ أثر للدماء ولون الحياة . «جلستْ كالميتة» ، كما وصفتْها صفيّة ، و«أتتْ وغادرتْ كالشّبح» ، كما ثنّتْ رباب .

- من أين طلعَ لنا شبحها؟ وما الذي ذكّرك بها بعد كل هذه السنوات؟

تساءلتْ العمّة أو الخالة .

في الصّالون الفسيح ، مع تمايل «كارمن» بيسيه برشاقة تحت إبرة الفونوغراف راشّةً ألوانها الغجريّة على كنفا الغرفة البنيّ ، مصطدمةً بقطع الكتب الضخمة وقد ضاقتْ المساحة المكتظّة بالأثاث على روحها ذات الأذرع والسيقان الكثيرة المفرودة في كلّ الاتجاهات ، بوغتَ بفاديا تقف خلفه ، ملمومةً على نفسها ، محتلّةً أضيق مساحة ممكنة في الوجود ، يُجاهد جسدها كي يظلّ على توازٍ مع جسده فلا يتقاطع معه أو يُلامسه

بأي صورة . ومع ذلك ، كانت تلك أضيق مسافة فاصلة بينهما . فيها نفذتْ مشاعره نحوها ، أقرب ما يمكن ، للمرة الأولى . وللمرة الأولى يشمّ رائحة لحمها ، وهي رائحة اخترقته وغادرته دون أن تنطبع في ذاكرته الحسية ، كأنها غير حقيقية .

يستعيد سخرية غازي جبريل ، رفيق خليّته الحزبية الذي يشاركهم الاجتماعات في بيت مازن ، من افتتان الرفاق المخيف بها . كان غازي الوحيد بينهم ممن لم يكن بصره يعلق بها أثناء جلوس شبحها أو تطوافه وسطهم . في ليلة ، وقد غادرا بيت مازن بعد اجتماع مشحون بالتجاذبات الفكرية والسياسية ، أسرّ له جبريل في الطريق أن قلبه يسقط من الخوف كلما رأى فاديا ، كأن الموت يريد أن ينتزعه من الوجود في وقت أبكر مما هو مقرّر له . ثم ضحك ، كأنه يريد أن يطرد موتًا قاتمًا خشية أن يكون شبحها يقتفي أثره . قال إنه لا يتخيّل أنها قابلة للاشتهاء السويّ ، فهي للنيكروفيليّين . نظر إليه مستطلعًا باستغراب . كان غازي ، الطالب في قسم اللغة الإنجليزية ، يحب تطريز كلامه بمصطلحات قاموسيّة نادرة الاستخدام يكون واثقًا من أن أحدًا غيره لا يفهم معناها . لم يتركه عالقًا في استغرابه طويلاً ، فوقف متبجّحًا بمعلومته قائلاً :

- النيكروفيليا هي اشتهاء الموتى .

ثم خفض صوته ربما كي لا يستفزّ شبح فاديا الذي قد يكون رابضًا له في الجوار :

- أتتخيّل أحدًا يشتهي الموتى؟

كانا في الصالون لوحدهما . في المسافة الضيقة جدًا الفاصلة بين جسديهما ، حيث عبور المشاعر بالكاد ، لمع وجهها بدمعة وحيدة استقرّتْ في منتصف خدّها غريبة ، حائرة ، جاءتها ربّما من حياة أخرى ، لا تعرف أين تمضي أو كيف تتبخّر . كانت قد غادرتْ الغرفة لبعض الوقت قبل أن

تعود بدمعتها المعلّقة . أمعن شحوبها الفاتن في شحوبه أكثر . فاكتشف أنه يستطيع أن يحبها أكثر ، واشتهاؤه لها أمر لم يكن ليتنكّر له في تلك اللحظة . قالت له إنها تحدّثتْ مع والدتها التي تعيش في أستراليا . والداها تطلّقا وهي في الخامسة من عمرها . والدتها تزوجتْ ثانيةً وهاجرتْ مع زوجها الجديد إلى أستراليا . والدها لم يتزوج . يدّعي أنه تفرّغ لها ولمازن لكنه في واقع الأمر تفرغ لنفسه ولغرامياته المتعددة . سألته عن والدته . عندما قال لها إنها ماتت وهو صغير أضاء شحوبها . لكنّه لم يقل لها إنّ والده أحبّ خالته رباب ، وأنّه كان يستطيع أن يسمع شهقات حبّه لها من غرفته التي يفصلها حائط رقيق عن غرفتهما . اقترب منها فلفحه هواء بارد سرى قريبًا من جسدها .

في الغرفة الرماديّة في الطابق السّابع من مبنى المخابرات العامة المغروس كخنجر صدئ في خاصرة المدينة ، بواجهاته البيضاء والزرقاء الملوّثة بعادم السيارات والأيام ، رمقه المحقّق من خلف مكتبه الحديدي الرمادي العريض المقشورة زواياه بنظرة من يطابق بين الشكل والاسم الموجود أمامه ، دون أن يحتاج إلى اجتهاد كي يعرف ما يعرف . ريح باردة ، هبّت من لا مكان ، طوّقتْ جسده المطوي على مقعده . عرق غزير تفصّد من جسده ، خاصة بين فخذيه ، وسط لفحة البرد . تركه المحقّق وحده في الغرفة الطويلة ، كنفق عريض ، ذات المكاتب الرمادية الخالية إلا من جاكيتات رمادية معلّقة على أكتاف الكراسي أو على مسامير مائلة على الحائط ، راقبته جيدًا فأقلع عن فكرة التسلّل خارجًا بهدوء . ثلاث مرات دخل المحقّق الغرفة وغادرها ، وفي كل مرة ، كان يمكث نصف ساعة أو أقل ثم يغادرها نصف ساعة أو أكثر . في المرة الأخيرة ، تأمّله بابتسامة ، فاتحًا فمه عن صف أسنان أمامية ناتئة ماتت معظم أعصابها فاكتست صفحتها بلون رمادي مزرقّ . كان في أوائل أربعيناته ، ميّالاً إلى الصلع الكامل ،

ميّالاً إلى السمنة وميّالاً إلى القصر ، بشارب غليظ مصبوغ لم يتناسب مع سالفيه الرماديّيْن . نقّل نظرة بينه وبين أوراق كثيرة مفرودة أمامه . رفع رأسه نحوه ضاحكًا :

- لا يجب أن نضيّع وقتك ووقتنا . أليس كذلك؟

لم يعرف ماذا يجب عليه أن يقول . فسكتَ . هو لم يعرف ما إذا كان يطرح عليه سؤالاً في الأساس . انسحبت الابتسامة من وجه المحقّق ، لاويًا فمه إلى اليمين ، فكشّ وجهه وتغضّن . خلع ساعته ذات الإطار الفضّي العريض ووضعها على المكتب في منتصف المسافة بينهما ، ثم سأله :

- إذن الاجتماعات كانت تتمّ في بيت مازن الناطور؟

لم يتكلّم . مياه هائلة تدّفقتْ في أذنيه ، طفتْ فوقها أفكاره كحطام سفينة . ثم كأن شبحًا رماديًا لمحقق آخر ظهر في الغرفة . كان أصغر سنًا وأقل حجمًا من المحقق الأربعيني ، تقدم منه يحمل بكلتا يديه ملفًا ، يضنّ عليه ككنز ، وضعه بحذر فوق مكتبه . فتح المحقق الأربعيني الملف . مرّ على الأوراق الكثيرة بسرعة . استعاد وجهه ابتسامته ، ثم انفرج فمه عن أسنانه الرمادية المزرقة قائلاً :

- ها هو رفيقكم علي قاسم لم يضيّع وقته ووقتنا!

أحاط كلمة «رفيقكم» في فمه بعناية لفظية خاصة . انقضت عشر دقائق من الصمت والبرد . أغلق الملف وقال بنبرة فيها قليل من الصبر :

- وبعدين؟ أتعتقد أن لدي اليوم بطوله؟

لم يجد أي شيء يتدثّر به في مقعده ، يقيه القشعريرة .

«أحَيّـــــي!»

(٩)

عمر السّرو

عندما دخل على أبويه ، وجدهما كأنهما في حداد متجدّد ، علمًا أن والدته إنصاف لم تخلع حدادها على نزار الذي توفي قبل عام في حادث سيارة . نزار شقيقه الأكبر ، تفصله عنه أربع شقيقات ، وهو الأصغر . برحيل نزار ، بات وحيدهم . كلّ خطوة كان يخطوها ظلّتْ محفوفة بذعرهم عليه من سيارة قد تطلع من الهواء ، بغتة ، أو من تحت السرير ، ربما ، أثناء نومه وتدهسه . والدته طورتْ «رُهابًا» مرضيًا من موت قد يصيبه من أي شيء ؛ من دمّل غاف في ذراعه تراقبه حتى يكبر ويكبر ، ولا يستقر لها بال إلا حين يفقأ ، أو من حرارة تقبض على جسده في ليلة تبدو كأنها مستمرة في عتمتها إلى ما لا نهاية ، حتى إذا نام وصحا النهار ، اكتسب جسده ، لاطمئنانها البالغ ، حياة جديدة وعمرًا جديدًا . ظلت إنصاف تنتظر موته إلى أن جاءها الموت على مراحل . أصابها سرطان في الرحم لم ينفع معه استئصال رحمها ، ثم تبعه سرطان في الثدي لم ينفع معه أيضًا استئصال ثدييها .

لكنها قبل أن تموت بسنوات ، جلستْ في الصالة ، متلفّعة بالسواد ، متربّعة على الكنبة ، ذقنها مسنودة على كفها ، ورأسها مائل إلى الجنب ، تبكي نزار كأنه مات اليوم . والده فوزي جلس متحفزًا على الكنبة المقابلة .

تأمّل صورة نزار المؤطرة بمسبحة ، أخذ نفسًا طويلاً ثم هزّ رأسه مستسلمًا للآتي . توصّلا إلى قرار مؤلم . لكن ما في اليد حيلة .

- سوف تعقد على حسنا .

«حَسْنا؟ أنا؟ أنا وحَسْنا؟!» تساءل مشيرًا بيده إلى نفسه عدة مرات ، وفي بعض المرات كان يضرب صدره بيده بقوة ليتأكّد أنه المقصود . «حَسْنا؟! حَسْنا . . حَسْنا؟!» ظل يردّدها ، غير مصدق ، أو مستنكرًا بالمطلق ، آملاً في أنها قد تكون اسمًا آخر ، أو امرأة أخرى لا يعرفها . كان يرجو ، يائسًا ، أن تكون أي امرأة غير امرأة نزار .

لم يتوقفا كثيرًا أمام دهشته . شرحا الموضوع ببساطة متناهية ، مع أنه ليس سهلاً بإقرارهما . «حَسْنا امرأة جميلة ، والرجال يطمعون فيها .» قال له أبوه ، مدحرجًا خرزات مسبحته الزجاجية بعصبية . أمه تدخلتْ : «إنهم يريدون البيت ، وإلا من الذي يريد أرملة في الثانية والثلاثين .» توالى انزلاق الخرزات بين أصابع والده ، الذي قال بنبرة معاتبة : «في الثانية والثلاثين . . نعم . وهي جميلة . وفي النهاية لا تستطيع أن تظلّ بلا رجل ، ومن ذا يلومها إذا تزوجت؟» أنزلت إنصاف إحدى ساقيها المكتنزتين على الأرض ، وضربت بيدها على مرفق الكنبة : «أخوك نزار كتب البيت باسمها . تعبه وشقاه تركه كله لهذه العاقر .» رمقها فوزي الذي جمع المسبحة في يده بغضب : «مئة مرة نبهتك بألا تتطرقي إلى موضوع البيت .» تمتمتْ بحرقة : «بيت تركض فيه الخيل ، مساحته ١٨٥ مترًا مربعًا ، ثلاث غرف نوم وثلاثة حمامات ، ومطبخ من خشب البلوط ، وأرضيّات من أغلى أنواع الرخام الإيطالي وشبابيكه لوحدها تكفي عمارة ، كل هذا لترمح فيه العاقر وحدها .» رمى فوزي المسبحة على الطربيزة وصرخ فيها : «وبعدين معكِ؟» ثم نظر إلى ابنه باستجداء : «لا يجب أن يذهب بيت أخيك وامرأة أخيك للغريب!»

قال لهما إنه لا يفكر في الزواج ، وهو إن فكر فلا يستطيع فعليًا ، فما زال أمامه عامان قبل أن ينهي دراسته الجامعية ، ثم إن حسنا تكبره باثني عشر عامًا . كان في الثامنة عندما تزوجتْ نزار . يذكر ذاك اليوم جيدًا ، فلقد بكى في العُرس لأنه أراد أن يجلس في حضن العروس لكن النسوة منعنه من ذلك كي لا يفسد زينتها ، فنهضت حسنا ، بجلالتها وبفستانها الناصع البياض ، من الكوشة وأقبلت نحوه ، حملته بين ذراعيها ووضعته على حضنها ومسحت دموعه وقبّلته في فمه . يذكر جيدًا أنها كانت جميلة ، ورائحتها زكية جدًا . نهره نزار كي يغادر حضن عروسه ، فرجته حسنا أن يتركه ، حيث فرشتْ كفها البيضاء الناعمة التي اصطبغت أظافرها بلون أحمر فاقع وتزينت أصابعها بخواتم ذهبية كثيرة فوق وجنته الصغيرة . سكن نزار وحسنا في بيت العائلة في ماركا أربعة أعوام ، تسربت أثناءها شقيقاته إلى بيوت الزوجية ، قبل أن يرحلا إلى شقتهما في عمان ، الكائنة على طريق الجامعة . بناها نزار بشطارته ، فهو مقاول بناء ولم تكلّفه ، بفضل معارفه ، سوى الكلفة الأولية لمواد البناء . لسنوات ، ظل هو يحن إلى السنوات التي قضتها حسنا في بيتهم ، فقد كانت تصنع له الكيك الأسفنجي والهريسة باللوز ، ومجدّرة الأرز بالبصل ، التي كانت أزكى من مجدّرة والدته . وكانت تسمح له بأن يدخل غرفة نومها في أي وقت ، ولا تتحرّج إذا دخل عليها وهي ممددة على السرير تتابع التلفزيون خاصّتها بالشلحة السوداء ذات الدانتيل العريض ، التي قد تكون مرتفعة حتى ما فوق ركبتيها بقليل ، لتكشف عن فخذيْن متطرّفتين في بياضهما . كانت تناديه كي تلهو معه ، وكانت تسمح له بأن يتقافز على السرير حتى إذا جاء نزار ، ادّعى النوم ، بتواطؤ معها . وإذْ يحمله شقيقه خارجًا ، يسمعه يقول لها إنه بات «بغلاً» ولا ينبغي أن يشاركها السرير ، فتضحك .

قطعًا يستطيع أن يكمل دراسته ، وقطعًا يستطيع أن يتزوج امرأة أخرى عليها ، فـ«حرام أن تضيع عمرك يا ولدي مع عاقر .» قالت له إنصاف من وسط دموعها التي ملأتْ خديْها . «والله سأزوجك بنفسي بنت بنوت» . بكتْ كثيرًا . تذكر سيل البكاء الذي أغرق أيامها وأيامهم يوم مات نزار . عاد والده إلى مسبحته ، يحصي حبّاتها بسرعة وبعصبية . أخبره أن والد حسنا اتصل به وقال له إن ابن عمها طلبها للزواج . لم يتورع عن وصف والد حسنا بـ«ابن الحرام» ، ثم نفض المسبحة في الهواء وقال صارخًا فيه ، دون أن يكون له أي ذنب في ذلك : «إنه يتحدث عن البيت كما لو أنه لم يكن يومًا لنزار .» خرجتْ إنصاف عن صمتها الذي دثّره البكاء : «كيف هان على نزار أن يسجل بيته باسم العاقر؟!»

الخميس القادم سنوية نزار . الخميس الذي يليه سوف يكتب كتابه على حسنا ويدخل عليها . شخصيًا ، لم يشعر أن ثمة مشكلة في أن يكون البيت لحسنا ، وزواجها بابن عمها أو أي رجل آخر ، شأن لا يجب أن يعنيه أو يمسّه في شيء ، وهو شأن لا يجب أن يعني أي أحد آخر ، لكنه وجد نفسه يستجيب لذاك الشعور بالتهديد أو الخطر الذي تحسّسه والداه . في آخر الأمر ، وفي خضم أنهار الدموع والحسرات وطقطقات حجر المسبحة بعصبية لم يكن ليعترض على قرارهما . لكن ، ماذا عن هنادي؟ فزّ السؤال في رأسه دون أن يجرؤ على أن يضعه أمامهما . السؤال الآخر الذي طلع من قمقم ذهنه ، ماردًا : كيف سيشرح الأمر لهنادي؟ ماذا سيقول لها؟

لم يعد يذكر حسنا في السنوات الخمس الأخيرة قبل وفاة نزار . كانت قد ارتدتْ الحجاب ، فتعففتْ حتى عن المزاح واللّهو البريء معه ، خاصة بعدما كبر فجأة فغلظ جسمه واتّخذ ملامح ذكوريّة بارزة . وباتت شلحتها السوداء ، بالدانتيل المخرم العريض والشيّاليْن الناحليْن اللذين

يسحلان على الكتفين، في حكم النوستالجيا البعيدة العذبة. ولم تعد تزورهم إلا قليلاً، بعدما توترتْ علاقتها مع أمّه على خلفية موضوع الإنجاب. كان نزار يزورهم وحده في الغالب، تحتفي به إنصاف، وتحضر له عشاءً مترفًا قوامه من السجق بالبيض، وكبدة الغنم المقلية والطحالات المشوية، وهي وليمة كان ينتظرها هو أكثر من أي شيء آخر.

وبالرغم من تنبيه فوزي لها بألاّ تفتح مسألة تزويج نزار، إلا أن إنصاف لا تستطيع أن تصمد طويلاً، فمع الرشفة الأولى لكوب الشاي بالنعناع، تبدأ بالتطرّق إلى أخبار العائلة والحي، التي تكون ملغّمة في الغالب بأخبار الولادات؛ فسعيد، ابن عمه، رزقه الله بولد رابع ما شاء الله، وعطا الله، المواسرجي الذي يشكو القلة، جاءه الولد السادس، حتى رسمي العبيط، وحيد أم رسمي الذي زوجته أمه غصبًا عن أنف المعترضين من عائلتها لتلمّ وليدها من الركض في الشارع وراء «بكبات» الغاز، أصبح أبًا. «يا سبحان الله الذي يأخذ من عبده كما يعطيه!» تقول، دون أن يبدو على نزار أنه يتابع حديثها. ثم لا تلبث أن تخرج ما يتأكلها في بطنها من غيظ صراحةً: «يعني حرام أن يكون لك ولد مثل العالم والخلق؟» يطلب منها نزار أن تتوقّف. لكنها تواصل: «الرجال يثنّون على زوجاتهم لأتفه الأسباب، على الأقل لن يلومك أحد إذا تزوجت!» يطلب منها فوزي أن تخرس، فتلحّ أكثر: «لا أطلب منك أن تطلقها.. لكن»، فيضع نزار كوب الشاي على الطربيزة دون أن ينهيه وينهض خارجًا، فيتبعه صوتها حتى الباب: «هذا حرام والله. والله حرام أن تقطع نسلك من أجل هذه العاقر!»

طبّلتْ النسوة وغنّين، وفتيات العائلة الصغيرات تحزّمن ورقصن في العرس الذي أقيم على استحياء في غرفة الضيوف الفسيحة في بيتهم. والده، الذي يملك محل جزارة، استأجره بعد نزوحهم من طولكرم إلى

عمان في النكسة . عندما استشعر أن نزوحهم قد يطول بعض الشيء اشتراه من صاحبه ، ثم حين استشعر أن النزوح قد يطول أطول مما قد يرغب ، أدخل عليه تعديلات تناسب إقامة تحمل صفة أكثر ديمومة ، من تغيير بلاط الحمامات وتوسيع المطبخ ومد شرفة خارجية منه تطلّ على الحديقة . الرجال تجمعوا في باحة الدار المطلّة على حديقته الصغيرة ، يشربون القهوة السادة ويلعنون رب كيسنجر «الأولاني» . عدد من شباب العائلة رقصوا الدبكة بإثارة بالغة ، محركين الهرمونات الأنثوية المتثائبة لدى المراهقات اللاتي كن يتلصّصن عليهم من نوافذ الصالة المفتوحة على الحديقة ، مفتونات ببنطلونات الشارلستون ذات الخصور الواطئة ، والقمصان الضيّقة المفتوحة على صدور مشدودة وأعناق فتيّة ، تحيطها قلادات من الفضة تتدلّى منها خارطة فلسطين أو رصاصات فارغة .

في بيت نزار ، الذي أصبح بيت حسنا ثم أصبح بيته مع أنه ظل مسجلاً باسم حسنا ، وقفت العروس أمامه بفستان وردي طويل نفش حولها . اعتلى رأسها تاج من الألماس الاصطناعي . عائلة حسنا وجدتْ أنه من غير اللائق أن ترتدي ابنتهم فستان زفاف أبيض وطرحة ، بعد أسبوع فقط من سنويّة نزار وعام كامل من حدادها عليه لم تخلع خلالها السواد . إنصاف ارتأتْ الأمر ذاته ، وإن عززتْ قناعتها بأنها في النهاية ، «يجب ألا تصدّق نفسها بأنها عروس بحق!» كانت تلك المرة الأولى منذ سنوات التي يراها فيها دون حجاب . تبدّتْ أمامه المرأة الجميلة دائمًا ، ذات البياض السخيّ والشّعر الكستنائي العبيّ والعينين العسليتين . سألها ما إذا كانت تريد أن تشرب شيئًا أو لعلها جائعة . هزّتْ رأسها علامة النفي . مشى نحوها خطوة ، ثم خطوة أخرى . مشتْ نحوه خطوة ، وتوقفتْ . ظلّ متسمّرًا مكانه . شعر أنّ الزمن آثر أنْ يتجمّد ربما عند هذه اللحظة . قطعتْ في اتجاهه خطوتين . ارتجف . أعطته ظهرها ثم طلبتْ منه

أن يفك سحّاب الفستان . وحين انزلق السحاب بين أصابعه ، باغته ظهرها بلونه العاجي المترف في عينيه .

كانت ترتدي صدرية بيضاء مطرّزة . طلبتْ منه ، بصوت تعمّدتْ أن يكون رفيقًا بمشاعره ، التي اختلطتْ عليه لحظتها ، أن يفكّ مشبك الصدرية الذي كان يضغط عليها طيلة العرس . فكّ المشبك بصعوبة ، وحين لامستْ أصابعه المتعرقة ظهرها العاري ، ركع على الأرض وبكى . ركعتْ إلى جانبه . تهدّل الفستان حتى خصرها . خلعت الصدريّة ، فانتثر ثدياها . جمعتْ رأسه الصغير بيديها وأدنته من ثدييها . كانا صلبين متماسكين ثابتين في مطرحهما ، مع طراوة ولدونة ، بملمس قطني دغدغ وجنتيه وشفتيه . نهش عنقها وكتفيها ونزل إلى صدرها . أودع أنفاسه في الأخدود العظيم بين ثدييها ثم عض إحدى حلمتيها . أطلقتْ آهة . لم تكن متألمة . مسحتْ جبينه الذي تندّتْ صفحته بالعرق ، فهدأتْ حركته العصبية بعض الشيء . سحبتْ حلمتها من فمه ، ثم وضعتْ إصبعها فيه ، وطلبت منه أن يمصه ببطء ، وأن يغمره بلعابه . عليه أن يمص الظّفر أولاً ، ثم يبتلع الإصبع ، جزءًا جزءًا ، من الخارج إلى الداخل ، ثم من الداخل إلى الخارج . أثناء المصّ ، يستطيع أن يحرك لسانه ويُلعِّبه حول أصبعها . يجب ألا ينسى أن يغمره في الوقت نفسه بلعابه . تعلّم الدرس بسرعة ، فأخرجتْ أصبعها من فمه وألقمته حلمتها ، فرضعها ببطء . لم تنفك توجهه هامسة ، مداعبة أذنه بآهة مشحونة بشهوة تغالب حبسها ، بأن يحكّ بلسانه رأس حلمتها ، أو يلعق حوافها .

كانت عيناه غائمتيْن فوق صدرها ، عندما أطاحت به أرضًا . ألقتْ فستانها على الكنبة وخلعتْ حذاءها ، ووقفتْ بساقين منفرجتيْن فوقه . كان تحتها . حاصرتْ جسمه بين ساقيها . مدّتْ يدها إليه ، فرفع يده نحوها بارتخاء . قبضتْ على يده وأدخلتْها تحت سروالها . سرتْ هزّة في

جسده لملمس شيئها . كان ساخنًا ، كان حليقًا وكان ناعمًا جدًا . أعاده ملمسه إلى الحلوى الهلامية التي كانت حسنا تدسّها في يده الطفلة خفية ، بعيدًا عن رقابة أمّه إنصاف . وحين كانت إنصاف تتبرّم من فقدانه شهيته للطعام ، وتظلّ ترجوه عبثًا كي ينهي غداءه ، يتبادل وحسنا نظرة متواطئة . أرشدتْ أصابعه إلى فوهة بركانها . تدافعت خلف بابها حمم مهولة ، تململ بعضها فسالت على جوانب الفوهة تنفث حرارة متوعدة . سألته : «أتعرف ما هذه؟» لم يجب . كانت النار تلتهم أصابعه . أجابته : «هذه الجنة .» ثم سألته : «ما هذه؟» أجابها بصوت واطئ غاب في شبه غيبوبته : «إنها الجنة .» فقالت له : «لا أسمعك!» خرج صوته بصعوبة بالغة : «إنها الجنة .» فاضت حمم بركانها على يده . صرخت فيه : «لا أسمعك .» فتح عينيه ، وطرح غيبوبته جانبًا : «قلتُ لك إنها الجنة .» انحنتْ فوقه : «علِّ صوتك!» رفع رأسه حتى كاد وجهه يلامس وجهها ، وصرخ عاليًا جدًا ، إلى أبعد ما ذهب إليه صوته : «الجنَّة . . الجنَّة . . الجنَّة .»

سألته : «هل تريد أن تدخل الجنة؟» أجابها : «نعم .» ردّتْ : «لا أسمعك .» شدّها إليه من ذراعيها فوقعتْ على الأرض إلى جواره ثم انقلب فوقها ، حتى صارت تحته . دخل جنّتها في الليل وفي النهار . دخلها في النهار مرّات وفي الليل مرّات ومرّات . دخلها على السرير ، على المقعد في غرفة النوم ، على الطربيزة في الصالون ، على طاولة السفرة ، على الكنبة في غرفة التلفزيون ، على الأرض ، وعلى الحائط ، دخلها معلّقيْن في الهواء . وفي كل مرة ، كان كأنه يذوق طعم الجنة لأول مرة .

مع هنادي ، كان جسده يتخبّط . كان يأتيها بتهيؤات وصور جنسية أرهقته طيلة الليلة السابقة للقائهما المسروق ، وكان يُستثار بسرعة ، حتى أثناء الكلام العابر معها حين ينفرد بها ، أو أثناء تلفّته في بيت عائلتها ،

ليتأكد من أن أحدًا لن يخرج لهما فجأة من تحت السرير أو من وراء الستارة أو من داخل الخزانة . كان يفزع حين يرن جرس الباب ، وسط ضحكات هنادي ، وكان يعرق كثيرًا من الخوف والإرباك والشعور أن هنادي متوازنة وهادئة أكثر مما ينبغي ، وكان يقذف في أي وقت وفي أي مكان ، ويضطرّ أن يقضي ما تبقى من لقائهما المحبط في الاعتذار ، ومساعدتها في تنظيف آثار سائله من على السجادة أو الكنبة .

مع حسنا ، عرف جسده متعته ، وعرف كيف يتحكّم بهذه المتعة ويسيّرها وفقًا لإرادة شهوته ، فيجعلها معلّقة عند ما قبل الذروة النهائية للحظات تمنحه ملكية العالم ، فيكون السيد المطلق الذي لا رادّ لرغباته . كانت حسنا تدلّه على متعته ، تيُسّر له سبل الوصول إليها ، دون أن تفرض خبرتها عليه أو تستعرضها ، وكانت ترشده إلى متعتها ، التي لم تفقد عذريّة الدهشة ، وتقوده ، بإيحاء بانقيادها هي له ، إليها حتى إذا اكتشفها ولبّاها لها يكون كمن وقع عليها بشطارته . قالت له إنه يستطيع أن يطلب أي شيء في باله ، حتى لو اعتقد أن طلبه غريب أو مضحك . قال لها إنه يريد أن يراها في شلحة سوداء بدانتيل عريض وشيّالَيْن ناحلَيْن . ارتدتْ له الشلحة السوداء بالدانتيل المخرم العريض والشيّالَيْن الناحلَيْن . استلقتْ على السرير ، بشيّال ساحل على كتفها والشلحة مرفوعة حتى أعلى فخذيها ببياضهما السكّري الفائض ، يدها تمسح جسدها فوق الشلحة وتحتها ، فيتكشف كل شيء ولا شيء ، حيث مُستقرّ المتعة ومقرّها الكائن بين فخذيها يتلفّع بعتمة مثيرة وخطيرة ، تناديه فيمشي نحوها جسورًا .

زارته أمه بعد أسبوع لم يغادر أثناءه البيت . استقبلتها حسنا بالروب العرائسي الساتان فوق قميص النوم . حين لاحت لإنصاف علامات الشبع على وجه حسنا المتورّد ، قالت له أمامها ، متعمدة إثارتها ، إن زميلة له في

الكلية اسمها هنادي جاءتهم تسأل عنه . حسنا ضحكت بهناءة وردّتْ بالنيابة عنه أنها تستطيع أن تطمئنها عنه . ثم ادّعتْ العروس أن الحرّ ، هذه الفترة من العام ، خانق . «فما كان من الفاجرة إلا أن خلعت الروب لتفتل في أنحاء البيت ، أمامي ، بقميص نومها شبه الشفاف الذي كشف عن سروالها وقد أنزلته حتى نصف مؤخرتها» ، كما جاء على لسان إنصاف في الرواية التي صاغتها بأكثر من طريقة لنسوة العائلة الشّامتات . «الفاجرة .. أخذتْ عقل الولد .»

بعد ثلاثة شهور ، حملتْ حسنا . استقبلتْ إنصاف الخبر غير مصدَّقة . لماذا لم تتحقّق المعجزة مع نزار؟ الطبيب قال إن حسنا لم تكن يومًا عاقرًا . ماذا؟ معقول؟ يعني نزار .. إذن؟! حين وضعتْ حسنا بِكره إبراهيم ، تردّدتْ إنصاف في إيفاء النذر الذي كانت قد قطعته على نفسها قبل سنوات ، عندما أنهت صلاتها ذات فجر شفاف وساكن ، بأن توزع مئة كيلو خبز على مئة عائلة في مخيم شنلر ، بحيث تدور من بيت لبيت حافية القدمين إذا حبلتْ حسنا . لجأتْ إلى الشيخ عبد المنعم الدروبي ، إمام الجامع في حيّهم ، فأكدّ لها أن نذرها دين عليها ليوم الدين ؛ فحسنا حُبلى أخيرًا ، ولا يوجد في تفاصيل النذر ما يشترط أن الذي يحبّلها هو نزار أو رجل خلافه . جاراتها ، الحاضرات دائمًا في المسرّات كما في النّوائب الاجتماعية ، قلن لها إن الأمر كان يمكن أن يكون أسوأ ، «لك أن تتخيلّي كيف سيكون حالك إذا اضطررتِ إلى إيفاء النذر لو أن حسنا تزوّجتْ رجلاً آخر غير ابنك وحملتْ!» فلم تتأخر إنصاف كثيرًا في إيفاء نذرها ، وبفضل إبراهيم ، الذي بات يقضي من الوقت معها أكثر مما يقضيه مع حسنا ، لم تشعر ، وهي توزع ربطات الخبز من بيت لبيت في مخيم شنلر حافية القدمين ، بأنها تقوم بعبء عظيم .

ثم جاء سامي بعد عامين ، وكان يفترض أن يكتفيا بهذا القدر من

الخِلفة ، لكن حسنا حبلتْ بعد عشر سنوات ، وكانت حينها قد تخطتْ الخامسة والأربعين ، لتضع صغيرهما وسيم . بهرهما منذ أن أبصراه ، شديد البياض كان ، مكتنزًا ، بشعر أشقر غزير وملامح وجه فاتنة ، حيث الأنف الدقيق والعيون المنمنمة البيضاوية الشكل والبشرة المضيئة جدًا . كان منغوليًا . بسبب وسيم ، لم تتمكن حسنا من اللحاق به في أبوظبي ، فالصغير يحتاج إلى متابعة ورعاية وتعليم وتأهيل خاصيْن ، وهي أمور أيسر توفيرها في عمّان وأقل كلفة . ثم سرعان ما اكتشفتْ حسنا ، كما اكتشف هو ، أنهما احتاجا إلى أن يتذرعا بوسيم لكي تباعد بينهما المدينتان ، فكان هو يظل في مدينته صغيرًا ، مهما كبر ، تعبث به احتمالات إمكانية الوقوع على فتنة أو دهشة ما ، بينما لا تخشى حسنا أن تواصل الكبر ، على راحتها ودون قلق كبير ، في مدينتها . وبالتالي ، أدرك هو كما أدركتْ هي أن فكرة زواجه ، من جديد ، كما وُعد ثمنًا للاقتران بأرملة شقيقه لم تعد مطروحة ، لا لأن حسنا أنجبتْ له بدل الولد ثلاثة ، أو لأن إنصاف ، التي يفترض أن تُزوّجه ، ماتت قبل أن تتمكن من تزويجه وقبل أن تفرح بحفيدها المنغولي ، ولكن لأنه لم يعد ثمة حاجة فعليًا لذلك . ثم إن الشيء الأهم في الموضوع ، أنه بعد كل هذه السنوات ، لا تزال حسنا تفتنه وتدهشه بحقٍ . فحين تخفّ لزيارته في الأعياد ، أو حين يأتيها في العطلات ، كانت تطرح كِبَرها ، فتستلقي على السرير أمامه المرأة الأولى التي فاجأته بالشلحة السوداء ذات الدانتيل المخرم ، ولا يستطيع أن يخفي انزعاجه وغيرته الشديدة حين يقفز وسيم فوقها ، بكل ثقله ، أو حين يتمدد ملاصقًا لها ، طفلاً في الخامسة عشرة ، تعبث أصابعه بشيّال شلحتها الناحل ، ويضحك بحبور .

في السنوات الأخيرة لم تعد عمّان تروق له . بِكره إبراهيم ، الذي درس المحاسبة ، استقال من البنك الذي يعمل فيه بعد ستة شهور من

تعيينه ، ثم طُرد من شركة تأمين قبل أن يتم ثلاثة شهور فيها . لم يعد يخرج من البيت إلا للجامع ، وآثر أن يظل حبيس غرفته في الليل وفي النهار . حين كان يحاول أن يتحدث معه على الهاتف ، تحت إلحاح حسنا ، أو في المرات القليلة التي نزل فيها إلى عمّان لأجله ، وأيضًا بناء على رجاء حسنا ، لم يكن يشعر أنه يتحدث إلى الولد الذي قالت له أمّه يوم ولد إنه شديد الشبه به ، بل لقد بات الولد لا يشبه حتى نفسه التي كانتها حتى عهد قريب ، حيث أطلق لحيته وطلّق لباس «الشيطان» مستعيضًا عنه بدشداشة يغسلها ويكويها بنفسه ، مكتفيًا بأقل قدر من الزينة (وإن تأخر بعض الوقت في الاستغناء عن علبة الجل الخاص بتصفيف شعره الكثيف والجعد) . عرض عليه أن يأتي عنده في أبوظبي ، فرفض . وإذ نفضتْ حسنا أخيرًا يديها منه يائسة ، لجأتْ إلى الشيخ عبد المنعم الدروبي الذي كان قد تقاعد عن الإمامة مؤسسًا مركزًا لتعليم القرآن وفقه الحديث ، مؤسسًا كذلك مشروعًا تجاريًا يدرّ عليه دخلاً جيدًا عبر فتح سلسلة محلات لبيع الأواني المنزلية .

بكتْ حسنا وهي تروي له على الهاتف أن الشيخ عبد المنعم حلّ مشكلة إبراهيم ؛ سوف يعمل لديه في محل له وسوف يزوّجه ابنته أمينة ، الثيّب التي تكبره بسبع سنوات ، والتي تطلقتْ قبل أن يدخل بها زوجها . بكتْ بحرقة وهي تقول له إن الولد صغير ، وأن أمينة قصيرة وسمينة ، بحاجبيْن ملتصقيْن وبشعر كثيف يغطي ساقيها وذراعيها . وحتى عندما فصلت ما بين حاجبيها ونزعت شعر ساقيها وذراعيها وخلعتْ حجابها السميك يوم عاينتها نسوة العائلة ليبين شعرها الطويل المُحنّى ظلّتْ غير جميلة . «يجب أن تتدخّل .» قالت له ، وهي تذرف دمعًا تجمعتْ فيه كل المرارة في العالم ، إنهما سيقيمان في بيتها ، وسوف ينجبان في بيتها . كان يعرف أن تدخّله لن يفيد ، ومع ذلك قام بالمهمة المتوقعة منه ، فاتصل

ببكره مرددًا على سمعه بضع جمل أعدها لهذه الغاية : «أنتَ مازلت شابًا في أول عـمرك .» فقال له إبراهيم إن الزواج له وجاء ، ثم ذكّره أنه تزوج والدته في العشرين ، أما هو فقد اجتاز الثالثة والعشرين . فأدرك أنه لا لزوم لذكر الأشياء الأخرى بأن أمينة مطلقة وتكبره بسبع سنوات ، إذ لم يشأ أن يسمع منه سيرة حياته ، وإن كان واثقًا ، دون حاجة لأن يراها ، من أن أمينة لا ترقى بأي حال من الأحوال ، إلى حسنا وهي ممدّدة على السرير بالشلحة السوداء ، حتى في سنها هذه .

لكن الزواج لم يحسّن من مزاج إبراهيم ، ولا إنجابه ثلاثة بنين أصحاء في أربعة أعوام ، ولا قيام الشيخ عبد المنعم بتسجيل أحد محالّه باسمه ، لكي يمتصّ نقمته المتزايدة على توزيع الثروة في العالم وتعاظم المسافة بينه وبين مسرّات الدنيا ، التي كان يعكسها على أمينة بالضرب حينًا وبهجر فراشها حينًا آخر ، وبتهديدها بأن يتزوج عليها ثانية حينًا ثالثًا . قبل شهور ، اتصلتْ به حسنا تطلب منه أن يرسل لها مع مصروف الشهر مبلغًا إضافيًا لشراء تلفزيون جديد بدل الذي ألقاه إبراهيم من الشباك . كان قد عاد إلى البيت من المحلّ على غير موعده ليضبطها وأمينة ووسيم يتابعون مسلسلاً رمضانيًا يغصّ بالنساء العاريات ، كما وصفهن لاعنًا . حمدتْ حسنا الله كثيرًا لأن تلك الحادثة انتهت على خير ؛ فلقد هجم وسيم على شقيقه ، وألقى بكل وزنه عليه ، وظل يطرق رأسه في الأرض لأنه قذف بطلة المسلسل ، من الشباك ، ولولا أنها جذبته بكل ما لديها من عزم ، وبمساعدة أمينة ، لكان إبراهيم راح منهم .

إبراهيم لم يرُح منهم . ظلّ يمارس حياته المحدودة بين البيت والمحلّ ، يلعن نسوة الحي اللاتي يلمحهن ، راجعات من السوق بسلال الخضار ، يتمايلن بأجسادهن الزوجيّة التي تلتصق بها جلابيبهن ، غصبًا عنهن ، ويعود على إثر رؤيتهن إلى البيت في أي وقت ، فيطلب من أمينة أن تترك

ما في يدها وتأتيه، مستشهدًا لها بكلام نبي الله: «إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فَلْتَأْته، وإن كانت على التَّنُّور.» والحقّ أن أمينة لا تتأخر عليه، لكنها مع ذلكَ لا يبدو أنها تلبي حاجته تمامًا. لم يكن يقل لها ذلك، لكنه كثير الغضب منها، لأي سبب، وغالبًا دون سبب، حيث يضربها بقسوة، ما حالت حسنا، التي لم تستطع إلا أن تحب أمينة على تواضع شكلها، دون إبعاد يده عنها.

الذي راح في النهاية هو سامي. سافر بعد زواج شقيقه الأكبر بشهر إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسته الجامعية في الإخراج السينمائي. بعد شهور من تجربة العيش هناك، والتنقل من معهد إلى آخر، قرر أن يغض النظر عن فكرة الدراسة وفكرة العودة. وبتمويل من جزء من تعب والده في أبوظبي و«تحويشة» حسنا، استأجر كشكًا صغيرًا في طريق الشهرة في هوليوود بلوس أنجلوس، بالقرب من المسرح الصيني، يبيع فيه صور النجوم وملصقات الأفلام والقمصان القطنية الرخيصة والهدايا والتذكارات وتماثيل «الأوسكار» المقلّدة، كما يطبع أكفّ السياح على قوالب من الجبس الأخضر أو القرميدي، على غرار طبعات أيدي النجوم وأقدامهم عند المسرح الصيني، ويُركِّب صورهم إلى جانب صور نجومهم المفضلين باستخدام تقنية الكمبيوتر، التي برع فيها أكثر من أي شيء آخر، فيجعل سائحة يابانية مفتونة بجوني ديب تقبل وجنته، ويفرد سائح ألماني ذو كرش كبير ذراعه على كتف أنجلينا جولي العارية، وتتحسس شابة هندية عضلات جان كلود فاندام، غير مصدقة نفسها من الفرحة بالرجل المثير الواقف إلى جوارها، ولا يخجل شاب أصلع من الاستلقاء على الأرض والتلصص على ما تحت فستان مارلين مونرو الأبيض الذي طيرته الريح.

زاره بعد عام من أيلول أميركا الأسود. اتصلتْ به حسنا من عمّان

لتروي له حلمًا مزعجًا ، فقد شاهدت سامي في منامها يقع في بئر عميقة . ومن البئر العميقة كانت عيناه تشعان بنورهما إلى أعلى ، فكانت تقع على خمسة رؤوس كبيرة بعشر عيون تقف حول البئر في دائرة مغلقة . كانت العيون كبيرة ومخيفة ، انبعثتْ منها نار أحرقتْ جسد سامي . «يجب أن تزوره لتطمئن عليه .» طلبتْ منه . حاول أن يقنعها ، كما يحاول أن يقنعها في كل مرة ، أن الأحلام لا يجب أن تعني شيئًا ، وهو كلام لا يردده فقط من قبيل التهرب من واجبه التفسيري ، وإنما من خبرة طويلة في مجاله ، لكن ككل مرة ، «لا يوجد حلم ليس له معنى» ، تقول له ، هي التي تحلم كثيرًا ، وأحلامها دائمًا ذات تفاصيل واضحة ومرتبطة بعضها ببعض ، تأويليًا ، حتى وإن بدت غير ذلك ، سرديًا ، وما يفاجئه ويفزعه ، أن أحلامها تقود في الغالب إلى ما يذهب إليه معناها المتضمن ، أو قريب منه .

بالنسبة له ، أميركا كانت مشروعًا مؤجلاً ولعله كان يحتاج إلى حلم ، حتى وإن كان حلم حسنا لا حلمه هو ، بل حتى وإن كان حلمًا كابوسي الملامح ، كي يذهب إلى تلك البلاد التي لعنها في المظاهرات وهو تلميذ في المدرسة ، ولعنها في المظاهرات وهو طالب في الجامعة ولعنها ، كصحفي ، في الاعتصامات النقابية ، التي يتخللها توجيه مذكرات احتجاجية ، كان من بين المنتخَبين دومًا لصوغها بلاغيًا ، ويعقبها توزيع سندويشات ومعجنات مع شاي ومشروبات غازية بالكاد تكفي نصف المعتصمين والمحتجين ، الذين يزدادون غضبًا على غضب .

أمضى أسبوع الزيارة في قطع شارع الشهرة في هوليوود من أوله إلى آخره ، يراقب كل أشكال الخلق ، من سياح ومغني شوارع يتسولون بالغيتار ، وشخصيات قصص «الكوميكس» ، ومتشردين ، أحدهم علق ورقة بمطالبه التي رفعها إلى الله على الجدار وراءه ، وممثلين إيمائيين بهره

أحدهم ، فأمضى وقتًا غير قصير يتابع أداءه ، وحين همّ بالمضي مبتعدًا لحقه الممثل ومدّ يده نحوه . قرر أنه ليس ملزمًا أنْ يدفع له فلسًا ، طالما أنه لم يشتر منه الفرجة . لكن الممثل شيد في الهواء صندوقًا حاصره فيه وأحكم إغلاقه عليه ، وسط حشد من الناس تجمعوا للتفرج عليه ، فعرق من الخوف والخجل وأخرج من جيبه خمسة دولارات أعطاها للممثل ، الذي لم يفتح له الصندوق إلا بخمسة دولارات أخرى .

كان من الصعب أن يلازم سامي في الكشك ، الضيق عليه أصلاً ، فكان يحوم حول موقع المسرح الصيني ويتمشى إلى جوار الكشك ، يراقب ابنه الذي يتنقل داخل الكشك برشاقة ، يسكب الجبس الأخضر الطّري على لوحة مربّعة ، ويفرده بملعقة خشبيّة مسطّحة ويسوّيه من جميع الجوانب ، ثم يمسك بيد سائحة ، يضغط بها على الجبس الطري إصبعًا إصبعًا ، ثم يرفع كفها بيده بهدوء ، منظفًا بعض الزوائد حول طبعة الكف بالملعقة الخشبية إياها . يقول للسائحة إنها تستطيع أن تأتي لاستلام اللوحة بعد نصف ساعة حتى تجف .

استأجر له سامي شقة قريبة من شقته مقابل أربعمائة دولار في الأسبوع . أصر على أن يدفع هو أجرتها ، فلم يحاول سامي أن يثنيه عن ذلك ، بل كأنه توقع أن يدفعها هو . كانت الشقة ، المؤلفة من غرفة واحدة مفروشة بأثاث رخيص ، لشاب عراقي يدرس ويعمل نادلاً في مطعم أعطاه الشقة لأسبوع لقاء الأجرة . لم يكن يجلس في الشقة إلا للمبيت ، ولولا أنه خشي أن يسبب حرجًا لسامي لترك الشقة ، وتنازل عن الأربعمائة دولار وانتقل للإقامة في فندق ، وذلك حين بوغت بجميل ، العراقي ، يدق عليه باب بيته ليلاً يستأذنه في أخذ غيار داخلي له من الخزانة . تحدث معه ساعة عن العراق وعن فلسطين وعن أفغانستان التي يشاهدانها في التلفزيون ، ثم عندما سأله أخيرًا أين يبيت ، ضحك جميل وقال إن

دنيا الله واسعة . في اليوم التالي ، عرف من سامي أن دنيا الله الواسعة التي ينام جميل العراقي فيها هي الممر المؤدي إلى حمامات المطعم .

اعتذر سامي له لأنه لا يستطيع أن يستقبله في شقته ، فقد انتقلت صديقته جينا للإقامة معه حديثًا ، بعد شهور من تمنّعها . لكن هذا لم يمنعه من دعوته لتناول العشاء معهما ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان يتغلب على حرجه بصعوبة ، ذلك أن جينا كانت تتنقل في الشقة بأقل قدر ممكن من الثياب . في العشاء الأخير ، الذي أعده سامي من المعلبات والمجمدات ، وقليل من الخضار المبخرة التي لا لون لها ولا طعم كالعشاءين السابقين ، فتحت له الباب بسروال قطني أبيض وقميص وردي لم ترتدِ تحته صدرية ، فشف عن حلمتي ثدييها شبه المسطحين . قالت له ببراءة إنه وصل مبكرًا ، قبّلته على وجنته ثم دخلتْ الغرفة وارتدت بنطلون جينز دون أن تبدّل القميص .

في اليوم الأخير له في لوس أنجلوس ، نزع خوفه ودخل المحلّ الذي كان نظره يتسلل إليه ، عبر واجهته الزجاجية الجريئة ، في كل مرة كان يمر بقربه في نزهات الأيام الستة الماضية . كان كمال قد شدّد عليه ألاّ ينسى «الأشياء» . ومع أنه قرر ألاّ يتذكر «الأشياء» ، إلاّ أنه منذ أن وطئتْ قدمه العالم الجديد و«الأشياء» في باله . كان يعرف أنه لا يستطيع أن يسأل سامي عن محل بيع «الأشياء» ، ثم اكتشف أنه لا حاجة لأن يسأله ، فثمة «أشياء» كثيرة من «الأشياء» التي في باله في محلات كثيرة . قدم له البائع الشاب الذي تدلّتْ حلقة معدنية من ذقنه ، شرحًا «تمثيليًا» وافيًا عن مجسم مصنوع من مادة لدائنية لعضو امرأة عليه شعر . هاله ثمنه الذي فاق السبعين دولارًا . برّر له أن الشعر مأخوذ من وبر حيوان اللاما ، الأقرب ما يكون إلى شعر عانة المرأة ، وهو مغروز شعرة . . شعرة . «لك أن تتأكد بنفسك .» مرّر الشاب أصابع يده المكتظة بالخواتم فوق الشعيرات

الناعمة المصفوفة إلى جانب بعضها بعضًا . ليس هذا فحسب . . «انظر!» وضغط بحماسة زائدة على العضو من الخارج ، ففغر فمه ، ثم ألقمه أصبعه فضغط عليه في حركة مطاطية ارتدادية . اقترح عليه أن يجرب بنفسه ، لكنه اعتذر . «بالطّبع تستطيع أن تدخل شيئًا آخر غير إصبعك .» تجاهل ما قصده .

اشتراه واشترى عضوًا ذكوريًا بلاستيكيًا وثديين بلاستيكيين يهتزان ويرتجان بالتعبئة الآلية . لم يشأ أن يضع أشياءه في الحقيبة . غلّفها بورق صحف ووضعها في كيس بلاستيكي داكن ، مفضلاً أن يحملها في يده . في الطريق إلى المطار ، سأله سامي عن الكيس ، فقال له إنها «أشياء» لصديقه كمال . لفت انتباهه إلى ورق الصحف الذي غُلفتْ به . قال له إنها قد تثير الشبهات لدى أمن المطار . ارتبك . أيعقل أن يُسأل عنها؟ أنزله سامي عند بوابة المطار الرئيسية واعتذر لأنه لا يستطيع أن يودّعه في الداخل ، إذ يجب أن يعود إلى المحلّ ، ثم تذكّر أنه اشترى له هديّة . مدّ يده إلى جيب سترته وناوله تمثال أوسكار صغيرًا مكتوبًا عليه «BEST FATHER» قال له إن قاعدة التمثال مخلخلة بعض الشيء ، وتحتاج إلى أن يثبتها بلاصق ، «فأنتَ أدرى بالصناعات التايوانية .»

جلس في غرفة ، ذات إنارة واهنة ، على كرسي ذي قاعدة صغيرة فاضت مؤخرته من على جوانبها وقد أسند مرفقيه على طاولة شكلتْ الأثاث الوحيد ، مع الكرسي ، في الغرفة . اكتظتْ حوائط الغرفة وأرضيّتها وسقفها والطاولة والكرسي الوحيد الذي جلس عليه باللون الرصاصي . لم تكن فيها نافذة أو طاقة . حتى الباب كان كأنه امتداد طبيعي للأرضية أو الحائط ، أو كأنه انسكب من السقف . خمسة رجال صنعوا حوله دائرة . كانوا أشدّاء ضخامًا ، ببزات رصاصية ، وكانت لهم عشر عيون كبيرة لم ينزح نظرها عنه . احتُجز بصره بينهم وبين أشيائه التي افترشت الطاولة

وقد نُزع عنها ورق الصحف الذي سترها . ضرب أكثرهم غلظة قبضة يده على الطاولة ، فاهتز الثديان النافران ، ثم أدنى وجهه منه ، قائلاً :

- «We are still waiting for an answer!»

طوال الطريق إلى البوابة الأمنية المؤدية إلى معاينة أوراق السفر وتفتيش الحقائب ، لاحقته كلمات سامي . الأشياء الملفوفة بورق الصحف قد تثير الشبهات . عندما لاح له جهاز كشف الأمتعة الذي تمرّ منه كل الحقائب تخيّل ماذا ستكون عليه حاله حين تتبدى أشياؤه ، من تحت الجهاز ، عارية للجهات الأمنية . سوف يضحكون ، وأحدهم ، على طريقة الشرطة المزعجين في المسلسلات الأميركية ، قد يعبث بأشيائه عن عمد أمام طابور المسافرين من خلفه بقصد إحراجه . المشكلة ليست هنا . سوف تمر الأشياء تحت جهاز مماثل في مطار أبوظبي . سوف يحدجه رجل الأمن هناك بنظرة ازدراء . لكنه سيكون مؤدبًا ، ولن يضحك عليه علنًا . لاحقًا ، سوف ينقلب على بطنه من الضحك حين يُحدّث صحبه في سهرات الرجال التي تتخفف من التحفظ عن الرجل الوقور بالبذلة الذي وصل من أميركا بكيس فيه «أشياء» أقرب ما تكون حقيقية . رجل الأمن الأول في لوس أنجلوس كما الثاني في أبوظبي لن يعرفا أبدًا أن هذه الأشياء أوصى عليها كمال بشدة . صحيح أنه أراد أن يشتريها بشدة ، لكنها في النهاية لكمال .

إذ اقترب كثيرًا من البوابة الأمنية ، وجد نفسه ينحرف باتجاه المراحيض . انتظر أحدهم حتى فرغ من غسل يديه وخرج ، قبل أن يضع كيس أشيائه خلف باب الحمام ، متيقنًا من أنه وحده ، ثم غادر مسرعًا . لكّن توتره مع ذلك ظل ملازمًا له . مثل أمامه كمال معاتبًا ، فلعنه . من بعيد ، بدت البوابة الأمنية قد خلتْ من المسافرين . اصطف عدّة رجال ببزات رصاصية ، إلى جانب بعضهم بعضًا كأنهم في انتظاره . عاين أحدهم أوراقه بجدية كبيرة ، دقق في صورته في جواز السفر ثم نظر إلى

زملائه . تقدّم أحدهم نحوه ، شبك ذراعه بذراعه ، وطلب منه أن يسير معه بهدوء . في الغرفة الرصاصية ذات الحوائط الرصاصية المتصلة بباب رصاصي ، عرف منهم أن إحدى كاميرات المراقبة رصدته يُلقي بالكيس المشبوه وراء الباب . طرحوا عليه السؤال ذاته مرة بعد مرة : «لماذا تركتَ أشياءك في الحمام؟»

استلقتْ أشياؤه على الطاولة دون حرج كبير ، وإن ظل ثغر شيئه النسائي مطبقًا تمامًا ، متعففًا ، في مواجهة نظراتهم المخترقة . كان ذهنه مبعثرًا في كل الاتجاهات . قاوم ، عبثًا ، خياله الذي تشعب وشتّ بعيدًا حتى بلغ صورة حسنا الفتيّة ، عندما كانت لنزار ، بالشلحة السوداء ، ثم كأنه سمع حكي تهمس في أذنه عبر سماعة الهاتف ، ويعبث صوتها بشيئه من تحت المكتب .

غدت رؤوسهم أكثر التصاقًا ، محكمين إغلاق الدائرة حوله . عيونهم ازدادت اتساعًا ، اخترقته حتى بلغتْ سقف روحه وقاعها . كانوا يكبرون ويتضخّمون ، وكان يتقلّص في كرسيه ويتضاءل . شعر بنار تصعد من قدميه ، ويكاد يسمع صوت التهامها التدريجي لجسده .

كانوا لا يزالون ينتظرون منه جوابًا .

(١٠)

رمزي عيّاش

عندما لامستْ عجلات الطائرة الأرض ، تهيّأ له وللمسافرين ، الذين مالوا ومال معهم على مقاعدهم ، أنّ الطائرة ارتطمتْ بجسم ما . غادر قلبُه مكانه ، ممزقًا صدره ، ثم رجع إليه محدثًا سقطة عنيفة . كتم صوتَ نبضه ، الذي تداخل مع زعيق العجلات على الأرض ، بأن ضغط على صدره بيديه المتصالبتيْن فوقه . ظلّ على هذه الوضعية إلى أن توقفتْ الطائرة . قالوا له إنه لن يشعر بالطائرة تطير ، كما لن يشعر بها حين يلمس جسمها الأرض . لكنه شعر بها أثناء تحليقها عاليًا ، وقطعًا شعر بها تشدّه إلى الأرض شدًّا أثناء الهبوط . ثم عندما فُتح باب الطائرة ، وغمر جوها الدّاخلي هواء أصفر مليء بالغبار ظنّ أنهم هبطوا اضطراريًا في الصحراء . ضحكتْ المضيفة . طمأنته : «إنها الكويت .»

كانت تلك المرة الأولى التي يركب فيها طائرة . بل كانت المرة الأولى التي يسافر فيها . الحقيقة أنّ قطع الطرقات والصحاري بين قريته في يافا ، التي لم يعد يذكر منها سوى طيف المدرسة اليتيمة ، مشيًا مع أمه وشقيقيه وخالاته وجاراته حتى بلغوا الأردن لم يكن سفرًا . ففي تلك الرحلة أخذوا معهم كل شيء وتركوا ، في الوقت نفسه ، كلّ شيء خلفهم ، وكان ثمّة بكاء كثير ، ونواح ، وإنهاك أكثر ، وأحيانًا غناء ، أو ما

يشبهه . ويذكر أيضًا ، ضمن مزق ذاكرته التي لم تتخطّ الثامنة من العمر ، أنه كان ثمة شيء من احتضار في السير البطيء المتعثر أو موت مفاجئ عبر سقوط شوال على الطريق . في المساء ، قد يعلو نحيب ويحتدّ أكثر من المعتاد ، وفي الصباح يمضون في سيرهم أقل عددًا مما كانوا عليه الليلة الفائتة . لكنه يذكر ، وسط المشي الثقيل والتعب والنحيب والموت ، تلال الرمل البعيدة في الليل .

كانت كيفما نظر إلى التلال تتشكلّ بحسب ما يريد خياله لها أن تكون ؛ فكانت مرة بستان أشجار الدراق القزمة القريب من بيتهم ، وكانت مرة أخرى الجارات المتربعات في حوش الدار يشربن شاي الصباح بالنعناع ذي رائحة الاخضرار اليانعة ، وكانت مرة ثالثة السور الحجري الذي يفصل بيتهم عن بيت كوثر . كوثر لم ترحل معهم . عرفوا فيما بعد أن عائلتها رحلت إلى غزّة . لسنوات ، ظل يحنّ إلى ملمس باطن كفّها وهي تفرك الصابونة على جسده العاري ، ثم وهي تصبّ الماء على جسمه الصغير فوق اللَّجَن وتمرر أصابعها في الأماكن الضيقة الدافئة المعشّقة بالماء والصابون والرغبة المتبرعمة . كانت تساعد أمّه هاجر في الغسيل وخبز العجين وخياطة اللُّحف وكنس حوش الدار وتحميمه . كانت هاجر تؤمّلها ، دون أن تعدها ، بأنها إذا أرادت «سلفة» لها ، حبّابة ، مطيعة ، وخدومة ، فلن تجد أفضل منها عروسًا لسليم ، شقيق زوجها . عمّه سليم لازم أباه في مهمة قتال عصابات اليهود لاسترداد البيت والقرية بعدما جمعا عددًا من الرجال من حملة السلاح . انقطعت أخبارهما منذ ذلك الحين . لم يصلهم أي شيء من بطولاتهما . تأكدوا من وفاة العم لكن الأب ظل ، لسنوات ، عالقًا بين يقين الموت ويقين الحياة .

كان يفرغ من تحميم فراس ، مستعجلاً دور سمر . ينظفُ البانيو من آثار شقيقها ويمسح أرضية الحمام ويملأ الطشت بالماء الفاتر ، حيث يقيس

درجة حرارته بكوعه ، ثم يحمل صغيرته ، بأعوامها الستة ، بتأنٍ ويوقفها
على أرضية البانيو بكل ما يستوجب الحذر ، كمزهرية من خزفٍ غال ،
ويعرّيها بلطف شديد كي لا تخدش أصابعه الشغوفة بشرتها السائلة .
حين يصبُّ الماء على رأسها ، يتملّى في عينيها برموشهما الكثيفة تغلقهما
في جموح الشلال المنهمر ثم تفتحهما ، لتفاجأ بشلال آخر من الماء
والصابون يغمر وجهها الدائري . يفرك شعرها الطويل بلون سكر الكريم
كراميل بيديه . يدعك فروة رأسها ليتغلغل الشامبو في كل أجزائه . وفي
كل مرة يصب الماء يتابع جريان جداوله بسلاسة على سطح ظهرها ،
فمؤخرتها فساقيها الناحلتين . ثم يفرك ظهرها بالليفة الخشنة المرّنخة
بالصابون العطر . يفرك رقبتها وينزل إلى صدرها المستوي تمامًا ، فبطنها
الضامر ، فمؤخرتها غير النابتة بعد ، فساقيها الناحلتيْن ، فركبتيها
الهشتيْن ، فقدميها الصغيرتيْن ، فأصابع قدميها المنمنمة ، فما بين أصابع
قدميها . تكون آهاتها قد استحالت في الأثناء إلى أنفاس سريعة لاهثة ،
ثم تتباطأ تدريجيًا وتستسلم في النهاية لرخاوة الماء الدافئ وانزلاق
الصابون على جسدها الغضّ الذي يستجيب ليده براحة أكبر .

زارته امرأة في الحلم . لم تكن جميلة ، لكن وجهها بدا مألوفًا . كانت
تحمل ، في الحلم ، طفلة . من مسافة بعيدة كانت الطفلة امرأة وافرة الأنوثة
تنام على ذراعيها ، حتى إنها كانت تنوء بوزنها أثناء سيرها ، ثم أبصرها
تطالعه بعينين تنويان شيئًا عليه . تأمّل الصغيرة ، في حُلُمه ، عن قرب ،
فرآها رضيعًا مغمضة العينين . سأل امرأة الحلم عن اسم الصغيرة ، قالت له
إنها ولدتها منذ سنوات لكنها للآن لم تجد لها اسمًا . وربما كان هذا هو ما
جعلها حتى الآن لا تريد أن تكبر . اقترح عليها ، في الحلم ، أن تُسميها
سمر . لماذا «سمر؟» سألته . لم يجب . لماذا «سمر؟» سألته ثانيةً . ظلّ
يتأمل سمر تمطُّ جسدها كلما ابتعد بصره عنها . وكانت نظراتها ، في

الحلم ، تنفذ إلى أبعد نقطة فيه . لماذا «سمر؟» سألته للمرة الثالثة . فصحا من حلمه على عتمة كثيفة ثقيلة ترزح فوقه .

كان قد مضى على وصوله إلى الكويت ثلاثة شهور . التحق بالكلية الصناعية ، ضمن دفعة من المبتعثين من الطلبة العرب . لم يكن قد أتم عامه الثامن عشر . جاء بمنحة من «جمعية اليتيم» في عمّان . هاجر سعتْ للمنحة . والده محمّد لم يكن متوفّى بصورة قاطعة . لكنها استخرجتْ شهادة وفاة له بعد مضي سبع سنوات على انقطاع أخباره تمامًا . لجأتْ إلى مختار قريتهم في مخيم الزرقاء ، فكتب لها إفادة خطية موثقة بشهادة شاهديْن بأن محمد حسن عيّاش ، ابن صبحيّة ربيع الناجي ، زوج هاجر عبد الرحيم سلمان معروف ، قد توفي في قضاء يافا ، أثناء القيام بواجبه القتالي لطرد عصابات اليهود .

بعد عامين ، من استخراج الشهادة ، زارها الحاج أبو رفعت ، قريبها الذي هاجر مع أسرته إلى دمشق . كان قد جاء إلى عمان لزيارة أنسبائه في مخيم الوحدات . قال لها إنه وصلتْ إليه أخبار تؤكد أن محمد على قيد الحياة وأنه يعمل في تجارة الخضار في نابلس . حلفتْ هاجر عليه ألا يغادر قبل أن يتناول طعام الغداء . ذبحتْ له دجاجتيْن وشوتهما بالفرن . قشرتْ له تفاحة وموزتين . شربا الشاي بعد الغداء على المصطبة . حدّثته عن بكرها أحمد الذي سافر إلى العراق للعمل ، وعن الأوسط حسن الذي يعمل بنّاءً ، عن الصغير ، هو الذي يدرس في الكويت . حمّلته سلة فيها جزر وخيار وتفاح ودزينة موز وعلبة تمر عراقي وباكيت شوكولاته «سلفانا» وستة أزواج زغاليل حديثة الذبح . «لكن هذا كثيرا» قال لها فأجابته أن هذا من خير حسن . أحمد كذلك يرسل لهم المال من وقت لآخر . «ثم إن خيرك سابق يا حاج!» لم تنس أن تُحمّله سلامات مخلصة للغالية أم رفعت . قبل أن يودعها إلى الوحدات ، ذكرته أنه ليس من

الحكمة أو الخير إيقاظ الموتى . أدرك الحاج أبو رفعت أنها لم تغفر لمحمد أبدًا أنه تخلّف عن اللحاق بهم حين لم يعد قتال اليهود يجدي ، وبقي هناك بعد ضياع الأرض والبيت لأجل عيون فريال ، جارتهم الأرملة التي كان يساعدها في فلاحة أرضها في القرية . هاجرتْ فريال مع طفليها ووالدها المقعد إلى نابلس ، فلحق بها .

في الصباح ، حاول أن ينزع عن عينيه عتمة اللّيل فلم يستطع . كان ثمة ألم يمتدّ من رأسه إلى عنقه فظهره وينزل إلى ساقيه . انتفاخٌ عظيم استعرض في نصف جبينه ، وكاد يمزّقه . حمله فؤاد ، صديق الطفولة وسني المراهقة في المخيم ورفيق السكن في الكلية ، إلى المستشفى ، وهو يعرق ويرتجف من البرد في شهر أيلول . عاجله الطبيب بحقنة . كتب له مسكنًا للحرارة ومضادًا قويًا للالتهاب . سأله فؤاد عن سبب الانتفاخ في جبينه ، فتعجّب الطبيب لأنه خاله يعرف . إنها عضّة جرذ . قاله له ، ثم حذّره من أن الأيام الثلاثة القادمة لن تكون هيّنة .

في الليل ، كان الألم ينشط . المسكّنات لم تسكّنه . وحين يغفو ، تكتظّ الغرفة الصغيرة بصور كثيرة وأناس كثيرين ، يجالسونه لبعض الوقت ثم يغادرون ، من بينهم ولد يشبهه كثيرًا ، كأنه ينظر في مرآة تجمّدتْ صورته فيها منذ عشر سنوات . وقف الصبيّ أمامه حافيًا ، مطأطئ الرأس . الصبيّ كان يلعب «الغميضة» مع رفيقه أكرم في بيارة أبو أكرم للبرتقال ، في القرية ، حين لمح كوثر تتكئ على جذع شجرة وسط أجمة من الشجيرات المتعانقة ، افترشتْ وسطها بقعة ظليلة لا تطأها الشمس في عز الظهر . كانت كوثر مرخيّة الأجفان بعينيْن نصف مسدلتيْن ، تعضّ راحة يدها وتغيب في الهمهمة . سحل إيشاربها على كتفيها ، فتخايل شعرها البني على وجهها وعنقها . كان هناك شيء يخرخش تحت فستان عايدة ، ثم شاهد الصبي الشيء يخرج من تحت الفستان . كان رأس رجل

ولدته كوثر . كان الرجل يشبه عمّه سليم كثيرًا ، ثم استلقى الرأس ، الذي كان يقطر من فمه ماء يلمع ، على صدر كوثر ، يتمتم بعبارات غير مفهومة . وقفتْ كوثر وسط الغرفة . سددتْ إليه نظرات معاتبة . قالت له إنها ستسامحه على شقاوته هذه المرّة ، ثم خلعتْ ملابسها ، ووقفت وسط اللّجن وطلبتْ منه أن يفرك ظهرها بالليفة . «شدّ يدك» قالت له ، «لماذا يدك مرخيّة؟» ثم سحبته إلى جانبها في اللجن ونزعت ملابسه وأخذت تفرك ظهره ومؤخرته بالليفة بقوة . نادت عليه فريال . كانت تحملُ زبديّة حليب بالأرز فاحت منها رائحة ماء الزهر . سألته عن أبيه ، فأجابها أنه في البيت . أخبرته بأنْ يقول له إن والدها الحاجّ يسأل عنه دائمًا وهو نائم الآن . وقبل أن تعطيه الزبديّة همستْ في أذنه ألا يخبر أمه بما دار بينهما . انقضّ أحمد وحسن على الزبديّة . سألته هاجر ما إذا كانت فريال أخبرته شيئًا . نظر إلى الزبديّة التي كانت تفرغ بسرعة وهز رأسه أن لا . والده أطبق الباب وراءه خارجًا . تركه وحيدًا ، مع حرارته ، في الغرفة .

شاهدَ القطار يقبل مسرعًا ، يسبقه صوت صفارته الغاضب يشقّ سماء المخيم الواطئة . الصوت كان يعلو ويقترب ، وخشخشة العجلات الهائلة كانت ترجّ فوق السكة . وقف مع صبية المخيم على السكة الحديدية ، يتحرّشون بالموت . مع دنوّ القطار ، كانوا يثِبون على جانبي السكة كحمامات تملّكها فزع مباغت ، الواحد يطير تلو الآخر عند لحظة ما قبل الدّهس الحاسمة ، وهي لحظة تحدّدها درجة الخوف الكامنة في السيقان الهزيلة . لكنّه كان دومًا الأكثر ثباتًا على السكة حتى ما قبل لحظة الدّهس الحقيقية جدًا ، التي لا تحتمل التساهل أو المشاكسة . ملأ القطار الدنيا المجاورة عويلاً . طار الصبية من فوق السكة تباعًا . ثبّتَ قدميْه في الأرض التي ارتجفتْ من تحته . صرخ عليه رفاقه كي يقفز مبتعدًا . لم يدركوا أن فردة صندله البلاستيكي علقتْ تحت أحد القضبان المُستعرَضة .

القطار كان يقترب كثيرًا ، واهتزاز الأرض من تحته كان يشتدّ ويتعاظم ، وصوت العويل خرق أذنه . انحنى على القضيب ينبش ما حوله وأسفله بأظافره كحيوان يائس في محاولة لإحداث فجوة تمكّنه من خلخلة صندله العالق في الداخل ، لكن الصندل ظل محشورًا في الداخل ، رفع رأسه فرأى الموت على وشك امتطاء صدره . شعر بنفسه يطير . عندما نفض التراب من على ملابسه ، وجد فؤاد ممددًا على الرمل إلى جانبه .

كان فؤاد قد ركض نحوه ، جذبه من جذعه بيديه القويتين ، ليسحبه من صندله الذي ظلّ عالقًا تحت القضيب ويطير به مبتعدًا . تعبّق الهواء برائحة كريهة للبلاستيك المحترق . قلبه لم يتوقف عن الطَّرْق بقوّة . ماذا سيقول لأمّه؟ عاد إلى البيت بفردة صندل واحدة . «كم مرة نبّهتُ عليك يا كلب يا ابن الكلب بألا تلعب على السكّة؟» انهالتْ هاجر على ذراعيه وساقيه وظهره بالفردة اليتيمة . «من شان الله . . من شان الله!» صاح . تقافز من الألم الذي سلخ بدنه ، لكنها لم تتوقفْ حتى انشطرتْ فردة الصندل . «يا ليتك متّ وأرحتَني .» ثم جلستْ على الأرض متربّعة . شلحتْ إيشاربها وحلّتْ جديلتها المحنّاة وفكّتْ أزرار قميصها ، لتكمش الهمّ من صدرها وتقذف به في الهواء ، تندب الحياة الشقيّة التي ابتلاها الله بها ، وتلوم محمد صراحة ، من وسط الدموع التي غسلتْ وجهها ، لأنه تركها وحدها مع ثلاثة أفواه لا تشبع إلا لتجوع ثانية . «روح . . الله لا يسامحك يا محمد يا ابن صبحية الناجي لا في الدنيا ولا في الآخرة . الله يحرمك عافيتك ويسدّ عليك أبواب رزقك التي تطعم بها فريال ولديها بدل أن تطعمني وتطعم عيالك!» لأيام ، ظلتْ البقع الكامدة التي تفشّتْ في ذراعيه وساقيه تنفثُ ألمًا لم سخيًا في جسده .

بعد ثلاثة أيام ، غادرته الحمّى ، وتراجعتْ زحمة الصور والبشر الذين لازموه في الغرفة . لكن الألم لازم جسده لأيام ثلاثة أخرى . كان كلّما

حاول أن ينهض من السرير ، كأنّ ذراعين تشدانه من الخلف إلى الأرض .
وقف فؤاد قبالته يتأمّل هيئته في مرآة الخزانة . استعاد صورته التي لم تفنَ في ذاكرته يوم كان يأتيه صبيحة أول أيام العيد بالملابس الجديدة ، يمشي بين أزقة المخيّم محتاطًا من سيول الماء والطين والحوائط التي تنزّ التراب على كائنات المخيم ما تفسد متعة الجديد والنظيف . سأله ما إذا كانت جاكيت البذلة تجعل كتفيه عريضتينْ . كتفا فؤاد عريضتان . منذ أن كان صبيًا في الرابعة عشرة ، بدأتا تعرضان بتسارع مع احترافه رياضة رفع الأثقال في «نادي شباب فلسطين» في المخيم . وحتى لمّا تخلّى عن رياضته تحت ضغط الحاجة ، واصلتْ كتفاه التمدّد عرضيًا حين عمل في فندق «الربيع» وسط السوق ، ينظّف غرف النزلاء ويفتّش الشراميط اللاتي يسرقن الصابون والبشاكير ، ويحمل السّكارى آخر الليل إلى غرفهم في الطابقين الثاني والثالث . بعضهم كانوا يغنّون من فوق كتفيه ، آخرون كانوا يتقيأون العرق والبيرة الرخيصة على ظهره . في ليالي كثيرة ، كان يذهب عند فؤاد في الفندق للمذاكرة معًا ، في ما يستطيعان اغتصابه من فراغ قليل متوافّر بين حمل سكّير وآخر ، وفي حال وجود ضغط عمل كان يساعده في حمل السكارى لقاء تقاسم فضلات الطعام في مطبخ الفندق . ذات مرة ، انزلقا معًا بنزيل ثمل ذي لحم فائض من أعلى درجات الطابق الثالث إلى أسفل . لحقتْ بالنزيل رضّات متفرقة في ظهره ، وأُصيبَ هو بالتواء في الكاحل ، بينما تعرّض فؤاد لانزلاق غضروفي . فُصل فؤاد من عمله .

قال له فؤاد دون أن تخفى الإثارة على وجهه أنه مع طلبة الكلية الموفودين من الأردن وفلسطين سوف يذهبون للقاء الشيخ عبد الله السالم الصباح ، أمير الكويت . يُفترض أن تأتي سيارات من القصر لتقلّهم . أبدى فؤاد أسفه لأنه لن يستطيع أن يرافقهم في هذا اللقاء التاريخي ، لكنه وعده أن يقصّ عليه كل شيء عند عودته . نهض من السرير بصعوبة .

وقف عند شباك غرفته المطل على الشارع ، يراقب السيارات السوداء تنطلق بزملائه الذين ارتدوا بذلاتهم التي وفروها لهذا اليوم . تبادل مع فؤاد التحية من وراء نافذته ، ثم عاد إلى سريره مُنهكًا كأنه قطع صحراء شاسعة استقرّتْ أطرافها متعبة على حافة السماء .

صحا على خبط خفيف على الباب . همَّ بالنهوض ، فدلّى إحدى ساقيه على الأرض متكئًا براحة يده على السرير لكن يدًا أخرى ، غير يده ، أرجعته إلى الوراء ليستلقي على ظهره ثانيةً . رفع رأسه إلى أعلى ، فأبصر رجلاً بدشداشة تضيء من شدّة البياض فوقها بشت أسود شبه شفاف بحواف عريضة مطرزة بخيوط القصب الذهبي ، يقف أمامه . فاحت منه رائحة نظافة وراحة . كان في أوائل ستيناته بلحية رمادية خفيفة ، لكن آثار العافية وتراخي البشرة وانبساطها الذي يتوافر مع الوفرة والسعة تجعله يستطيع أنْ يدّعي أنه لم يفارق أربعيناته . قال له إنه وجد الباب مفتوحًا فدخل . سأله عن سكن الكلية ما إذا كان مريحًا ، فلم يجبْه . حاول أن يتبيّن ما إذا كانت الهيئة التي تتحرك أمامه من بقايا الهيئات التي آنسته في أيام الحمّى . لكنها المرة الأولى التي يراه فيها ، ومع ذلك بدت سحنة الرجل مألوفة بالنسبة له . استطاع أن يرى عند الباب رجالات كثرًا بعضهم بدشاديش وآخرون ببزات غربيّة . أشار لهم الشيخ ذو اللحية بأن يغلقوا الباب عليهما . جلس على حافة السرير . وضع يده على جبينه . ابتسم . قال له إنه حين كان طفلاً عضه فأر في قدمه وهو نائم . نظر إلى قدم الشيخ اليُسرى فلمح إصبع قدمه الكبيرة ملفوفة بشاش أبيض من تحت النعال . ضحك الشيخ وأشار إلى إصبعه الملفوفة : «هذه ليست عضة فأر ، وإنما ظفر انخلع من جذره!»

أراد أن ينهض من سريره ليقوم بواجب الضيافة ، لكن الشيخ الذي كان مبتسمًا طوال الوقت ، أصرّ عليه أن يظل مستلقيًا . «لا تزعج نفسك

أبدًا» ، قال له . أطلّ صوت محمد عبد الوهاب من مذياع صغير على الكومودينو الملحق بالسرير خفيضًا . طوى الشيخ جفونه ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة . سأله ما إذا كان يحب عبد الوهاب ، فرفع الشيخ الصوت . قال له إنه هو أيضًا مغرم بعبد الوهاب . وضع الشيخ إصبعه على فمه في إشارة له كي يصمت . علا صوت عبد الوهاب بـ«عندما تبدو النجوم في السماء مثل اللآلي ، اسألوا هل من حبيب عنده علم بحالي» ، فعرضتْ ابتسامة الشيخ . إذ تسارع النغم وتمايل أمال الشيخ رأسه ، مغمضًا عينيه ، حتى إذا بلغت الأغنية المقطع الأخير بلغت اختلاجة جسده ذروتها : «هل تُرى يا ليل أحظى منك بالعطف عليّ ، فأُغني وحبيبي والمُنى بين يديّ .» فأغمض عينيه هو الآخر ونام .

فتح عينيه . أبصر فؤاد فوق رأسه . نظر حوله ، فتأكد له أنه على سريره . سأله ما إذا كان شاهد شيخًا في الغرفة ، فجسّ فؤاد جبهته المندّاة بالعرق ، مطمئنًا إلى أن الحمّى لم تعاوده . أخرج فؤاد من جيب الجاكيت ورقة بيضاء فتحها بحرص شديد ثم ناوله قطعة حلوى تمر مطعّمة بالسمسم وأخرى بجوْز الهند ، قائلاً : «إنها من ضيافة الأمير .» طفتْ على وجه فؤاد تلك الابتسامة التي يتذكرها جيدًا ، حين كان يصطحبه إلى مطبخ فندق «الربيع» للبحث عن بقايا الطعام في الصحون ، التي لم يأت عليها الزبائن تمامًا . التهم القطعتيْن ، دون أن تفارق صورة الشيخ عينيه . حدثه فؤاد عن القصر المهيب المطلّ على البحر . كان بدأ يتحدث عن أشياء أخرى في القصر ، حين قاطعه فجأة ليسأله عن الأمير : «هل كانت إصبع قدمه ملفوفة بشاش أبيض؟» تبخرتْ الابتسامة من على وجه فؤاد . أدرك أن أحد الزملاء سبقه إليه ليقصّ عليه كل شيء ، حتى ملاحظة الإصبع الملفوفة التي أثارت دهشة الطلبة . طلب منه فؤاد ألا يُرهق نفسه بالاستماع إليه وأن ينام .

صحا أخيرًا . جلستْ هاجر على طرف السرير . قالت له إن النهار انتصف . أمامهم يوم طويل . الرجال سوف يتجمّعون في بيتهم في العصر ومن ثم سوف تنطلق النسوة إلى بيت عروسه نعمة . الليلة ليلة الحناء ، وغدًا العرس . طمأنته بأن حسن سوف يمرّ على محلّ الحلويات لإحضار سدور الكنافة النابلسية . لم يكن قلقًا من هذا الموضوع . ما أقلقه أن نعمة حاملة شهادة التوجيهي «راسب» ، البيضاء ذات الشعر العسلي المموج الطويل والعينين المغمورتين بالكحل السميك ذي الذيل المشقوق في الطرف ، التي تسببتْ في معارك كثيرة لمعت فيها أنصال أمواس بين أشقائها وزعران المخيم ، الذين كانوا يتحرشون بها في طريقها إلى مدرستها ، لم تَرُقْ له تمامًا . لم يقل ذلك لهاجر ، التي رقصتْ كثيرًا يوم قراءة الفاتحة قبل أسبوع من العرس حتى سقطت على الأرض من الإعياء . وفي صباح اليوم الثاني ، استعادت أغاني ليلة الخطبة وهي تعجن الخبز . ثم حين غطّتْ أقراص العجين بعدما فردتها بالشوبك ، واصلت الغناء والتمايل وهي تفتل في البيت تكنس وتغسل وتطبخ . وحين انطلقتْ إلى أبو شكري الفران تخطر بخفة ، تحمل سدر عجين الخُبْز فوق رأسها لخَبْزه ، باركتْ لها النسوة اللاتي أطللن من نوافذ البيوت الملتحمة على زقاق المخيم ؛ فازدادتْ سعادة وامتلأت بهجة ولفت حول نفسها ودارت ترقص تحت عيونهن الحاسدة ، يميل على إيقاع زغاريدهن الطنّانة سدر الخُبز فوق رأسها على الجانبين دون أن يقع . لقد ظفرتْ بأجمل بنات المخيم .

تربع على السرير ، مسندًا ظهره إلى الحائط ، مُنقّلاً بصره في الحجرة التي لم تتغيّر كثيرًا منذ أن تركها قبل سبع سنوات . تكدّستْ فرشات ولحف ووسائد إضافية ، بعضها فوق بعض ، عند فجوة في الجدار مصممة خصيصًا لهذا الغرض . علتْ سقف الخزانة ذات الأبواب الفورمايكا طبقات زيادة من القدور والصواني الألمونيوم وصناديق من الكرتون

وحقيبتين جلديتين قديمتين . صناديق أخرى محكمة الإغلاق احتشدتْ تحت سريري الغرفة الحديديّيْن . حسن أدخل بضعة تعديلات على البيت ، فرفع جدارًا من الاسمنت في غرفة الصالون شقّها إلى غرفتين ، استغلتهما هاجر بأن جعلتْ واحدة للضيوف الموسميين والثانية للضيوف المنتظمين ، خاصة من الجارات اللاتي يلزقن بها طوال اليوم أو الأقارب في المخيمات المجاورة الذين يكرّجون عندها لأيام . كما شيّد لها على السطح قنًّا لتربية الدجاج ، في ما بدأ كتسلية أول الأمر ما لبثت أن حولتها إلى تجارة تسهم في سدّ حاجات الأسرة ، عبر بيع الدجاج والكتاكيت والبيض البلدي للوالدات أو الحبالى المتشهونات .

كان قد تخرّج من الكلية الصناعية ، بعدما أكمل علومه في الهندسة الإلكترونية ، والتحق بوزارة البريد والبرق والهاتف في الكويت . ظل في الوزارة ، التي تحوّلت إلى وزارة المواصلات ، حتى اجتياح العراق الكويت . في البداية كان موظفًا في دائرة البرق في مدينة حولي مسؤولاً عن صيانة الأجهزة في قسم الرسائل البرقية ، ثم موظفًا إداريًا في قسم الاتصالات الخارجية في الوزارة . منذ تخرّجه من الكلية وفي كل إجازة له في الصيف ، كانت هاجر تفتح معه موضوع الزواج . في العامين الأخيرين ، تحول الأمر إلى إلحاح من جانبها . حسن تزوج زهرة ، ابنة ابن عم أمه ، وانتقل معها إلى بيت أكبر قليلاً من بيتهم في الصف الرابع من المخيم ، استأجره من أصحابه ، الذين تركوا المخيم إلى أحد أحياء الزرقاء التي كانت تتمدد في الصحراء ، بستّة دنانير شهريًا . بالرغم من تحسّن دخله بعدما ترقّى بشطارته وهمّته إلى «معلّم» بناء ، إلا أن زهرة بذرتْ له في خمسة عشر عامًا تسعة عيال ما جعله يحفر في التراب بأظافره بحثًا عن الرزق . زيارات أحمد لهم أصبحت بعيدة . حتى الفلوس توقّف عن إرسالها متحجّجًا بعدم استقراره في عمل ثابت في العراق . تنوّعتْ أعماله

غير الثابتة بين العمل كسائق شاحنة لنقل الخضار بين تركيا ودول الخليج ، مرورًا بالعراق ، وشراء أرض مزروعة بالطماطم والخيار في موسم فاضت به حاجة البلاد عنهما ، واستثمار مال صديق عراقي له في مطعم «باجة» في بغداد جلب عليه ديونًا ، باعت هاجر سوار الليرات الذهب اليتيم الذي تملكه لسداد بعضها ، وسدّد الجزء المتبقّي بأن تزوّج شقيقة صديقه العراقي ، شريكه في المطعم ، المطلّقة .

بعد ثلاثة شهور من زواجه ، لحقتْ به نعمة إلى الكويت . استقبلها في المطار . جاءته بكامل زينتها . في سيارة الأجرة التي أقلّتهما إلى بيتهما ناولها محرمته المطويّة في قميصه . طلب منها أن تمسح الكحل السميك حول عينيها . امتقعتْ المحرمة بالكحل السائل المذاب في دموعها . ظلت تبكي طوال الطريق من المطار إلى البيت . واصلتْ البكاء حين صعدت الدرجات إلى شقة الزوجية في الطابق الثاني من العمارة الكائنة في حولي . علّقتْ دموعها بعض الوقت وهي تتجوّل في الشقة المؤلفة من غرفتي نوم وصالون . لم يعجبها الأثاث . طقم الكنب في الصالون أحمر بقوائم معدنية قصيرة ونحيلة . جلستْ على كنبة فانزاحت من مكانها لخفّتها . النوافذ كانت مغطاة بورق صحف . سألته عن الستائر . قال إنّه غدًا صباحًا سوف يشتريها . جلستْ على السرير في غرفة النوم . أنَّ السرير تحتها . جلس إلى جانبها ، فكتم السرير حشرجة انطلقتْ من أحشائه غصبًا عنه . وقعتْ عينها على الخزانة . مرآتها التي تكسو بابها الأوسط مكسورة من نصفها العلوي . اعتذر عن سوء حالة الأثاث . لم يتمكّن من شراء أثاث جديد . سوف يركّب مرآة جديدة للخزانة في أقرب فرصة . عاودت البكاء ثانية ، فسال الكحل أنهارًا سوداء على وجنتيها .

مسح آثار الكُحل عن وجهها بمحرمته المتّسخة . قبّلها من عنقها . ألقى بنصفها العلوي على السرير بينما تدلتْ قدماها على الأرض . أدخل

يده من تحت سروالها . مسح سهلها ، المتهضّب قليلاً ، الناعم والرطب ، براحة يده . تأمّل وجهها الذي غشته الدوخة وسواد الكحل الذائب . شدّها من يدها فأفاقت من دوختها شبه مفزوعة ثم سحبها إلى الخزانة حيث المرآة المكسورة . أوقفها مقابل المرآة . أرخى سروالها . رفع فستانها إلى أعلى فتبدّتْ في المرآة ساقاها وبطنها حتى ما فوق السّرة بقليل . استلّ ذكره الذي بلغ انتصابه أشدّه وقد أرخى بنطلونه دون أن يشلحه وحشره ما بين ساقيها من الخلف . أخذ يهتز ، فانساق الجزء السفلي من جسدها مع إيقاع جسده . أدارها إلى الجنب ، متأملاً في المرآة «بروفيل» مؤخرتها . طلب منها أن تنحني ، فانحنتْ متكئةً بيدها على حافة السرير الموازية للخزانة . غاص في ثنيات سهلها المنبسط . دخل فيها بقوة ثم خرج بقوة ، وإذ لبّى اندفاعته الأولى عاد فتباطأ ليأتيها بوتيرة أكثر سلاسة وهدوءاً ، قد تتسارع حينًا وقد تتراجع ، عينه على المرآة طوال الوقت ، حيث نصفه ملتحمٌ في نصفها .

لسنوات ، ظل يفضّل أن يمارس الجنس مع نعمة وقوفًا أمام المرآة . في كل المرات لم يكن يرى وجهها . وفي كل المرات كانت عينه على المرآة يتابع التحام نصفيهما . في بعض المرات ، كانت نعمة تفتح فمها ، تقول له إن ظهرها تعب من الانحناء أو أن ساقيها قد تتداعيان ، وأن عليه أن يفرغ بسرعة ، فيطلب منها أن تسكت . فإذا فتحتْ فمها ثانية كان يضع يده حول فمها ، لتتأوّه ، ليست منتشيةً لزامًا . بعد عشر سنوات ، اضطرّ ، تحت إصرار نعمة ، إلى شراء غرفة نوم جديدة بمرايا غطّتْ الأبواب الأربعة للخزانة ، فتراجعت لديه ممارسة الجنس وقوفًا أمام المرآة ، ضمن تراجع الجنس عمومًا في علاقتهما ، واكتفى بجسدها على السرير ، معتمًا ، مغطى ، صامتًا . من جانبها ، لم تكن نعمة تطلب الجنس ، وإذا أتاها دون أن تطلبه ، كانت تتعاطى معه بأقل قدر ممكن من العري والتفاعل ، وقد

راح شغلها الشاغل في الحياة ينصبّ على غسل البشاكير والشراشف في البيت بصابون فواح، وتنظيف أرضية البيت بالكلوركس والديتول، واستبدال ستائر البيت من وقت لآخر بستائر أخرى ذات طبقات عدة من القماش، بديكورات لا تتناسب فخامتها مع صغر مساحة شقتهم، وشراء المزهريات والزهور الصناعية، وتكديس خزانة البوفيه في الصالون بالأطقم الصيني والأواني الكريستالية التي لا تُستعمل. وإذا ما قادته الرغبة إلى المرآة، كان يغمض عينيه في لحظة التخيّل الحاسمة والملحّة. في معظم الصور المتخيّلة، كانت كوثر تعير صورتها لنعمة، وقد تكون الصورة لفريال. حتى ربيحة و«بناتها» كان لهن مكان في ألبومه.

كان ينطلق بسيارته البويك المستعملة إلى بيت ربيحة وبناتها في البصرة مرة في الشهر أو كل شهرين. لم يكن يقرب بناتها، رغم اشتهائه بعضهن، خاصة سهام، ذات الشعر الأحمر النحاسي، والعينين كحبتي البندق. كان يرافقه سالم، صديقه الضابط في الجيش الكويتي، للحصول على تموينهما من الكحول. نادرًا ما كانا يبيتان في البصرة. في المساء، كان سالم يتوقف عند بيت ربيحة، وغالبًا ما ينتظره في السيارة أو في الصالون، غرفة استقبال الزبائن، حيث ترحّب به ربيحة، تقدم له مشروبًا وتشكو له أولئك الذين يريدون أن يركبوهنّ ببلاش، فيرسل لها سالم نظرة ذات مغزى وهو يعدّ الدنانير في يدها. كانت قد عرضتْ عليه سهام، حين استشفّتْ اشتهاءه غير الخافي لها، لكنه اعتذر، ليس تعففًا وإنما لهيئات الزبائن الذين كانوا يتناوبون على بناتها. بعضهم رائحة حموضة أجسادهم كانت تترسّب ثقيلة في المكان حتى بعد وقت من مغادرتهم. سمع عن زميل له في العمل أصيب بالزهري من بيت شبيه ببيت ربيحة ومن بنت تشبه إحدى بناتها.

وهنّ في واقع الأمر لسن بنات ربيحة وإنما ربيباتها أو ما يشبهن ذلك،

بعضهن لقيطات ، أخريات هاربات من أسرهن ، تؤجّر أجسادهن للوافدين إلى بيتها في البصرة ، مقابل إيوائهن وإطعامهن وإكسائهن وحمايتهن ، وإن كانت حمايتها غير فاعلة دائمًا ، ففي حالتين مسجلتين قُتلتْ بنتان من بناتها ، واحدة على يد شقيقها وأخرى على يد ابن عم لها . وهناك حالة لواحدة من بناتها هربت مع زبون ، سمعت ربيحة لاحقًا أنه فتح لها بيتًا كبيتها تديره مع بنات أجمل وأصغر من بناتها . في المرة الأخيرة التي توقف فيها عند بيت ربيحة ، آثر أن يظل في السيارة ينتظر سالم . كانت الساعة تقارب الحادية عشرة مساء حين غفا قليلاً على كرسي القيادة . صحا على صوت صراخ اشتد تدريجيًا من داخل بيت ربيحة . خرج سالم من البيت يركض يمسك غترة الرأس البيضاء بيده دون عقاله ودون نعاله . فتح باب السيارة وقفز إلى المقعد وطلب منه أن ينطلق بسرعة . أدار محرّك السيارة واستدار بها جهة اليمين . خرجت ربيحة من البيت تحمل عقالاً وفردة نعال تنعت سالم بأقذر الشتائم . وإذ ابتعدتْ السيارة بما يكفي ، فتح سالم الشباك وأخرج يده لربيحة في إشارة وسخة . اكتفيا في سفراتهما القليلة اللاحقة إلى البصرة بشراء الكحول . معارف سالم في منطقة العبدلي الحدودية بين الكويت والعراق كانوا يسهّلون إجراءات التفتيش . في السنوات الأخيرة ، حين ترقّى سالم إلى نقيب لم يعد يذهب إلى البصرة ، وأصبح التموين يصله إلى باب بيته .

وقف عند باب بيته طويلاً . دق الجرس بإلحاح . فتح له سالم أخيرًا . ظهر حاسر الرأس بدشداشة قذرة لم يخلعها منذ أيام وبلحية غير مشذّبة ، خالطها البياض والفوضى . قال له سالم إن جيرانه في الحيّ حذروه من أن أفرادًا من الجيش العراقي الغازي يسعون في أثر عناصر في الجيش الكويتي من ذوي الرّتب . حاول أن يطمئنه بأن الوضع ليس مرعبا لهذه الدرجة ، لكنه لم يطمئن . بعد تفكير ، طلب منه أن يعطيه كل ما له علاقة بانتمائه

إلى الجيش الكويتي . أخذ جواز سفره وبطاقته العسكرية وأوراقًا أخرى ، ووضع بزته العسكرية ، بالنجمات ، وجزمته وحزامه الجلدي وقبعته ومسدسه في كيس قمامة أسود بلاستيكي سميك ، ووضع الكيس في صندوق سيارته التويوتا كراون ، وهي آخر سيارة مستعملة اقتناها في الكويت ، وانطلق نحو طريق المطار . انحرف باتّجاه طريق ترابية ، حيث قطع عشرة كيلومترات على الأقل في الصحراء قبل أن يتوقف في محيط الرمل الشاسع . أوقف سيارته ، متلفّتًا حوله في صرامة الصمت الذي شمل الليل الغامق . باستخدام الرافعة الحديدية الخاصة بتركيب الإطارات حفر حفرة حشر فيها الكيس الأسود بعدما أحكم إغلاقه . ثم هال عليه التراب ووضع حجرًا كبيرًا فوق مكان الحفرة كعلامة .

تعبّق عرقًا ورملاً . في طريق عودته إلى سيارته خرجتْ ذراع من الأرض من تحته قبضتْ على ساقه المرتعشة . تسمّر في مكانه . نظر إلى الأسفل فلمح عينين يلمع بياضهما وسط وجه غطته الظلمة والوجل والموت المتباطئ . انحنى إلى حيث ربض الوجه المشدوه ، فوجد جنديًا عراقيًا تكوّر في قبر انزاح غطاؤه الكرتوني . كان قد مشى بمحاذاته أول ما وصل دون أن يلحظ أن تحت الغطاء الكرتوني حفرة تتسع لبني آدمي متكوّر . شفتاه كانتا متورّمتيْن ومتشقّقتيْن ومدميتيْن من الجفاف ، وقد فاحت من الحفرة رائحة بول وبراز . علتْ وجهه طبقة من السواد والاحتراق من طول النهارات الحارة وليالي الصحراء الباردة . فقد قميص بزته العسكرية أزراره وغزت المزق بنطلونه . انحنى عليه أكثر . كان يرتجف ، ويتمتم بكلمات غير واضحة . قرّب أذنه من فمه الذي فاحت منه رائحة عطنة . همس له الجندي أنه لم تدخل فمه لقمة أو نقطة ماء منذ ثلاثة أيام . ضغط على يده وقال له إنه سيحضر له طعامًا وماء وسيعود إليه بعد ساعة . وقف ليمشي فأمسك الجندي بساقه بيد مرخية واهنة . نظر إلى

عينيه اللتين ارتفعتا إليه برجاء فوجد الدمع قد غشاهما ثم إذ سال على وجنتيه المحفورتين علت في الفراغ شهقة بكاء مخنوقة . انحنى عليه ثانية وقال : «والله سوف أرجع!»

كانت نعمة تغلّف التحف والأواني الخزفية والكريستالية بورق الصحف وتخزنها في صناديق تحسّبًا لاحتمال وقوع الحرب الواردة جدًا بعد توجيه أميركا الإنذار الأخير للعراق كي يسحب قواته من الكويت . وضع جواز سفر سالم وأوراقه في الحقيبة التي يحتفظ فيها بجوازات سفر العائلة . قالت له إنه خالع إذ يفكّر بأن يذهب إلى الجندي المدفون حيًا ثانية . ماذا لو أمسك به الجيش العراقي؟ سوف يعدمونهما معًا . ثم ماذا لو أمسك به الكويتيون الحاقدون؟ كانت سمر مستلقية على الكنبة بالشورت تتحدّث على الهاتف ، كعادتها ، مع باسل . صرخ فيها كي تنهض لتساعده في جمع بعض المواد الغذائية . قالت له إن باسل سوف يسافر إلى عمّان قبل نشوب الحرب . قال لها : «أحسن!» ثم طلب منها أن تستر بدنها . سأل عن فراس فأجابته نعمة التي كانت تبحث عن بشكير ناقص في دزينة جديدة من البشاكير لم تستخدمها أنه خرج لشراء سجائر كما أوصاه . وزّع في مجموعة أكياس صغيرة علب جبنة وفول وحمص وذرة وفطر وتونة وسردين . وضعتْ سمر تشكيلة من الفاكهة من الثلاجة في كيس ، كما ناولته ربطتي خبز وزجاجتي ماء . رجته ألا يذهب الليلة . يستطيع أن يذهب في الصباح ، لكن الليل كان أكثر أمانًا ثم إن حياة البائس قد لا تنتظر حتى الصباح . لحقتْ به نعمة حتى الباب . كان قد أخذ بطانية من نوع «مورا» الأسباني . نزل الدرجات يحمل الأغراض بسرعة . نادت عليه كي يرجع بطانية الـ«مورا» ويستبدلها بنوع آخر كوري . ظلتْ تنادي دون جدوى .

في الطريق أوقفه عناصر من الجيش العراقي عند إحدى نقاط

التفتيش . سألوه عن وجهته . ذكر لهم اسم فؤاد ، صاحبه الذي انقطع من الخبز ومواد غذائية أخرى . لم يبدُ عليه التوتّر . وصل إلى جنديّه بسلام . كان لا يزال متكوراً في جُحره . أعطاه الماء والخبز والفاكهة والمعلبات ودثره بالبطانية . في طريق عودته ، توقف عند شقة فؤاد في الفروانية . استقبله أحد أولاده الستة . قاده إلى غرفة الضيوف حيث جلس والده وسط كومة من كراتين الأجهزة الإلكترونية . كان يمسك مجموعة من الأوراق ويصيح في ولد آخر ، يتهمه بسوء التصرف بالبضاعة . توقف عن الصياح قليلاً ليصافحه ثم واصل من حيث انقطع . قال له ألاّ يبيع أيًا من كروزات السجائر المتبقية ؛ يكفي الخسارة التي تكبدوها حتى الآن . نادى على ابن ثالث له وسأله عما إذا كان قد تفقد أجهزة الكمبيوتر في الشقة المقابلة وتأكد من أن جميعها ملحقة بلوحة المفاتيح الخاصة بها ، فهزّ الفتى رأسه بالإيجاب . نادى على رابع واستفسر منه عن صناديق الأحذية ، فأجابه أنه وضعها في غرفة الطعام بعدما فرزها وسجّل سائر القياسات والألوان والموديلات . استدار فؤاد نحوه وأخرج من تحت مقعده عيّنة لحذاء رجالي بنّي . نقر على كعبه وقال له إنه جلد أصلي . ثم قلبه على قفاه وقال : «انظر! Made in Italy ، صناعة إيطالية مئة في المئة .» صاحبها ، مدير محلات «الحذاء الذهبي» في السالمية ، اضطر لمغادرة الكويت بعد شهر من الاجتياح العراقي للكويت . كان قد استوردها قبل يومين من الحرب . لا يقل ثمن الزوج الواحد عن ستين دينارًا . اشترى فؤاد البضاعة كلها بسعر ثلاثة دنانير للزوج ، حيث يبيع الواحد منها الآن بين عشرة وخمسة عشر دينارًا . عرض عليه زوجًا ، فرفض شاكرًا .

حاول أن يُقارب بين فؤاد ، رفيق تحدي القطارات على سكة الخيم الحديدية في الزرقاء ثم رفيق الدراسة في الكلية الصناعية في الكويت ، وفؤاد الذي استأذنه ليتفرّغ لحسابات ضرورية فوجد أن الشبه بينهما بعيد

جدًا . لاحظ للمرة الأولى أن كتفيه تقلّصتا على حساب بطن هائلة ، تضخّمت أكثر مع الدشداشة التي أضحت تلازمه في السنوات الأخيرة ، خاصة يوم الجمعة حين يذهب لصلاة الظهر ، أو حين يذهب إلى حسبة الخضار أو الجمعية .

كان فؤاد قد تخرّج معه من الكلية الصناعية والتحق بوزارة التربية والتعليم ، كمعلّم للعلوم . بالرغم من تراجع مستويات صداقتهما في السنوات الأخيرة ، إذ سار درب حياتيهما في اتجاهين مختلفين ، لكن فؤاد ظل ظلاً للماضي الذي لم يندثر من حياته تمامًا ، فكان يخرج معه يوم الجمعة إلى حسبة الخضار ، وكان مرجعه في شراء السيارات المستعملة ، يصطحبه إلى حراج السيارات ويساعده في المفاصلة والمجادلة ، كما كان يدعوه مع عائلته للخروج في نزهات «هش ونشّ» في برّ الكويت . ولم تكن بُشرى ، زوجة فؤاد ، التي لا تظهر أمام الخلق إلا مشنشلة بالذهب ، تخفي غبطتها بالحياة ذات الوفرة في الطعام والشراب والأنس المجاني في الحدائق العامة ونزهات البر . وقف مودعًا فؤاد ، فحلفتْ عليه بُشرى أن يظل معهم للعشاء ، لكنه اعتذر لأنه لا يستطيع أن يتأخر في العودة بسبب انتشار الجيش في الشوارع . قبل أن يصل إلى الباب ، كان فؤاد قد بدأ يصرخ على أحد أبنائه ، ابن الكلب ، يهز ورقة غاصّة بالأرقام ويسأله عن النّقص في حساب الجلابيّات النسائيّة المطرّزة .

من بين حزمة من الأوراق والملفّات تكدست فوق مكتب رمادي في غرفة رمادية بباب رمادي وشباكٍ بستارة رمادية مسدلة ، رفع المحقّق الكويتي رأسه ، ثم سأله متصنّعًا الصبر والحكمة ، وإن أوحى له أن صبره لن يطول كثيرًا :

- ما زلتُ أنتظر جوابًا منك . . هل كنت تُهرّب الطعام والشراب للجنود العراقيين في خنادق القتال؟

ساعد سالم في نقل متاعه القليل وزوجته إلى شقّة فرغتْ في عمارة قريبة من عمارته الكائنة في حولي ، بعد أن أشار عليه بأن يغادر فيلته في ضاحية كيفان . أحضر له هوية تعود لسائق من فئة «البدون» يعمل في دائرته في وزارة المواصلات . كان يمرّ عليه يوميًا حتى عندما بدأ القصف الجوي لقوى «التحالف» على العراق والكويت ، يؤمّن له الشراب والطعام . حدّثه عن الجندي العراقي الذي كان يهلك ببطء في جحره ، فبكى سالم كثيرًا لأنه تذكر أبناءه في لندن ، الذين لم يعد يستطيع الاتصال بهم .

بعد تحرير الكويت ، ذهب إلى سالم في شقة حولي فوجد بابها مفتوحًا على فراغ وصدى . دقّ على باب فيلته في كيفان ، فلم يفتح . على مدى ثلاثة أيام كان يدقّ ، يقف طويلاً ، ينتظر أن يفتح له ، لكن الباب الأسود العريض ظلّ مغلقًا .

نقر المحقّق بأصابعه على ملف مفتوح أمامه وقال :

- لدينا معلومات مؤكّدة بأنك كنتَ تذهب ليلاً إلى القوّات الغازية المتخندقة تُزوّدها بالمؤن الغذائية .

كأنّ به يسمع النغمة التي يعرف ويحبّ ، تتسلّق الجوّ ببطء ثم تتسارع قبل أن تهدأ قليلاً لتمهّد لصوت عبد الوهاب يرنّ بـ«عندما يأتي المساء» . كان الأمير يجلس إلى جواره على السرير . نظر إلى إصبعه ، فوجدها لا تزال ملفوفة بالشاش الأبيض . أمال رأسه ، وقد نهضتْ حواسه واشرأبّتْ أحاسيسه استعدادًا لنشوة النغم القادمة مع «كُلّما وجّهتُ عيني نحو لَمّاح المُحيّى ، لم أجد في الأفق نجمًا واحدًا يرنو إليّ .»

لكن النغمة انطفأتْ بقسوة مع خبط المحقّق بيده على الملف . قال له بكلمات خرجتْ من شفتيه شبه الملتحمتين متشنّجةً إنه لن ينتظر الجواب إلى الأبد .

الجزء الثالث

(١١)

كمال القاضي

مطّتْ الصغيرة ذات الثمانية أعوام رأسها إلى أعلى . تهدّلتْ ضفيرتان خمريّتان سميكتان على كتفيها . كان واقفًا على الباب ، يقارع بطوله عينيها اللوزيّتيْن الواسعتيْن ، لكن نظراتها المستغربة غلبته . سألها عن الحاج برهان ، فاستدارت راكضةً ، تُنادي : «أبي . . أبي!» استقبله الحاج برهان الراوي مهّللاً ، مرحّبًا . ثم قاده عبر باحة البيت إلى غرفة الضيوف .

كانت تلك المرة الأولى التي يزور فيها الحاج برهان في بيته في الصالحية . على عتقه ، لم يفقد البيت الدمشقي مهابته الأولى . توسطتْ الباحة بحرة ، بُلِّطتْ جوانبها بالفسيفساء الأزرق النيلي . طُليتْ من الداخل بلون أزرق فاتح ، فتلوّن الماء بلون السماء الصافية . على عتبة حافتها العريضة ، ربضتْ جاطات الفواكه ، فتندّتْ الكمثرى والخوخ والمشمش والعنب والدراق برذاذ الماء المتطاير من نافورة ناحلة ارتفعت من قلب البحرة . تناثرتْ في الباحة أصص النباتات ، كما ارتفعتْ من خاصرتها دالية ، سقفتْ الفضاء .

بعد مضيّ أسبوع على وصوله إلى دمشق دعاه الحاج برهان لتناول الغداء مع أسرته . سأله عن إقامته في بيت الست دلال ، فلم يبالغ حين قال له إنه يشعر أنه في بيته . ولم يكذب كثيرًا حين قال له إنّ الستّ

دلال تشبه أمّه . أم عادل ، زوجة الحاج برهان ، غمرته بلطفها وكُبّتها وصفيحتها الشامية واليالنجي والمحشي والمخشي . من خلف البحرة المواجهة لغرفة الضيوف استرقتْ الصغيرة ذات الجديلتيْن الخمريّتيْن النظر إليه . إذ تلتقي عينه عينها صدفةً ، تحرّك رأسها متواريةً خلف ماء النافورة الهزيلة في الوسط أو قد تخفض رأسها إلى الأسفل . واصلا لعبة تلاقي الأعين لدقائق ، مشيرًا لها أخيرًا كي تأتي . ناولها لوح شوكولاته من جيبه ، فنظرتْ إلى والدها ، الذي هزّ رأسه مشجعًا ، فالتمعت عيناها اللوزيتان وهي تقبض على الشوكولاته الملفوفة بورق السيلوفان . نظرت إلى والدها ثانية ، تستأذنه :

- أبي . . أغني لعمّو غنيّة؟

أطلق الحاج برهان ضحكة عالية ، ثم هزّ رأسه موافقًا ، فأمالتْ رأسها على الجنب ، ورفعتْ كتفها ، محركةً جذعها الناعم أثناء الغناء : «تَعي عالفيّ ، تَعي عالفيّ ، أنا بِدّي شوفك لحظة بالله اسمحي شويّ ، البيضة قالت : أنا عيوني كبار ، وفرحانِة من الله بشعراتي الطوال ، روحي يا سمرا يا شعرِك شَعر جْوار ، بتروحي على الحمام ما بينْبلّ بميّ .» ارتفعتْ ضحكته مشتبكةً مع ضحكة الحاج برهان ، مأخوذًا بأدائها التمثيلي في الغناء ، سابقةً بملامحها التي استوعبت حسّ الفكاهة في الأغنية سني عمرها الثماني بسنوات كثيرة . قال له الحاج برهان إنها آخر عنقوده ، وأنها جاءته على شهوة ، بعد خمسة صبيان ملؤوا البيت فظاظةً وخشونة . طبع قبلة على جبينها وسألها عن اسمها ، فأجابته :

- ختام .

بعدما سبقه شقيقه الأصغر فتحي إلى الزواج بخمس سنوات منجبًا ولديْن ، بات زواج الأكبر قضية تشغل العائلة . على أنه لم يعتقد أن أباه كان جادًا حين اقترح ختام عروسًا له . بالنسبة لعزّام ، فإن مصاهرة الحاج

برهان الراوي مكسب . بالنسبة له كانت ختام طفلة ، لا تزال تلهو حول البحرة في باحة البيت ، يصله صوتها متعربشًا قطوف الحصرم إذ بدأت تشلح اخضرارها الحامض وهي تغنّي : «ياسمين الشام على خدِّك ، وحلاوة العسل من شهدِك ، اسم الله قمر ، يا ما شالله عليك يا قمر ، يا قمرنا يا منوّر ، مين قدّك» ، فتنادي عليها أمها لتترك «العنبات» ، فلا تعبث بقطوف الحصرم كي لا تقع حبّاتها على أرض الباحة وتجمع الحشرات حولها . الحاج برهان هو الذي استقبلهم . قاده مع والده وجدّته مسعدة إلى غرفة الضيوف . أرخى سمعه ، فلم تصله صوت أقدام صغيرة تركض في الباحة . انبثق الماء من نافورة البحرة بزخم أكبر . كانت المعرّشة حُبلى في أيامها الأخيرة ، حيث انتفختْ وجنات العنبات وانعقد شهدها ؛ بعضها ، إذ استوتْ تمامًا ، نزّتْ ماءها المسكّر . حين وقفتْ ختام على مدخل الباب ، تحمل صينية القهوة ، تفاجأ كيف أنّ كل فاكهتها استوتْ ، بهذا الزخم وبهذه السرعة . تابعتْ أم عادل دهشته ، التي انعكستْ في ملامحه ، مطمئنةً للأثر الأوّلي الذي أحدثته صغيرتها فيه ، متنقلةً بين نظراته ونظرات مسعدة ، التي جاءت نتيجة اختبار القياس والفحص بالنسبة لها مُرضية . انهمر شلال شعر الصغيرة الخمري على كتفيها مستقرةً أطرافه عند تلّتي صدرها اليافعتيْن . إذ التقتْ عيناهما بين رشفات القهوة ، خفضتْ بصرها ، لكنها ما لبثتْ أن أرسلتْ له طرف عينها اللوزية ، تريد أن تستوعب إحساسها الجديد به ، ملتقطةً ما يُلقيه لها من نظرة ، أو التماعة عين . كانت قد مضتْ عشر سنوات على صورة ذات الجديلتين السميكتين تتدارى من عينيه ، خلف البحرة ، سألها ما إذا كانت لا تزال تُغنّي ، فضحكتْ . ثم رفعتْ بصرها نحوه هامسةً :

– وما زلتُ أحبّ الشوكولاته!

اعتقد أنه وقع في هوى جسدها ، الخبيء تحت ملابسها ، من النظرة

الأولى ، وعندما عرّاها تأكد له أن هواه في محلّه . من النظرة الثانية والثالثة والنظرات التالية المتمعّنة ، إذ جاب بصره قماشة لحمها الساتاني في ثنياته غير المتغضّنة ، أُغرم بجسدها ، وتوطدّتْ متعته الحسيّة به ، حتى عندما تراجع عطاؤه في ما بعد . لا يعتقد أنه أحبّها ، بمعنى الحبّ الذي يتدرّج في المنطق الخاص به ، ضمن لا منطقيّة الحبّ . فهو لم يعرفها ، وإنْ كان الحبّ في أحد أوجهه لا يتطلب كثير معرفة . أراد أن يقطف فاكهتها ، التي بدأت تعطي عصارتها ، دون أن يُخضع إرادته تلك للتحليل ، ودون أن يبحث عن مشاعر معقّدة ومرهقة . كان شيئًا مثيرًا ، على نحو غامض ، أن يُقْبل على جسد رآه مشروع فتنة في طفلة ثم رآه فتنة حقيقية في امرأة . كانت شجرة ، أورقتْ وأزهرتْ وأثمرتْ ، وهو لاهٍ عنها ، حتى إذا جاء الأوان ، كان قطافها كله مُوفّرًا له . يعتقد بحقّ أنه عشق جسدها ، غير المثقّف ، غير المحنّك ، غير المتحذلق ، حيث المرأة فيه ظلّت كائنًا خالصًا ، امرأة خامًا ، بأقل قدر من التعليم والفذلكة التي تُشتّت الرغبات وتحيد بالشهوة عن مسارها الطبيعي .

استنزف قدراته التحليليّة ومشاعره مع نائلة . تعرّف عليها في الجامعة في السنة الثانية . كانت تدرس آداب اللغة الإنجليزية . تهوى قصائد نزار قباني وشعر الرومانسيين الإنجليز وسوناتات شكسبير ، تحفظ أبياتًا من أشعار شكسبير وويردزويث وكيتس وكولوريدج وشيلي ، معتدةً بإنجليزيّتها المُحسّنة . كانت تبتهج بميدالية رخيصة محفور عليها الحرف الأول من اسمها يشتريها لها من أحد بائعي البسطات عند سور الجامعة ، أكثر مما تفرح بعناق مُختلس في صالون الستّ دلال ، أو بيده الدافئة حين تندسّ في صدرها ، وهي تُنشد له بتقعير لغوي متعمّد :

Shall I compare thee to a summer's day? Thou art more – lovely and more temperate.

تُسعَد إذ تعتقد أن الكلمات الشعرية تثيره ، ما لم تفهمه ، أو تحاول أن تفهمه ، أن رغبته لم تكن تنهض على إيقاع كلماتها ، وإنما على إيقاع الطريقة التي يقرأ بها جسدها الشعر ، إذ تغمغم شفتاها أواخر الكلمات بطراوة ، وتغيب عيناها في شبه إغماضة ، ويعلو صدرها المنمنم ، وتميل قامتها النحيلة على موسيقى الوزن الشعري ، وتُسدل فوق وجهها إغماءة نشوة . حين تتخطى خدر الشعر ، يخطر في بالها فجأة ، خارج السياق تمامًا ، أن تسأله عن سرّ سطوة الجسد علينا ، مع أن الأجساد ، قد لا تكون جميلة ، ثم إنها تمرض وتهزل وتشيخ وتموت . يتعجّب من قدرتها على اجتراح فلسفة ما في ما لا يصحّ التفلسف بشأنه ، ويتعجّب أكثر أن تكون قد أفاقتْ من خدرها الشعري بسرعة ، في الوقت الذي يبدأ الخدر يسري فيه . ثم يخشى أن يجد نفسه يؤمن بما ذهبتْ إليه جدّته مسعدة من أن التعليم يخرّب عقل البنت ؛ في حالة نائلة فإن الثقافة المُستَحدثة تفسد فطرة الرغبة الأولى .

أخيرًا ، تقرّر نائلة أن تترك الفلسفة والشعر جانبًا ، وتُسلم الجسد للغاية التي وُجد من أجلها . فهيمة نامت بعد الثامنة . بحذر شديد ، أدنى أذنه من باب حجرتها الملاصقة لحجرة الغسيل ، فسمع صوت تنفسها المنتظم . شقّ الباب الخارجي ، فخطتْ نائلة إلى الداخل بثقة ، دون تردّد ودون أن تستطلع الوضع ، كلصّ متواطئ مع أهل البيت . لكن ثقتها خذلتها عندما رأت شبحه في الصالون ، وقد غرقتْ ملامحه في العتمة . أخذها بين ذراعيه ، فانتقلتْ إليه رعشتها . طمأنها بأن فهيمة تغطّ في نومها وأن الستّ دلال في زيارة أقرباء لها ولن تعود قبل منتصف الليل . قادها إلى حجرته . سألته ماذا سيفعل ، فأجابها أن الأشياء هي التي تفعل فعلها . عليهما أن يتركا الأمور تسير على طبيعتها . لن يختلف الوضع كثيرًا عن لقاءاتهما في كافتيريا الكلية أو مقاهي المدينة ، يتعاطيان الشعر والقهوة

والبوظة . سوف يتعاطيان الرغبة ، بقرار لا يبدو أنه قرار ، دون تفكير ودون نقاش . ثم خشي أن يفرطا في تبادل الأفكار في هذا الشأن فأطبق شفتيه على شفتيها . تحرّرتْ لبعض الوقت من أفكارها ، وتحرّرتْ من بعض ملابسها ، فنزلتْ الأشعار الإنجليزيّة الباردة على جسده نارًا سالمة ، تُدغدغه بلطف .

جلسا على سريره . في الإضاءة التي تنبعث من الأشياء في اعتياد العتمة انفرد لحمها ، الذي تهذّب بياضه بمصافحة الشمس يوميًا ، متخفّفًا من احمراره الخجول بفضل القراءات الكثيرة ، رغم لا منهجيّتها . تراجع بياض صباح ، طاويًا نسيجه الفضفاض في خياله القريب . سحلتْ كفّه فوق كتفها حتى أعلى ثديها الصغير . مصّ حلمتها الضامرة ، فنبزتْ بصعوبة . همس في أذنها كي تسترخي ثم غمر عنقها المشدود بلعابه ، فمال رأسها وتمايل ، مجاهدة كي تضبط صوت تمتّعها . فكّتْ بيدها مشبك الصدرية خلف ظهرها ، فتحرّر ثدياها . استلقتْ على السرير بجزئها العلوي عارٍ على بنطلون أحمر ، تُحرّك جسمها بدرجات ، بزاوية أعلى هنا وبزاوية منخفضة هناك ، على نحو يتيح لجسمه كي يهبط على المواقع المحدّدة فيها من تحت البنطلون . خلع بنطلونه بسرعة وهم بأن يشلح سرواله . رفعتْ رأسها فجأة وقالت له إنها لا تريد أن تفعل الأشياء كلها الليلة ، وأنه ثمة أشياء يجب أن تظل لليالٍ قادمة . امتلكت أيضًا من الوعي والحكمة ، التي في غير موضعها ، بحيث شرحتْ له أن استبقاء بعض المتع للقاءات قادمة يجعل الرغبة تتعاظم في كل لقاء . «أليس كذلك؟» سألته في خضمّ نصف عريها الذي بدا محايدًا بالنسبة له في تلك اللحظة . تكلّمت بوعي تام ثم عادت إلى متابعة شعورها بالانتشاء . احتاج إلى وقت قبل أن يتجاوز وعيها ووعيه بوعيها كي يعود إلى مواصلة استثارته المتقطعة ، غير المنسجمة . بخلافه ، كانت تسلم جسدها للاّوعي بقرار واعٍ ، وكان يتأخر

قبل أن يلحق بها، حتى إذا ما بلغ مرحلتها في الاستثارة تُخرجه منها بالسؤال:

- كم الساعة الآن؟

قبضت يده على مؤخرتها، من تحت البنطلون، عندما لاح له وراء نافذة الباب المبزّرة شبح فهيمة. سحل من على السرير إلى الأرض جاذبًا معه نائلة، حابسيْن أنفاسهما. تكوّما على البلاطات العارية الباردة، بنصف عريها من الأعلى ونصف عريه من الأسفل. اقتربت فهيمة من الباب، ملصقة رأسها بالنافذة. لم يبدر عنهما أي حركة أو صوت. ابتعدتْ. انتظرا بعض الوقت حتى تأكدا أنها عادت إلى غرفتها. ارتديا ملابسهما على عجل. زرّرتْ نائلة قميصها في طريق خروجها. عند الباب استدارت نحوه، مستفسرةً، بشيء من الإحباط مرسوم على وجهها:

- كان يجب أن أقرأ لك شعرًا أولاً، أو نتحدّث في الحب. كان يجب أن تكون العملية على غير ما جرت.. أليس كذلك؟

- سنعوّضها في المرة المقبلة.

- صعب. هناك التجربة الأولى والإحساس الأول والانطباع الأول والمتعة الأولى. من الآن فصاعدًا أي شيء سيكون ثانيًا.

لم يعرف بماذا يرد عليها، فاقترح عليها أن يؤجلا النقاش في الفرق بين ما هو أول وما هو ثان غدًا، في الكلية، فقد تستيقظ فهيمة من جديد. التفتتْ إليه مرة أخيرة، كأنها تذكرتْ شيئًا مهمًا:

- كان يجب أن أشلّحك البنطلون وتُشلّحني أنتَ الصدرية. الأمور سارت على غير ما خطّطتُ لها.

خرج من الحمام، ففوجئ بالطفلة على السرير بقميص نوم من الحرير العاجي. رفعت ساقيها إلى بطنها فبان الجزء السفلي من فخذيها. أعلى

التقاء الفخذين ، لمح طرف سروالها . وضعت طرف أصبعها في فمها في ادّعاء الخجل . في الليلة التي سوف يدشّنها فيها امرأة أذهله استعدادها النفسي والجسدي . ظن أنه سوف يقوم بمقدمة تهيئة طويلة ، يشلحها فستان الزفاف بعدها بنفسه ، لكنها أعدّت طبقها الجسدي له بنفسها ، رتبته وزوّقته ، وهو أمر لم يحبطه ، على العكس أراحه . صحيح أنها أبقتْ على «الكيلوت» وقليل من خجل العروس أو ادعائه ، فذلك كي لا تحرمه من متعة اقتحامها بذكورته المتعالية ، وهو أمر أكبره فيها . أزاحتْ شعرها الخمري الطويل خلف ظهرها ، فانزاحت الوريقات عن صدرها لتتكشف ثمرتاها اللتان نضجتا بثقل على غصن طري . أخرجت إصبعها من فمها فلمع لعابها في رأسه . نظرت إليه ولم تقل شيئًا . فأدرك على الفور أنه سوف يحبها . قضمها باشتهاء ، قضم أجاصها وبرقوقها وخوخها . في الصباح ، ارتدت بلوزة كاشفة على تنورة ضيقة لاستقبال أمها وجدته مسعدة . قال لها إن آثار عضّاته علّمتْ على صدرها . نظرت إلى المرآة ، وشدت البلوزة إلى أسفل فتكشفت علامات عضّ أكثر ، وقالت بابتسامة واثقة : «أعرف!» فتيقّن أنه سيحبّها ، خلافًا للحب القائم على معرفة والحب المنطقي المتدرّج ، حيث الكلمة والقهوة والبوظة في المقاهي وتبادل الشعر والروايات تقود في النهاية إلى الجنس .

علاقته بختام بدأتْ ، عكسيًا ، بالجنس ثم تحوّلت إلى حبّ أو شيء على غراره . لا يستطيع أن يقول إنه عرفها . لم يخرجا معًا لوحدهما لشرب القهوة أو تناول البوظة كي يحاول أن يعرفها ، لم يحاول أن يقطف عنبها حصرمًا ، أو يشتم أزهارها المغمضة . وبفارق عشر سنوات بين الرجل ، ذي الماجستير ، والطفلة ، ذات البكالوريا ، لم تكن ثمة مواضيع مشتركة بينهما ، ولم تكن ثمة قابلية لتطوير أي موضوع مشترك ، لكن ذلك لم يكن ذا قيمة . ظلّ في دمشق أسبوعًا بعد الخطبة . استلمها بعد شهرين

عروسًا ، نظيفة ، جميلة ، وتبرق . قدمتْ إلى عمان مع أسرتها محمّلةً بأربع حقائب . تباهتْ مسعدة أمام الجارات بثلاثين قميص نوم وستّ بذلات رقص شرقي ، مشغولة بأغلى أنواع الخرز والستراس والتّرتر ودمع اللؤلؤ ، حملتْها معها عروس حفيدها الشاميّة في جهازها .

في كل يوم ، كانت تُخرج له من حقائبها الكثيرة مفاجأة ؛ فترتدي قميص نوم بيبي دول أصفر أو أحمر ، تحته كيلوت مكشكش ، وتغنّي لـ«عمّو» ، في استعادة غير بريئة للقائهما الأول قبل عشر سنوات ، «يا قضامة مغَبَّرة ، ويا قضامة ناعمِه ، جوزي لُمْنْ غَبَّرها ، كِنت أنا نايمِه» ، ثم تميل جذعها عليه ، كاشفةً عن ثديين بالكاد يضبطان نفسيهما داخل فتحة القميص الواسعة ، وتلامس فخذيها بفخذيه ، قبل أن تكمل ، بغنج أعظم : «شوف عيني شوف ، شوف روحي شوف ، شوف حركاتها الناعمِه .» أجادت الرقص الشرقي في النسخة الأكثر حسيّة منه ؛ فعلى أنغام موسيقى كلثومية ، يتمايل جسدها في بذلات الرقص المؤلفة من قطعتين ، مقرًا لها ببراعتها في الاهتزاز المضبوط على الإيقاع ، حيث كلّ هزّة ، كلّ انحناءة ، وكلّ رجّة في محلّها . لكنه كان يحب رقصها ، أكثر ما يمكن ، فوقه ، فيكون جسده مسرح نطّها واهتزازها ، وتلوّيها وانحنائها . بقميص بيبي دول أسود من الحرير الشفاف ، تعتليه ، متمركزةً فوق حاسة الرغبة الأولى لديه ، حتى إذا ما اقتحمتْها شهوته ، غنّتْ : «هِزّة يا جمّيز هِزّة ، تفّاح الشّام حِلو حِلو إلو لزّة ، مال عليٌّ وَشْوَشْني ، كلامُه حِلو حِلو ، كلامُه حِلو حِلو ، كلامُه حِلو حِلو حِلو إله لزّة .» وإذا ما نالتْ منها شهوتها ، ناكفته بدلال : «يا دادا ما بنزل ، يا عيوني ما بِنزل ، يا ماما ما بِنزل ، يا عمّو ما بِنزل ، ما بِنزل ما بِنزل ، إلا بحَلَق ألماس .»

لم تبدُ فكرة المكافأة الجنسية مزعجةً له . في البدء ، ما إنْ يتكلّل استعراضها الجنسي بانتفاضة عظيمة تنتقل منها إليه ، أو العكس ، حتى

تستدير نحوه نافضةً رخاوة جسدها لتسأله : «أين شوكولاتتي؟»بعد وقت ، صارتْ تحدّثه في صبيحة اليوم التالي لانتفاضتهما ، على مائدة الإفطار أو على فنجان القهوة على الشرفة ، عن حلق ذهب أو خاتم أو سوار أو عِقد وقعتْ عينها عليه ، صُدفةً ، عند الصائغ بينما كانت في طريقها قبل أيام إلى السوق . وكان حجم المكافأة وثمنها يتناسب وعطاء جسدها ، متزودة بتموين متجدّد من قمصان النوم والكيلوتات المكشكشة من الشام ، دون أن تتراجع ليونتها في الرقص والهزّ ، رغم انتفاش لحمها بعد ولادة ابنتهما الكبرى هيام . لكن لحمها انتفش أكثر بعد حياة ، فثقُلتْ وثقُل هو ، وتوصلا إلى ما يشبه الإجماع حول بشاعة منظرها في قمصان البيبي دول ، حيث باتت تبدو فيها ، مع الدسامة التي غلفتْ جسدها ، كبرميل أو شكل اسطواني لا ملامح له . ولّما كان ناموس الطبيعة الملل ، اضطرتْ أخيرًا أن تنزل من فوقه ، هي التي كانت تناكفه أنها لن تنزل أبدًا ، إلا بحلق ألماس أو فستان حرير . وبمجيء مروان وعماد لم تعد الطفلة تجد وقتًا للغناء واللهو حول البَحْرة ، حتى كصورة بعيدة .

لكنه ظلّ ، برغم كل شيء ، يروم جسدها القابل للإتيان في أي لحظة ، تفوح منه الصحة والأطباق الشامية الشهيّة بخلطة بهاراتها وتتبيلتها السرية ، والحلويات الدسمة المرشوشة بالقطر والمزيّنة بالفستق والجوز واللوز والكاجو . دون مقدمات ، تثيره أحيانًا وهي تفرك طنجرة ألمونيوم ، تصقل قاعها بالخريسة ، أو وهي تقلّب اللحمة المفرومة والبصل على النار ، يسحبها من المطبخ ، فتقاوم رغبته التي في غير أوانها لكنها لا تتبرّم كثيرًا ، فقط تذكّره بأن ينتهي بسرعة . تذهله جاهزية عضوها له في كل المواقف والأوقات ، حريصة على نظافته على الدوام ، فلا تستوطنه الإفرازات ، تنزع شعره من جذوره بعد كل دورة شهريّة ، ما يسهم في تورّده وعافيته وطيب رائحته ، كما لا تنفك تنظفه بغسول بيكربونات الصوديوم

مرتين في الأسبوع، وتقوم بعمل مغطس ماء وملح له مرة في الأسبوع على الأقل، في مهمة لا يشغلها عنها حتى المرض، فتضيق فتحته وتنشدّ عضلاته، ما يعجّل في بلوغ نشوته.

حتى حين اقترن بلوغ النّشوة الأعظم لديه لاحقًا بتصوّراته الخبيثة مع نساء أفلامه، ظلّتْ ختام القالب، الذي لا غنى عنه، يطأها كمرحلة أخيرة في متعته المتخيّلة، مركبًا رؤوس البطلات وأجسامهن وأفواههن، باللعاب الغزير، وألسنتهنّ المدرّبة، ولحمهن ذي أقل قدر ممكن من خسارات العمر، وإن لبسه اهتراء وابتذال، على ختام، مستبقيًا وعاءها النظيف، حتى إذا ما داعبنه، في خياله، وهرشنه، ومصمصنه، قذف في آخر المطاف فيها. تعرّف إليهنّ من خلال بهجت، زميله في مؤسسة «العالم العربي» للدّراسات في أبوظبي. كان يصطحبه معه بسيارته في عطلة نهاية الأسبوع إلى البريمي في عُمان، بمحاذاة العين، يشتريان الأقراص المدمجة لبرامج الكمبيوتر والأفلام المنسوخة. حين بات يُقرصن البرامج من الانترنت، ويحصل على أفلامه من البائعات الصينيات المتجوّلات بكنوز من المتعة في حقائب جلدية رخيصة، لم يعد يرافق بهجت إلى البريمي.

انضمّ إلى المؤسسة منذ تسع سنوات، مسؤولاً عن تحرير نشرة «الحدث»، وهي نشرة أسبوعية تصدرها المؤسسة فيها مقتطفات من مقالات سياسية واقتصادية منشورة في صحف عربية وغربية. عندما قرأ الإعلان عن الوظيفة في إحدى صحف عمّان، لم تثر فضوله. بعد أسبوع، فردتْ ختام الصحيفة على طاولة الطعام، فوقعتْ عينه على الإعلان. خلال ثلاثة شهور، كان في أبوظبي. لم يكن يبحث عن الفلوس. بعد تخرّجه من جامعة دمشق، تابع دراسة الماجستير في الجامعة الأردنية. عمل مدرسًا في معهد المعلّمين في عمّان، متنقلاً في ما بعد

بين عدد من كليات المجتمع، محاضرًا، ليستقرّ أخيرًا في مركز «اليوم الجديد» للدراسات البحثية والإحصائية في عمّان، باحثًا ومحرر كتب. إلى جانب عمله، كانت حصّته من محلات والده التي يديرها شقيقه فتحي تكفيه لحياة فوق مستوى المتوسط بكثير، وهي حياة أمّنتْ له شقة وسيارة مستعملة بحالة جيدة. كان يبحث عن مدينة أخرى وظرف يومي آخر دون سبب، أو ربما لسبب غير مقنع من لحظة التفكّر الأولى التي تقود إلى قرار متسرّع، إذ إن آخر شيء يتذكره قبل أن تقع عينه على الإعلان المفروش على المائدة أنه أفاق ذات نهار جمعة على صوت ختام تقول له إن جدّته مسعدة ليست في البيت. همّ بالخروج بحثًا عنها. فتح الباب فوجد صبيًا مراهقًا يتأبّط ذراع مسعدة. أشار الصبي بخجل إلى ما في يد مسعدة. كانت تمسك بسروالها. لُطفيّة، زوجة فتحي، أصرّتْ على أنه تذرّع بوظيفة أبوظبي كي يتهرب من تقاسم احتمال عبء مسعدة. لكن حتى بعد موت مسعدة، ظلّ في أبوظبي، ذلك أنه لم يطرأ سبب ما، حتى وإن كان غير محدّد أو غير حقيقي، يدفعه للرحيل، دون الافتراض أنه يحبّ عمله.

عبر «الحدث»، التقى إياد، سكرتير التحرير في صحيفة «الطريق»، الذي يشارك من خارج «العالم العربي»، بالاتفاق مع إدارة صحيفته، في تأمين بعض المواد للنشرة. تعزّزتْ صداقته به مع الوقت، كلاهما يسرح أثناء متابعة أخبار «الجزيرة»، وكلاهما يحمل معه قصاصات الصحف اليومية إلى البيت للمراجعة ولا يراجعها. لكنهما لم يحبّا الأفلام نفسها. أعاره إياد أفلامًا حاول أن يقنعه أنّ الجنس فيها موظف ضمن جماليّة خاصة. لم يفهم أين الجمالية الاستثنائية في مؤخرة مارلون براندو في «التانغو الأخير في باريس»، أو في عري إيوان ماكريغر، بكل الوضعيّات والزوايا في «كتاب الوسادة»، وإن ألهبته مشاهد الجنس المحموم بينه وبين

حبيبته التي تُستثار من الكتابة بالحبر السلس على اللحم . على أن إياد ، وإن كان يتعالى على أفلامه ذات الجنس المكشوف غير الموظف ، فإنه كثيرًا ما يستعير بعضها منه ، من قبيل الفضول ليس إلا ، كما يبرّر له . وحين يعيدها له بعد فترة ، يدّعي أنه لم يملك الوقت لمشاهدتها .

عرفه إياد على عمر ، فابتهجتْ ختام بمعرفته أكثر من كل صحبه ، مغدقة عليه أطباقها المبدعة لقاء تفسير أحلامها . والشهادة لله أن عمر كان يبذل جهدًا مخلصًا في التعاطي مع أحلام ختام ، ذلك أنها ، علاوة على تنوعها الشديد ، امتازت بطولها وثراء حبكتها وغرائبيتها والانعطافات الكثيرة في مسار الحلم الواحد ، ما يجعله يحمل القلم والورقة من أجلها ، يدوّن تفاصيل حلمها ، يُعمل علمه وخياله ، ليأتي في الزيارة التالية بالتفسير المنشود ، فتكرمه ختام بحجم دقة تفسيره ودرجة صوابيّته ، كما تستشعرها ، وإيجابيته . عندما التحق فراس بالمؤسسة بعده بعامين ضمه إلى «الحدث» ، مترجمًا للمقالات والأخبار المنقولة عن الصحف الإنجليزية . وجد فيه ، غير الصديق اليافع ، «مروان» الذي لا يتأفّف من قضاء وقت مع والده ، دون أن يستعجل الرحيل لطارئ يستجدّ على الدوام . وصحن ورق العنب الذي لا يكمله مروان يأتي عليه فراس بشهيّة مفتوحة في كل وقت . كما كان فراس الابن الذي يستطيع أن يعيره أفلامه المُستنسخة ، بنسائه المتضخمّات ، دون كبير حرج ، متفهّمًا في الوقت نفسه ، كأب ، ولع الابن بأفلام المغامرات والأفلام الرومانسية التي تفتح شهيّته للبكاء في عتمة صالات السينما .

عندما لم يعرف كيف يمنح نائلة الرومانسية التي تريد بجنس موظف ، فاقدًا صبره على الإصغاء لقراءاتها الشعرية بالوله المطلوب ، غير متحمس لسيناريو فيلم حبّ يجمعهما حتى وإن كانت نهايته مضمونة ، استعجل إنهاء العلاقة بأن سعى في لقاءاتهما القليلة المسروقة في غرفته إلى أن

يأخذ منها أكثر مما تريد أن تعطي، أو أن يعطيها أقلّ مما تريد. وإذ تطلعه على مخططاتها الرومانسية أو تعطيه بضعة مفاتيح لخريطة الوصول إليها رومانسيًا، كان يفسد هذه المخططات أو يدّعي التيه واختلاط المفاتيح فيُغلق عليه فهمها. وفي كل لقاء كانا يتخذان وضعيّة إمكانية الانسحاب في أي لحظة، ويظل همسهما مكتومًا، واحتكاكهما فوق الملابس أكثر منه تحتها، يتحيّن كل منهما أي حركة في الخارج، أو قد يدّعي أي منهما أنه سمع صوت فهيمة، ليفكّ جسده من جسد الآخر، متعجِّلاً الفرار.

حاول أن يفهم الرومانسية على طريقة الستّ دلال، فيشاركها في بعض المساءات في مشاهدة فيلم لفريد الأطرش، في الصالون الذي تضيئه الشاشة الصغيرة بالأبيض والأسود، يكون فيه فريد الأطرش «فريد» أو، على أبعد احتمال، «وحيد»، المغني الذي يُحْمِل الناس على الاعتقاد أنه لا يُقاوم، تُغرم فيه كل النساء، لكن المرأة الوحيدة التي يُغرم بها يحتاج إلى مساحة الفيلم الزمنية كلها قبل أن يصل إليها أو تصل إليه، وهي مساحة تعيش فيها الستّ دلال تطهيرًا عاطفيًا متكاملاً من الكدر والإحباط والحبور والإثارة والبكاء بوجهيه، بكاء الحزن وبكاء الفرح، رغم أن النهاية مكفولة، فليس من المعقول أو المقبول أبدًا أن يخرج فريد أو وحيد، المصوغ على شكل مأساة غير مكتملة، دون عناق النهاية السعيدة. لكنه في كل نهاية، رغم تكرارها عشرات المرات، كان يظلّ عاجزًا عن فهم الرومانسية. ثم عندما خرج نفر على الملأ أقنعوا العالم أن عصر الرومانسية انتهى بموت عبد الحليم حافظ، مع تسابق الفتيات المقهورات إلى إلقاء أنفسهن من شرفات الطوابق العليا في الأحياء الفقيرة، لم يكن يدرك أنه حتى ما قبل موته كان يعيش عصر الرومانسية الزاهي. اعتقد أنه فجع بموت الرومانسية في النكسة الحزيرانية، فالذين وعدوهم بالوحدة والحرية والاشتراكية هم الذين سلموا القنيطرة دون أن

يطلقوا رصاصة واحدة . وفروا كل رصاصاتهم الثمينة للوطن في الداخل . والعدوّ الذي توعدوه بأبشع أنواع الموت ، اتضح أنه الشعب اللئيم غير المدرك لمصلحة أمّته . يومها سمع صراخ فهيمة : «ستّي . . ستّي .» كانت الست دلال ممدّدة على الأرض ، تحضن صورة عدنان ، تطلق نواحًا كأنها عرفت أخيرًا أنه مات . رفعتْ وجهها إليه ، ترتشح كلماتها من بين دموعها : «كل شيء راح .»

مع ذلك ، استطاع في آخر المطاف أن يختلق رومانسية خاصة به ، إن لم تكن قابلة للتصديق ، فهي مشبِعة . فإذا قرأ منذ وقت قريب عن الإيقاف المؤقت في صناعة أفلام البورنو في وادي سان فرناندو بكاليفورنيا ، بسبب إصابة اثنين من نجومها بالإيدز ، تعاطف وهو يقلّب صفحات الانترنت مع كريستال ، نجمة البورنو ذات التسعة عشر ربيعًا ، التي وجدتْ نفسها بلا عمل . تخيّلها أمًا ، بطفل أنجبته في الخامسة عشرة ، وقد يكون اسمها الأصلي أميركي الوقع على الأذن مثل كمبرلي أو شيرلي ، أمعن فيها صديقها ذو الوشم على كامل ذراعيه والحلقات المغروسة في حاجبيه ضربًا قبل أن يهجرها أخيرًا . لعلها شقراء بثديين ضخّمتهما لغايات الوظيفة . دمج خيالاته عنه بواقعها المشروح إنترنتيًا . فقد وقعتْ أخيرًا على فرصة قد تمكّنها من استعراض قدراتها التمثيلية بالانضمام إلى إنتاج مسرحي متواضع لدراما شكسبيرية . أيمكن أن تلعب دور «أوفيليا» في «هاملت»؟ بثديَيْن كثدييها قد يكون ذلك صعبًا . تسير خيالاته به حتّى عودتها إلى البيت مرهقة من بروفات المسرحيّة طيلة اليوم ، ترتمي على السرير نصف عارية ، وتكون ثمة بقيّة من جسد فيها له ، هو المتمدّد إلى جوارها ، فيأتيها بشغف . كأنه يسمعها تقول له إنها متعبة ، فلقد عملتْ اليوم بطوله ، لكنه لا يريد أن يسمعها أكثر ، فيضع كفه فوق فمها ، ثم يغمض عينيه فلا يرى تعبها . تنير في خياله الرومانسي المُحبّ

كريستال ، شقراء الغلاف اللامعة .

ينقلب على ظهره . يفتح عينيه . يأخذ نفسًا طويلاً . تجمع ختام جسدها الأسطواني وتنهض من السرير . تعطيه الابتسامة التي ينتظرها . تقول له إن عليها أن تجمع الغسيل . ابتسامتها تتّسع . ثم كأنها تذكرتْ شيئًا سهتْ عنه ، فلقد ذهبت أول أمس إلى السوق . عينها وقعت على خاتم ذهب «بياخد العقل .»

(١٢)

فراس عياّش

لم تكن تتكلّم . يسمع لهاثها ولا يسمع صوتها . بحسب لهاثها ، تبعًا لدرجة علوّه ودرجة سخونته ودرجة تسارعه ، كان يستطيع أن يُقدّر رضاها عن جسده ، حين يكون فوقها أو تحتها أو في كل الوضعيّات التي ابتكراها معًا في لحظات تداخلهما بعفوية وجنون دون تخطيط مسبق . الشيء الوحيد الذي خطّط له هو الوقوف عند زاوية الشارع نفسه حيث لقاؤهما الأول ، دون اتّفاق ، ينتظر إضاءة سيارتها التي يميّزها عن كل الإضاءات الأخرى تقترب منه بإثارة لهوج حينًا ومتباطئة بخبث معذّب حينًا أخرى ، صُدفةً كما يفترض ، مُخمّنًا بنجاح في معظم المرات توقيت الصُّدفة . فكان إذا صادفها في ليلة ما ، يعرف أن عليه الانتظار خمس أو ست ليالٍ أخرى قبل تجدّد ليلتهما . وهو فاصل زمني كان معقولاً بالنسبة له ، ذلكَ أن المجهود الجسدي العنيف الذي يبذله معها يجعله مستهلكًا ، معتصرًا ، ومتعبًا ليومين وثلاثة وأحيانًا أكثر . وإذا صدف وأن لم يصادفها في صدفتهما المتوقعة ، على موعدهما غير المرتّب له ، بعد أربع ليالٍ لا يغتمّ كثيرًا ، كما لا يغتمّ إذا مضتْ الليلة الخامسة دون صدفة مُشتهاة ، لكنه يذرع الشارع في الواحدة صباحًا من الليلة السادسة منذ آخر لقاء صدفة لهما ، قلقًا ، متوتّرًا ، ثم غاضبًا من إلحاح رغبته عليه دون أن تقابلها رغبة

مماثلة وملّحة من جانبها، ذلك أن انقضاء الليلة السادسة دون لقائهما هي أبعد صدفة متوقّعة، وهي صدفة نادرًا ما كانت تقع.

الشيء الوحيد الآخر الذي خطّط له هو تحسين جسده والاعتناء بلياقته، من أجلها ومن أجله، فبعد اللقاء الجنسيّ السخيّ الأوّل، نهض في نهار اليوم الثاني مُنهكًا، متكسّرًا، وقد أفرط في استهلاك طاقته البدنيّة المحدودة في مجهود رياضي عنيف. حتى ما قبلها كان يستمني بخياله، عبر أفلام الجنس المسرفة في الفُحش، المرهقة للعين، التي يُعيرها له كمال، وما قد يستتبع عنها من استمناء جسدي تفريغي مريح، ينهض بعده بخيال مُرهق ومُستنزف في رأس مفرغ إلا من صداع خفيف ودوار لا يلبث أن يتبدّد، دون أن يلحق جسده تعب ذو شأن. لكن منذ أن اكتسب جسده الجديد، تراجعت فرجته كثيرًا على أفلام كمال، متباهيًا بتسطّح بطنه وتصلّب عضلاته حين يصفقه بيده في المرآة، مكتسبًا ثقة أعظم بقوامه عندما يخلع ملابسه أمامها. في اللقاءات الأخيرة، شعر، كما شعرت هي دون أن تفصح له وإنما من خلال مجاراته، أنه بات أكثر رشاقة في الفراش، ينطنط فوقها أعلى وأسرع، كما يتقلّب ويتشقلب في وضعيات أكثر بهلوانية مقارنة بلقاءاته الجنسية الأولى، عندما كان ميالاً للتكور والانكماش، خجلاً من لحمه الخامل ينسكب ببطء على السرير، سباقًا لأن يستر عريه بعد ارتقاء نشوته قبلها.

كمال لم يفته أنْ يسوق أمامه ملاحظته أنّ كرشه ذاب وعضلات ذراعيه وصدره غدت أكثر تحديدًا، بتضاريس واضحة، تحت بلوزته. لاحظ أيضًا أن سواد عينيه، بسبب قلة النوم أو كثرته، قد تضاءلتْ دكنته، كما تقلّص تورّم أجفانه التي ترسبُ فيها صور العري الغزير في عشرات أفلام الدي في دي، التي يوفرها له بكرم، تلتحم أمامه وتسيح، فاحةً على شاشة التلفزيون في إضاءة ليلية واهنة. اعترف له أنه انضم إلى نادٍ

رياضي . لم يسأله كمال عن السبب الذي دفعه إلى ذلك ، وإن غبطه على رشاقته المفاجئة ، مخمّنًا أن الأمر له علاقة بزواجه القريب آخر الصيف .

منذ أن التحق بمؤسسة «العالم العربي» للدراسات في أبوظبي قبل سبع سنوات ، فرد كمال فوقه جناحيْن أبويّين ، غير ضاغطيْن ، غير مظلّليْن تمامًا . أغدق عليه رعايته كابنه ، لكنه لمّا كان ليس ابنه ، لم يتحرّج من إعارته أفلامه الجنسية الأثيرة ، ومن تبادل النّكات المكشوفة معه والحديث من حين لآخر عن الجسد الأنثوي ، مختلفيْن حول درجة البياض أو السمار المناسب فلا إفراط ولا تفريط ، الانحناءات الأوفى للنظر والرغبة ، الاكتناز الردفيّ الأمثل للاحتضان والاهتزاز بشقاوة متخيّلة ، لذيذة ومنهكة ، الامتلاء الثديي الأحبّ للعين والملمس ، متفقين على فتنة هذا الجسد وسطوته ، دون تحديد جسد بعينه ، لدواعي الخصوصيّة . لم يصارح كمال بامرأة السيارة المرسيدس البيضاء ، فالابن عمومًا لا يتحدث مع أبيه في مثل هذه الأمور حتى وإن تناوبت الشكوك والأفكار المريبة على الأب . وكأب جائز جدًا ، دفعه كمال ، مع أمه نعمة ، إلى الخطبة كخطوة تأجّلتْ كثيرًا . «الناس لا يتساءلون في العادة لماذا تزوجتَ ، لكنهم يتساءلون لماذا لم تتزوج .» قال له كمال .

رسا الخيار أخيرًا على أماني ، ابنة خالته ، مُعلمة رياضيات ، تصغره بعشرة أعوام ، مُحجبّة ، تُنفق من الوقت الكثير في ارتداء الإيشارب بطرق مبتكرة ، فتلفّه طبقات فوق بعضه بعضًا ، وقد تزيّنه من الجوانب ببروشات برّاقة ، مع إخراج خصلات من شعرها البني المصبوغ بلون برونزي مُذهّب لتتدلّى دومًا عفوية على جبينها المُلّمع بالكريم . وهي خيار أمّه نعمة وليست خياره ، كما لم تكن خيار والده رمزي الذي لم يخف ضيقه من الشبه الكبير بينها وبين نعمة ، مبديًا ملاحظة مزعجة لها علاقة بظلال العين الداكنة ، التي تغطي كامل جفنها مع الكحل العريض الذي يحدّد

عينها ، والرموش المطلية بطبقة سميكة من الماسكارا . بحثتْ نعمة ونقّبتْ كثيرًا في البنات المتاحات قبل أن يستقر قرارها النهائي على أماني . احتارت في التصفية النهائية بينها وبين شقيقتها الأكبر آمال ، التي كانت خيارًا يمكن أن يقبل به ، لا لأنها أجمل ، بل لأنه حين يلتقيها في إجازاته السنوية صُدفةً ، تضحكه بحكاياتها التي تعكس روحًا ميالة إلى اجتراح الدعابة من أكثر الأشياء سوداويّة ، بينما تتفنّن شقيقتها أماني ، التي نادرًا ما كان يتحدّث إليها ، في إعداد قوالب الحلوى . صارح نعمة أنه قد يفضّل آمال ، لكنها نبّهته إلى أنها حين تضحك كثيرًا يُشقّ فمها عن لثة منخفضة ، فتبدو أسنانها شبه المصفرة الشبيهة بأسنان ذرة ذائبة كأنها ستسقط . في المرة التالية التي التقى فيها آمال لم تنعشه حكاياتها مع أنها لم تكن لتفقد طرافتها وطزاجتها أبدًا ، إذ كان مشغولاً طوال الوقت بتفحّص لثّتها وأسنانها ففاته استيعاب معظم حكاياتها . نعمة لفتت انتباهه كذلك إلى إبطي أماني الفوّاحيْن ، فلا يتجمع فيهما العرق ليتحوّر في بقع مزعجة ومنفرة حتى مع حركتها النشيطة والمتواصلة بالحجاب والأكمام الطويلة في غرفة خانقة يومًا كاملاً .

بعد قراءة الفاتحة ، خلعتْ أماني حجابها لأجله ، فلم يختلف شكلها عن الحجاب كثيرًا ، إذ ظلّتْ عيناها بماكياجهما الكثيف مركز صورتها ، ولم يسهم شعرها البنّي الغزير المصبوغ في أجزاء منه بأمواج تهبط وتعلو من الذهبي ، ذي نزعة برتقاليّة ، في تحييد بصره عن السواد الكثير في حاجبيها السميكين وظلال جفونها الكئيبة . بعد كتب الكتاب ، ارتدتْ له التنانير الضيقة والقمصان ذات الأكمام القصيرة ، فلم تغب عنه ملاحظة الحبوب الحمراء الدقيقة التي تنتشر على صفحة ذراعيها وفي بطّتي ساقيها من أثر استخدام «العقيدة» لنزع الشعر ، حتى الزّغب منه . لم تغب عنه أيضًا ملاحظة عدم التناسق في قوامها ، حيث خصرها

النّاحل يصبّ في ردفين ضخمين ، ساهمت قمصان حجابها الفضفاضة فوق تنانير واسعة في لملمتهما عن العين .

ما كدّره أن ثدييها ضامران جدًا ، بخلاف ثديي شقيقتها آمال اللذين كانا يرتجّان بانفعال حييّ حين تروي له حكاية بمرح جمّ ، يتبعها قهقهة متّصلة من جانبها يشعر معها أنهما قد يسقطان وأنه لن يمانع أبدًا في التقاطهما بكفّتي يديه ، ثم يفترشهما وسادتين يدفن فيهما ذقنه ووجهه غير الحليق ليذهب فوق سطحهما الأسفنجي ويؤوب . لكن كأن ثديي آمال ضمُرا لاحقًا ، فقد تحجبتْ بعد شهر من خطبته لأماني ، وباتت ترتدي الإيشاربات الملونة ، كما غرقت عيناها تدريجيًا تحت ظلال قاتمة . وإذ تشاركهما الحديث من حين لآخر ، كانت تُثني على كلام شقيقتها العروس حول أرقى صالات الزفاف في عمّان وأنواع الزفّة الأكثر إثارة للحماسة ، مع اتفاق الشقيقتيْن على أن الزفّة المصريّة لعلّها الأكثر صخبًا وبهجة . لم تعدْ آمال تروي له حكاياتها المضحكة ، متفوقةً على أماني في إعداد قوالب الحلوى . سألها مرة لماذا ارتدت الحجاب فضحكتْ كثيرًا ، لكن ثدييها لم يرتجّا ، وقطعًا ما عادا ليكونا وسادتيه في ليالٍ كثيرة .

توسّد أثداءً كثيرة في لياليه ، لياليه القديمة والجديدةً . ظلّتْ وسادتا وصال الأحنّ على وجهه ، رغم أنه كان يغرق فيهما ، فيجد صعوبة في التنفّس وينهض من نومه مقطوع الأنفاس . وصال ، ابنة عمّه حسن ، تماثله سنًا . لكن بجسدها الفوّار ، الفائض باللحم العرمرم الكثيف ، المسكوب في بروزات وانتفاخات كثيرة كانت تكبره بسنوات . تعرّف إلى ثدييها حين كان في السادسة عشرة . فتحتْ له زوجة عمّه زهرة الباب ، فوقعتْ عينه على وصال تمسح حوش بيتهم في المخيّم على أربع ، وقد تدلّى ثدياها العملاقان من فتحة فستانها الدالعة . لم ترتبك حين أبصرته . انحنتْ أكثر حتى كاد ثدياها المتعاركان يشقّان فتحة القميص ، يريدان

الهرب خارجًا . تابعت التنظيف ، متعمّدةً أن تتباطأ وهي تذهب بالممسحة المبلولة جهة اليمين وجهة اليسار ، وقد رفعتْ بنطلونها من تحت الفستان حتى الركبة ، لتلمع بطتا رجليها المشوبتين بحمرة فلاحية قانية . قبّلته زوجة عمّه بحرارة ، مبللة وجنتيه برطوبة شفتيها العريضتين . أمّه نعمة وشقيقته سمر وقفتا وراءه ، تحملان أكياس الهدايا الكثيرة من الكويت . أمطرتهما زهرة بالقبلات التي أحدثت صوتًا حماسيًا خرجت على أثره بناتها الخمس من فجوات الغرف الصغيرة في البيت . «الحمد لله على سلامة الغالين .» قالتها بفرح عززه بريق عينها الذي وقع على الأكياس .

في اليوم التالي زارتهم زهرة مع بناتها الخمس . وصال أكبر شقيقاتها ، يسبقها ثلاثة أشقاء وشقيق رابع بعدها ، نادرًا ما كانوا يُرون ، خاصة الكبير فوّاز الذي ترك المدرسة ، منذ أن كان في الخامسة عشرة ، وانضم إلى والده للعمل في ورش البناء . «وها هو ذا سيصبح معلم بناء قريبًا» ، كما قالت زهرة مزهوّة . أشقاؤه الأصغر سوف يتركون المدرسة لاحقًا . شمرّتْ البنات النشيطات عن سواعدهن التي لم تنهكها الخدمة المتواصلة في بيتهن وبيوت الجيران في المخيم ، لمساعدة نعمة في رفع رائحة الهجر والتراب العالقة بأثاث بيتها المغلق منذ إجازة الصيف الماضي . قُمن بالمهمة بسرعة وكفاءة ، دلّت على خبرتهن ، على صغر سنهن ، في هذا النوع من المهمّات الذي يهدف إلى اجتذاب العرسان من خلال إغواء أمهاتهم . أسرّت زهرة لنعمة ، وهي ترفع طرف الإيشارب الحرير الذي جلبته لها من الكويت والذي سحل على كتفها ، أن جارتها أم شوقي طلبت يد وصال لابنها شوقي ، الذي يملك محلاً لتنجيد اللحف والوسائد في سوق المخيم ، بعدما رأتها «تشيل وتحطّ» في ليلة الحنة لعزيزة بنت خديجة فتّوح . «لكن وصال بعدها صغيرة» ، قالت مديرةً رأسها إليه بينما كان يشبك هوائي التلفزيون ، مواصلة : «ثم من يدري لعل نصيبها ليس في المخيّم .»

انهمكتْ زهرة ونعمة في حديث نسائي، متنقلتَيْن بين المطبخ وغرفة المعيشة. البنات توزّعن في زوايا البيت الكثيرة. نادتْ عليه وصال كي يساعدها في حمل الكنبة في غرفة الصالون. كانا وحدهما. رأى في عينيها نظرة لم يسبق له أن اختبرها، لكنها لم تبدُ له ملتبسةً ولم يعتقد أنه يحتاج إلى سابق خبرة ليفهمها. انحنتْ عند رجل الكنبة. حلّتْ كلّ الأزرار الأمامية لفستانها، فتدافع ثدياها المحتشدان في الداخل للخروج، لكنهما احتاجا إلى دفعة من يده. ما إن نكشهما، حتى تدفّقا فوق راحتيه بانفلات غاضب وعنيف، متفلتَيْن من قمقم الغرف الرطبة المغلقة على أشواق خبيثة كثيرة. كانا مارديْن، مكتنزيْن باللحم الفوّار. كانت تلك المرة الأولى التي يلمس فيها ثديين حقيقيين، والمرة الأجمل، لا لأنها الأولى والدهشة الأولى فقط، بل لأنهما ظلاّ الأجمل والأحنّ والأكثر استمرارية وثباتًا حين يقارنهما في ذاكرته، التي لم تفارقهما بأثداء لاحقة رضعها واعتصرها وتنسّمها وتوسّدها.

جثما على ركبتيهما خلف الكنبة العريضة. رماه الثديان الهادران بنظرة حادّة اخترقتْ حواسه. حاول أن يغلق يديه عليهما، لكنهما تململا من قبضته الصغيرة وأفلتا، ليرجرجا فوق كفتيه. مسح وجهه بسطحهما الزلّق. شمّهما. صعدت إليه رائحة الكريْزة، التي تُطهى على نار هادئة مع تحريكها تحريكًا بطيئًا متواصلاً، والطحالات المشوية بخلطة البقدونس والبصل والبندورة التي تبرع وصال في طهوها، والملوخية الخضراء بالدجاج البلدي مع الرز المسلوق بالسمن، في بيت المخيم حيث تفترش زوايا الغرف فرشات كثيرة نظيفة ذات عجقة ألوان متضاربة، ولكن منسجمة في ما بينهما على نحو غريب، ودفء الصباحات الباردة تحت اللحاف الثقيل. أغمض عينيه ولم يشأ أن ينهض من الفراش اللّحمي اللذيذ.

في اللقاء الثاني، وخلف الكنبة إياها، لحس الثديْين اللذيْن هاجا

أكثر من المرة الأولى ، كأنهما تخفّفا من خجل اللقاء الأول وانكماش التوقّع الأول وتخبُّط الخبرة الأولى . في اللقاءات الكثيرة التالية ، أتقن ركوب موجتيها العاليتيْن والغوص في قاعهما أطول وقت ممكن قبل أن يصعد إلى السطح مقطوع الأنفاس ، ليتحدى نفسه ثانية بالغوص مرة تلو المرة ، غارقًا بين ثدييها المطبقيْن على فمه ونصف وجهه ، مختبرًا قدرته على الصمود . كانا يلتقيان معظم المرات في بيت أهله ، بسبب مساحة الاختلاء الأكبر المتاحة لهما ، خاصة في الصالون الذي لا يدخله إلا الضيوف الأثيرون جدًا . في مرّات قليلة جدًا ، وخطيرة جدًا ، كان يشتاق لثدييها في بيت عمه في المخيم ، فيصعد إلى السطح في أثرها ، بحجة مساعدتها في حمل طشت الغسيل . من خلف شرشف تفرده وصال على طول حبل الغسيل ، مشكلاً ستارًا بينهما وبين الجزء من السطح الكاشف على شرقيّ المخيم ، كان يعوم في ثدييها دائمي التَّوْق له .

في الصيفيّة التي تلتها ، كانت وصال قد تركت المدرسة . اكتسبت زيادة في الوزن . غدا ثدياها أكثر دسامة . سألته ما إذا كان من الممكن أن يتزوجا ، فلم يجبْها عن سؤالها ، كما لم يجبْها عن أسئلة كثيرة لها علاقة بالانتقال للعيش معه ، بعد الزواج ، في الكويت . سألته ما إذا كانت تستطيع أن ترتدي ملابس كتلك التي ترتديها شقيقته سمر ، فأتى على ثدييها بغضب كونهما ، بعدما تضخما أكثر ، باتا يفلتان من يديه . حين همّت أن تسأله من جديد وضع يده على فمها . «اخرسي» ، قال لها ، ثم جثم بوجهه فوق ثدييْها . كانت دائمًا تضع الإيشارب على رأسها ، تربطه إلى الوراء ، في البيت وخارجه . لا تستطيع أن تتخايل بشعرها في البيت أمام أشقائها الذين أملت عليهم هرموناتهم الذكرية أن يكونوا غاضبين طوال الوقت من أجساد شقيقاتهم الخمس اللاتي يزاحمنهم في البيت المؤلف من غرفتي نوم وصالة وحوش صغير ، تم سقفه بالزينكو للاستفادة

منه كغرفة نوم ثالثة . حتى في البيت ، كانت البنات يرتدين البنطلون تحت الفستان أو التنورة ، في الصحو كما في النوم . نهضتْ وصال ذات ليلة إلى الحمام ، وقد نسيتْ أن تلمّ شعرها بالإيشارب ، فخالت أن رأسها سوف يتفجّر . فتحتْ عينيها الذاهبتين في خدر النوم وتعب النهار ، فرأت شقيقها فوّاز يجذبها من شعرها بقبضة يده التي اغلظّت ، على نحو يليق بيد بنّاء متمرّس ، ويخبط رأسها في الحائط مرة بعد مرة ، يسألها عن الإيشارب الذي أفلتته عن عمد .

في لقاءاتهما الأخيرة ، فرطتْ لخاطره بنطلونها من الأسفل ، فصار يعبث بثدييها بيد وبشيئها الذي كان يتلمس متعته حذرًا من الفتحة الضيقة ، باليد الأخرى ، بينما عرفتْ يدها بعد تردد وبإلحاح منه طريقها إلى شيئه ، مرتجفةً لملمسه وصلابته المباغتة . وإذ أدركتْ ذروتها الأولى مع احتكاك شيئيهما ، فار جسدها كثيرًا في المكان الذي جمعها خلف باب السطح في بيت أهله . كانا واقفين ، ولم تكن قد أعدّتْ نفسها للزلزال الجسدي الوشيك مع تسارع احتكاكهما ، وإن رأى في وجهها التحوّل التدريجي الذي يسبق لحظة الانتشاء . ثم إذ انتفضتْ بعنف ، خشي أن تفضحهما باهتزازها أو بصياحها ، فحضنها بقوّة وأغلق فمها ، مواصلين الاهتزاز بوتيرة متسارعة ، ثم أسرع فأسرع ، فأبطأ وأبطأ . . وأبطأ . رفع يده عن فمها ، فتلاحقت أنفاسها ، متباطئة تدريجيًا ، حتى هدأت أخيرًا قبل أن ينساب صوتها هامسًا : «يَمّى يا حبيبتي!»

بعد عام ، تزوّجتْ وصال موسى ، صاحب محددة في المخيّم . خشي أن تكون وصال حزينة لفقده . لكنها لم تبدُ له أن أملها خاب فيه كثيرًا . كانت قد قنعتْ بانتفاضة النشوة الأولى التي عرفتها معه ، وتجاوزت لحظات ذعر كثيرة ، حين كانا في مرات عديدة قريبين جدًا من أن يُضبطا ، لكن لحظة الذعر الأكبر كانت يوم قذف سائله على بنطلونها ، إذ صرختْ

بتقزز خشية أن يكون بال عليها . لم تكن في العرس أجمل مما تكون عليه في الأيام العادية ، خاصة بالماكياج الفاقع الذي صبغت به وجهها ، لكنها كانت أكثر راحة ، وقد مضى يوم أو يومان ربما دون أن تحمل ، مع شقيقاتها ، الفرشات واللحف على السطح لتشميسها ، ودون أن تغسل وتجلي وتكنس وتقشّ السطح وتمسح الأرض على أربع . كانت سعيدة بفستان العرس المستأجر والطرحة ذات الثلاث طبقات و«بوستيجة» الشعر التي وضعتها لها الكوافيرة فبان معها شعرها الخفيف أكثر كثافة ، والبابوج الأبيض ذي الكعب العالي الذي كانت تمشي فيه بصعوبة . وكانت سعيدة أكثر بالذهب الأصفر الفاقع في يديها وعنقها . «نقّطها» في العرس عشر ورقات نقديّة من فئة العشرة دنانير ، بتكليف من أمه نعمة كي يرى الناس قيمة «دار» عمّ العروس القادمين من الكويت ، حملتْ زهرة الفلوس في يديها كأوراق لعب مكشوفة وهاهت وزغردتْ ورقصتْ بها . لم تحتجْ زهرة إلى وقت طويل كي تدرك أن نصيب وصال وشقيقاتها لن يخرج عن حدود المخيّم . لكن نصيبًا عن آخر «يفرق» ، فموسى ، عريس وصال ، يملك محددة .

بوفاة نعمة ، آمن أن نصيبه قد لا يكون حيث اختارته له أمه . وحزنه على رحيلها لم يوازه سوى فرحته بتأجيل زفافه إلى أماني ، إلى أجل ينحسر فيه ما خلّفه غيابها من كربٍ في القلوب . لكنّ أماني ظلّتْ مؤمنةً أنه نصيبها وترجمتْ إيمانها في رسائلها الكثيرة الطويلة المكتوبة بخط تتعب جدًا كي يكون أنيقًا ، السّطر على السّطر والكلمة منقوشة أحرفها بعناية ، ما غطّى بعض الشيء على الأخطاء الإملائية والنحوية الكثيرة . كانت تجتهد في كتابة عبارات عاطفية من النوع التلفزيوني ، فتؤكّد له أنها سوف تنتظره العمر كله ، دون أن تغفل عن مناقشة الجوانب العملية في خطبتهما ، فتحدثه عن مصاغها الذي اشترته بسعر الذهب الخام ؛ ذلك

أنها حصلت عليه من عروس فسخت خطبتها ، وتحدثه عن صالات الزفاف في عمان فتذكّره بضرورة حجز الصالة قبل ستة شهور على الأقل ، وهو تذكير لا بدّ منه في كل رسالة . ثم تعود إلى صفتها الرومانسية في فقرات لاحقة ، تضمّنها أبياتًا شعرية من كتاب «أجمل عشرين قصيدة حب» أو من أشعار فاروق جويدة أو قصائد نزار قباني التي غنّاها كاظم الساهر ، تنقشها بقلم ذي لون مختلف . وتجد الوقت كي تزيّن رسائلها برسوم لورود وفراشات وعصافير تملأ الصفحات الكثيرة . ودائمًا ما ترفق رسائلها بصور لها دون حجاب ، في وضعيات الحبيبة الحالمة التي تعبث بشعرها أو تضع إصبعها على خدها بينما تذهب نظرتها إلى البعيد . وقد ترسل له أيضًا نماذج من بطاقات لأحدث تصاميم دعوات الزفاف ليعتمد أحدها . لم تعترف بالبريد الإلكتروني واكتفت بالمسجات كي ترسل له صباحات حبٍّ أو مساءات اشتياق ولوعة موقّعة باسمها ، تؤمن تمامًا ، قدر إيمانها أنه نصيبها ، أن لها مفعول السحر على قلبه . ولا يعدم الأمر أن تُرسل له «مسجًا» مُلحًّا بين مسج عاطفي وآخر تسأله فيه أن يُحدّد موعدًا للعرس .

ضنّتْ عليه أماني بجسدها ، فلم يلحّ في طلبه . وإذ خشيتْ أن يزهد فيها بعد وفاة نعمة ، سمحتْ له بقليل من العبث الموجّه فألقمته ثديها الصغير ، الذي عبّأ كفة يده الواحدة ببحبوحة ، بينما كانا واقفين على درجات بيت عائلتها المؤدّية إلى السطح ، فمه يحاول جاهدًا أن يقبض على حلمتها الضامرة وعينها تراقب أي خيال يلوح لها من بين قضبان الدرابزين . ثمّ سمحتْ له في لقاء آخر أن يتحاككا من تحت السروال . كان الوقت مساءً . وقفا في الممرّ المعتم الفاصل بين المطبخ وحمّام الضيوف في بيت عائلتها . رفعت تنّورتها الطويلة وأدارت رأسها إلى الجهة التي يمكن أن يفاجئهما منها أحد ، تطلب منه أن يسرع أو يبطئ أو يتوقف لترخي تنّورتها بعدما اعتقدت أنها رأت شقيقتها قادمة ، ثم حين تأكّدت

أنّ الوضع آمن رفعتْ تنّورتها ثانيةً ، دون أن تشاركه الاهتزاز ، موزعةً تركيزها بين أقل قدر من الاستسلام للمتعة وأكبر قدر من مراقبة الوضع . في كلّ لقاءاتهما الاحتكاكيّة القليلة ، ظلّ ذهنها حاضرًا دائمًا ، كما لم يغب جسدها عن الوعي في أي لحظة .

أطلقتْ شهقةً هي الأعلى منذ أن تعارف جسداهما ، في صدفة ليليّة في طريق خال إلا من إضاءات متفرّقة . تحته كانت لم تزلْ ، تتعافى من بقايا خضخضتها ، مستعيدةً نبض نفسها الطبيعي ، عندما لثم شحمة أذنها هامسًا : «أحبّك .» اتّسعتْ إحدى عينيها فيما ضاقت الأخرى ، مدّعيةً إظهار التعجّب دون أن تكون كذلك فعليًا . ولعلّها سعدتْ ، داخليًا ، باعترافه ، فأعطته شحمة أذنها ثانيةً ، وإن تصنّعتْ اللامبالاة بإزاحة عينيها عنه وإسدال جفونها في نصف إغماضة . كانت تتواصل معه بنظراتها ؛ يتكلّم فتسمعه عيناها . وبحسب انتباه عينيها وتفاعلهما كان يمضي في كلامه معها . قد تتعب ، وأحيانًا قد تملّ ببساطة من حديثه ، فتُطفئ عينيها ، معتذرةً له بلباقة بقلب جسدها إلى الجهة الأخرى بخفّة ، والتدثّر بالنوم . تعجّب من قدرتها على الإصغاء ، والتعبير عن هذه القدرة بكل أشكال النظرات . لكنه تعجّب أكثر من قدرته على الكلام ، والارتقاء بالكلام إلى مرتبة البوح . عزا ذلك إلى عريه المستلقي إلى جوار عريها على السرير في حجرة نومها ذات الإضاءة البرتقالية الخفيضة جدًا ، فمع تخفّف لحميهما من ورعهما تتخفّف حكاياته من تحفّظها .

منذ لقائهما الثالث ، لم يعد يغادر سريعًا ما إن يتوقّف هطول مطره فيها . صارت تستبقيه بألاّ تعطيه ظهرها على الفور . تتمدّد إلى جواره ، بعريها المستريح ، تسمعه بعينيها متابعةً تحولات صوته باتساع بياضهما أو ضيقه . سألها مرة ، ما إذا كان يستطيع أن يدخّن سيجارة في السرير ،

ففتحتْ درج الكومودينو إلى جوارها وناولته منفضة سجائر . اعترف لها أنه كان يغار من سمر ، لأنها كانت أجمل منه ، لا لأنها بنت والبنت يُفترض أن تكون أجمل من الولد ، لكن لأنها حتى حين أصبحتْ ولدًا ، يوم جزّتْ شعرها ، كانت فاتنًا كولد ، وكانت أجمل منه بكثير . معظم الأوقات ، كان يكره توأمه ، في سنوات فتنتها . لكنه اليوم لم يعد يكرهها . لقد سمنت وقبُحت وأصبح لها أبناء كثيرون مزعجون دائمو الالتصاق بجسدها مقابل عزوف زوجها عن جسدها . في المناسبات القليلة جدًا البعيدة جدًا التي يراها فيها لا يستطيع أن يمنع نفسه من الإشفاق على توأمه التي تنهض من الكنبة بخمول ، هي التي كانت رِجلاها الطائرتان في الهواء تكسران أثناء الرقص الحامي مزهريات نعمة الغالية . كره أباه أكثر مما كره سمر ، لأنه لم يحبّه كما أحبّ سمر ، مع أنه سعى بجدّ كي يكون مثل سمر . ارتدى تلك الليلة بيجامتها ذات الدببة الضاحكة ، مزررًا نصف الجاكيت بالعراوي الخطأ ، ثم خفّ إلى غرفة والده المعتمة بالاتفاق مع نعمة التي أخلتْ له مكانها في السرير . لكنه ما إن تمدّد إلى جوار والده ، مُلتزًا عليه محتكًا بحواف جسده ، حتى صرخ فيه كي يفزّ ، فانكمش . ما أحزنه جدًا وأغضبه أنه حتى في العتمة استطاع أن يرى التقزّز في عينيّ والده .

غطّتْ دموعه وجهه ، فحزن من نفسه لأنه بكى ثم غضب من نفسه الهشّة لأن لحمه اختضّ بعض الشيء أثناء البكاء فبان غير جميل على مرآة الخزانة قبالته . لم يمنع نفسه ، في لحظة حزنه تلك ، من التعجّب كيف أنه فقط حين تختضّ الأبدان في الجنس تكون جميلة . خشي أن يفقد فرصته في إتيانها ثانيةً ، باشتهاء إنسانيّ يتولّد من بوحه المستفيض وسماعها الصبور له . لم تمسح دموعه ، لكنها سحلتْ إلى فخذيه ، تُبلّل شعرهما بلسانها ، صاعدةً إلى رغبته النائمة ، يدغدغه شعور جميل

باقتحام غير متوقّع لحواسه . موجٌ خفيف من أحاسيس مرتخية يعلو ويهبط في جسده مقابل تدفّق دماء هائلة في رغبته التي استيقظت بصخب ونشاط . في تلك اللحظة ، كان واثقًا من أنه يستطيع أن ينام إلى جوارها أيامًا وليالي دون أن يبول على نفسه . ولن تضطرّ هي ، كما نعمة ، لأن تنهض قبل نهوض الصباح ، متواطئة معه كي تزيل آثار بلله على الفراش وتُحمّمه ، متحملاً رجفة بدنه في برد الصباح وبرد الخجل . فكر أنه يستطيع أن يثق بتفهّمها إذا أسرّ لها أنه في أحيان نادرة ومتقطعة يبول على نفسه . في بعض الليالي قد يلتبس عليه الأمر ، فلا يعرف ما إذا كان بال أم احتَلَم . لكن فمها الذي ابتلع كل رغبته الآن انتزعه من أفكاره ، ليوجّهه نحو فكرة واحدة ؛ المتعة التي كانت تدفعُ موج جسده المترامي الأطراف ليتجمّع ، متكاثفًا ، في نقطة واحدة . كان يحبّ أن يفكر بمتعته معها ، حتى وهو معها ، أكثر مما يشعر بها ذلك أن تفكيره فيها يجعله لا يغفل أية تفصيلة في الإحساس . وإذ انفجر في فمها طرطشتْ مياهه الغزيرة ذقنها وعنقها في لوحة متعة رسمها في فكره مرات كثيرة .

عندما همس في عينيها أنه قرّر أن يفسخ خطبته بأماني ، فكّتْ تشابكها الجسدي بجسده ، وأزاحت عينيها عنه لتتعلّقا في سقف الغرفة . حاول أن يشرح لها أن قراره هذا أفضل له ولها ، لكن عينيها أصمّتا نظرها عنه . قال لها إنه يُحبّها ، يفكّر فيها كل أيامه وكل لياليه ، يحاول أن يتخيّل حياتها الأخرى ، وكيف يمكن أن تتشابك في حياته خارج السرير وخارج الغرفة ذات الإضاءة الخفيضة ، يحاول أن يتخيل صوتها في الكلام ، في الضحك وفي البكاء ، وحتى في السباب والصراخ . حسنًا إذا كانت لا تريد أن تتكلم فلتقل له اسمها فقط ، أو لتكتبه له . ستكون متعته ألذّ وأشهى إذ يتداخل اسمها في موسيقى آهاته أثناء تداخلهما الجسدي ، فلا يخاطبها بصيغة الغائب الموجود جدًا ، الحاضر بإسهاب ،

على نحو حقيقي وباذخ في الشهوة . لكنها أسدلتْ جفونها ، وأدارتْ له ظهرها . لحس كتفيها العاريتين ، فضمّتهما إليها ورفعت اللحاف لتغطيهما . قبّل عنقها النحيل من الخلف ، فسحبت اللحاف إلى أعلى . وحين مرر يده فوق شعرها ، تكفّنتْ باللحاف تمامًا .

مرّت صُدفٌ كثيرة ، وقف أثناءها عند زاويته المعتادة في الشارع ، ولم تأتِ . انقضتْ ستّ ليال ثم ستون ليلة ، دون أن تبرق أضواء سيرتها في قلبه . عشرات السيارات المرسيدس البيضاء لعبتْ معه لعبة أنها قد تكون هي ، فكانت تقترب منه ، تخفف سرعتها ، تتباطأ حد التوقف التام ، ثم تغمز له بإضاءتها ، قبل أن تنطلق مسرعة ، وقد لا تتورع عن المزاح الثقيل فتجره كي ينزل من الرصيف إلى طرف الشارع ليعاينها عن قرب وقد دنتْ منه جدًا ، لتنحرف باتجاهه كما لو كانت ستدهسه ، فيقفز بوجل على الرصيف ، يراقبها تبتعد مقهقهة .

ذهب إلى شقتها في الصباح وفي المساء ، وفي كل الساعات الفاصلة بينهما . لم تفتح له . وضع أذنه على الباب علّه يسمع نَفَسَها ، الذي يألفه جدًا ، فتسرّب إلى جسده صمت عينيها المطبقتين تمامًا . حشر أنفه في الفراغ الضئيل بين حافة الباب وإطاره العريض ، عله يشمّ رائحة لحمها غير المتكلّف . انبعثتْ من الداخل رائحة طلاء حديث .

الموسيقى المتكرّرة لرنين موبايله سحبته ، مؤقتًا ، من شوقه المُعلّق في الشارع الذي تراجعتْ فيه حياة الناس . جاءه صوت أماني من بعيد يطفح بأمنياتها . قالت له إنها حجزتْ قاعة العرس .

- ماذا عن بطاقات الدعوة؟ هل أختار التصميم الذي أراه مناسبًا ، أم لعلك تُفضّل أن تختاره معي؟

دنت منه سيارة مرسيدس بيضاء . حدّقتْ فيه أضواؤها . نزل إلى الشارع . اقتربت السيارة كثيرًا . وقف وسط الشارع . خففتْ السيارة

سرعتها ، لكن إضاءتها احتدتْ أكثر ، محملقة فيه ، كي يبتعد عن طريقها . لم يتزحزح من مكانه . أطلقت السيارة نفيرًا متقطعًا فلم يتحرك . انحرفت إلى يمينه بوجل ، لتضرب عجلاتها بالرصيف ، مستثيرة ضبابًا من الغبار ، قبل أن تنطلق بسرعة كبيرة في شِبه فراغ الشارع .

- ماذا عن بطاقات الدعوة؟

سألته ثانيةً بصوت فيه فرح مُختَزَن بصبر . أطفأ عينيه وأصم أجفانه عن صوتها تمامًا .

(١٣)

إياد أبو سعد

يوم دخلتْ مكتبه أوّل مرّة ، احتوتْه عيناها السوداوان ، شديدتا العمق والغور ، وشملتاه بكُليّته . شيء منه ، حتى أصغر الأشياء فيه ، لم يفلتْ من نظرتها الجسورة . إذ حاول أن يردّ لها النظرة بنظرة ارتدّتْ نظرته عليه بقوّة ، لتجفل خصائصه الساكنة المستكينة لشروط الأيام المُتكرّرة . وإذ سعى كي ينظر في أي شيء آخر في وجهها ، غير عينيها ، كان لا يستطيع إلا أن يعود إليهما ثانيةً ، عالقًا بين جزيرتيْن استوائيّتيْن نابتتيْن وسط بحر صدفيّ يرغي الزبد في أطرافه متكسِّرًا بتؤدة . احتلّتْ معظم المساحة في الغرفة ، حتى إنها سطتْ على مساحته المخصّصة له . تقدّمتْ نحوه بخطى قصيرة سريعة ، تحضن بيد ، قريبًا من صدرها المتعالي ، ملفًا أحمر كسَر سواد فستانها الانسيابي الضيّق ذي الفتحة الجانبيّة . مدّتْ يدها الأخرى مصافحةً ، معرِّفةً عن نفسها :

- أنا ليال!

قالت «ليال» كما لو أنها لا يمكنها ، كامرأة ، إلاّ أن تكون «ليال» ، أو كأنه لا «ليال» في الليالي سواها ، أو كأنّها تُؤكّد له أنها لياله التي يبحث عنها منذ زمن بعيد ، وها هي قد أتته في اللحظة التي خال فيها أن الحياة قسمتْ له بالنّهارات الجوفاء فقط . جلستْ ، ساقًا سائلة مسكوبةً

بانسيابيّة على ساق ، فارتفعتْ فتحة الفستان الجانبيّة أكثر ، كاشفةً عن فخذ سمراء مكتنزة ، لكن دون لحم زائد يخرج عن حدود القوام المرسوم بأناة وتفصيل غاية في الدقّة . وضعتْ الملفّ الأحمر على المكتب فانزاحتْ بضع أوراق خاصّة به من مكانها . من الآن فصاعدًا كلّما تزوره في مكتبه في الصحيفة سوف تنزاح أشياؤه ، أوراق وغيرها ، من مكانها على المكتب ، وقد تنهال كومة من الأوراق والصحف القديمة المكدّسة فوق بعضها منذ شهور بكثير من الصخب العالي يوتّره أول الأمر حيث يمرّ وقت قبل أن يعتاد عليه . في كل مرة ، تملأ المكان بحضورها دفعة واحدة فيتكركب تفكيره ويحار في تحديد موقعه في المكان الذي تمدّد فيه وجودها بضجيج يخبره للمرّة الأولى في حياته .

تعمل سكرتيرة في شركة مقاولات . جاءت أبوظبي من عمّان قبل عامين ، مخلّفةً طلاقًا لم تبرد تفاصيل وقائعه في العائلة . كانت قد تزوّجتْ وتطلّقتْ في عامين . حين أفاقتْ من مخاضها المرير ، جلبتْ لها الممرضة وليدها في صندوق مغلق يصلح أن يكون صندوقًا لحذاء . بكتْ كثيرًا لرؤية الجسد المتجعّدة معالمه ، ملفوفًا في كوفليّته البيضاء ، ميتًا بسكينة ودون شكوى من الحياة . لكنها شعرت براحة . نامت ليلتها الأولى بعد الولادة دون أرق ودون أن تفتح عينيها في ساعات الليل المتفرّقة فجأة متوقعةً أن ترى شبح طليقها ، الذي يتضخّم حتى يلامس سقف الغرفة ، يقف عند الباب يسدّ مدخله بذراعه الصلبة غير المتزحزحة ؛ فيحول بينها وبين الهرب ، فإذا ما حاولت أن تتسرّب من تحت ذراعه أمسك بها من عنقها ، فلا يفلتها إلا في اللحظة الأخيرة لطلوع الروح . فالشيء الوحيد الذي يربطها بطليقها شيء ميّت ، حتى وإن حمل شهادة ميلاد في أحد خاناتها اسم الأمّ ، اسمها هي .

أعطته شِعرها ، مكتوبًا بخطّ أنيق موضوعًا بعناية في الملفّ الأحمر ،

عابثةً بخصلات شعرها المتلوية . حدّثته عن أشياء كثيرة لا معنى لها ، لكنّها ممتعة قبضتْ عليه رغم تشتّتها وتضاربها . لا يعرف بعد أن غادرته ، باذلاً جهدًا مرهقًا في جمع بقايا حضورها ، كيف جمعتْ في حديثها بين إمكانيّة تقشير تفّاحة في قشرة واحدة متّصلة وبين لوحات غوستاف كليميت ، التي تطبع صورًا عنها من الانترنت وتضعها في براويز . راق له شَعرها أكثر من شِعرها . في اللقاء الثاني أعطته مخطوطة رواية وحيدة ، شعر حين قرأها أنه شاهد أحداثها في فيلم أميركي رومانسي . لم يشأ أن يصارحها أن روايتها لم تعجبه خشية أن ينقطع حضورها ، الذي لم يكن بعد قد تأكّد تمامًا ، عن مكتبه . قال لها إنه لم يقرأها ، وامتدّ وقت طويل ، إلى أن تأكد حضورها الذي أتبعه بعلاقة حامية ، قبل أن يقول لها إنه قرأها .

في اللقاء الثالث عرف ، من حكاياتها الكثيرة غير المترابطة وغير المنسجمة على نحو شادّ وجاذب للغاية ، أنها تحبّ أغنيات ديميس روسوس والمسلسلات الأميركية الكوميدية ، والخلاخل التي تُخشخش بِدويّ وعصير الأفوكادو ، وهي أشياء لا يحبّها ، فأدرك أنّه يرغب كثيرًا في أن ينام معها ، مطلقًا العنان في رأسه النشط لصورهما الفاحشة معًا ، حيث تشكّل عريها في هذه الصور المتحركة في كل الوضعيات لتركبه ، مواصلة حكايتها غير المتصلة التي لا تنقطع . وبما أن الرّغبات تلتقي في الغالب ، لم يبحث مطولاً عن كيفيّة الإفصاح عن رغبته نحوها ، التي كانت تشتدّ عليه كلما احتكّ جسدها بالهواء القليل جدًا الفاصل بينهما . فذات هواء قليل جدًا ، ساكن ومترقّب ، فصل بين جسده وجسدها ، سألته برغبة بيّنة أبرقتْ في عينيها :

- وإذن؟

- أشتهيكِ .

Twitter: @ketab_n

اختلطتْ شهوتاهما فلم يكن بالإمكان تمييز أيّ الشهوتيْن أعظم . شهوتها كانت في عزّ قطافها . شهوته كانت مُبيّتة ، تكثّفتْ في خياله منذ دهر قاحل . رتّب للقائهما الجنسي بكثير من الاهتمام والاعتناء بتفاصيل صغيرة كثيرة . قلّم أظافره ، في اليدين والقدمين ، وبردها وكشط الزوائد الجلديّة الناشفة حولها كي تكون أصابعه ناعمة حين تسحل فوق لحمها . اشترى جوارب قطنيّة جديدة بحياكة ناعمة عند الأصابع . اشترى أيضًا سروالاً قطنيًا مشدودًا ، بخصر ساحل ما دون السُّرّة بكثير ، وبفتحة فخذ عريضة ، لونه أسود ، اندفعتْ أشياؤه التي وجستْ بالشهوة في مقدّمته ، وذلك بدل الشورت الأبيض الفضفاض الذي يبتلع مكمن شهوته حتى وهو متصلّب . حلق ذقنه ، هذّب شاربه ، نعّم خدّيه بالخيط . لو كان يملك الوقت الكافي لتخلّص من بطنه النافرة بحمية أو برياضة يستعيد معها عضلات بطنه المتوارية خلف طبقة من اللحم المتكدّس ، كما فعل فراس . فكر أنه يستطيع أن يخصص اليومين اللذين يفصله عن لقاء جسدها للمشي ناحية الكورنيش ، متخففًا بعض الشيء من ركود عضلات جسده ، مركبًا في ذهنه مشهد التشقلب على السرير أو الأرض برشاقة فلا يخذل رغبته كما لا يخذل رغبتها . تعطّر من أجلها . بخّ رذاذ النعناع في فمه للتخلّص من رائحة السجائر المدعوكة بأنفاسه .

في تعارفهما الجسدي الأولى ، استعار شقة فراس . تأنّق من أجلها دون مبالغة . اطمأنّ لنظافة جسده ، رشرش من مزيل العرق الذي يحمله في جيب سترته تحت إبطيه . لكنه لم يطمئن كثيرًا لجمال جسده ، هو الذي اعترف لعمر أنه يغار من رجال المجلات الأجنبية في عروض الأزياء أو في الإعلانات ، حيث صدورهم «التوبلس» تظهر بطنًا مسطحًة بعضلات محززة بتقسيم واضح . كان عمر يضحك كثيرًا على غيرته الذكورية مطبطبًا على كريشته . دخّن سيجارة على عجل . استوقفته في

مرآة الحمام شعرة طويلة شائبة شذّتْ عن سواد حاجبه وقد نمتْ خارجه بصورة لولبيّة ، فاقتلعها . طنّ موبايله شاقًا لحظة الانتظار بالإعلان عن وصول رسالة . تيت . . تيت . تيت . . تيت . ارتجف قلبه مخافة أن تكون تراجعتْ . «أنا في الطريق .» كتبتْ له . فتقلّص خوفه لكنّ توتّره ، مترقبًا لما قد يكون أو ما قد لا يكون ، ظلّ قائمًا .

سبق طرقاتها المتوتّرة على الباب عطر «الأوبيوم» الذي يسبقها إليه دومًا عندما تزوره في مكتبه ، معلنًا عن وصولها المشاغب ، كافتتاحية لإطلالتها . فزع إذ رآها ببنطلون جينز فضفاض وبلوزة خضراء باهتة ، تتدلّى من كتفها حقيبة من القماش ، شبيهة بحقائب طالبات الكلية . عاتب نفسه الطفلة لأنه تزيّن لعيدهما الجنسي أكثر من اللازم . ثم جفل لفكرة أن خيالاته قد لا تكون في النهاية متطابقة مع خيالاتها ، هذا إذا كانت قد رتّبتْ للأمر أصلاً في خيالها كما رسم له ، مركّزًا على غرافيك مشاهد المقصّات الجسدية التي أُخذ باحتمالات المتعة فيها من الأفلام التي يُعيرها له كمال . سألته عن الحمام فأشار إليه بيده ، دون أن يحيد نظره عن هيئتها اللامبالية . غابت وراء باب الحمام المغلق ثلث ساعة . حين خرجتْ أخيرًا ، هبّ جسده المنكمش على المقعد أمام التلفزيون وقوفًا للمرأة وافرة الجسد ، التي أعلنت عن شهوتها .

بصندل جلدي أسود ذي كعب عال بحبل التفّ حول ساقيها في تصالبات عدة حتى منتصف بطّتيها ، وشورت جينز أزرق كاحت قصير جدًا حزّز إليتيها ، أقرب إلى كيلوت منه إلى شورت ، بسحّاب مُسدل ، ممزّق ، ناسلةً أطرافه ، وحمالة صدر سوداء لزّتْ ثدييها المتجاورَيْن ، أفصحتْ عن رغبتها التي ارتداها جسدها بأقل الإضافات والإكسسوارات وأكثرها بلاغةً وإيحاءً . أبرقتْ خرزة زجاجية ملوّنة ألصقتها عند سُرّتها . فردتْ شعرها ونفشته . صبغتْ وجهها بماكياج لمّاع . شفتاها المكتنزتان مع

أحمر شفاه داكن بدتا متطلّبتين . كانت تشبه إحدى بطلات كمال ، بابتذالهنّ المرغوب ، اللاتي تزيّن صورهنّ المثيرة أغلفة أفلامه ، يغمزن بأعينهن للرجال أو يمططن فتحات سراويلهن ليتلصص الرّائي على مواطن المتعة نصف المكشوفة نصف الخبيئة . أرختْ الشورت لينزلق على جانبي فخذيها . دسّتْ إصبعها في عتمة الشورت نصف المرخي . غمزتْ له بعينها ، فتيقظتْ أعضاؤه فاردة رغبتها .

اعتقد أنه سيكون لقاؤهما الأول والوحيد ، فهذا ما أراده أن يكون ، أو حاول أن يقنع نفسه بذلك . نهض من فوق جسدها شبعان حدّ التخمة ، هو الذي ينهض جائعًا ، بجسد خفيف شبه زائل ، من فوق فاديا . لم يمنع نفسه ، مع ذاك ، من الشعور باغتمام روحه . لم تكن تلك المرة الأولى التي يرتحل فيها إلى امرأة أخرى غير فاديا . بعد أربع سنوات من زواجهما ، عرّفه عمر على تغريد ، خريجة كلية الصحافة والإعلام ، قريبة زوجته حسنا التي توسط لها كي يدرّبها في صحيفة «الأسبوع الأردني» في عمان . بقمصان عريضة فوق بنطلونات جينز فضفاضة ، كانت صبيًا شقيًا ، فاجأته بذكائها ومرحها وجرأتها ، معترفة له أنها تفضل ارتداء الجينزات ذات القصة الرجالية كونها مريحة أكثر خاصة لجهة منطقة السرج ، ثم كانت ترفع القميص ، دون تحفّظ ، لتريه سرج البنطلون المريح وتقيس له بالشبر المسافة الطويلة بين منطقة الحوض وخصر البنطلون . بعد شهور من اشتغالها معه ، خرجا فيها لتناول طعام الغداء أكثر من مرة ، وذهبا إلى السينما مرتين أو ثلاثًا نام معها دون أن يلج فيها ، محتكًا بأعضائها ، التي لم تنضجها الخبرة . لم يكره جسدها لكنه لم يستلذّ به ، والكيمياء التي لطالما تأرجحت في مساحة حضورهما في الصحيفة أو في عتمة السينما المثيرة سرعان ما تلاشتْ عند التحامهما جسديًا . لم يشعر بثقل معها كما لم يشعر بخفة ، لم يظلّ جائعًا وإن لم يستطعم ، ذلك أنه

أدرك ، كما أدركتْ هي دون أن يتصارحا أو يتعاتبا لاحقًا أن لا جنس ثانيًا كان سيتبع الأول .

لكنّ لقاءه مع ليال ، وإن أراد له أن يكون الأول والأخير ، جرّ لقاء ثانيًا باشتهاء لم يقلّ عظمة عن سابقه ، ولقاؤهما الثالث لم يُشفِ غليله الجنسي ، فاستتبع رابعًا وخامسا وعاشرًا . في كلّ مرة يكون شديد النهم إليها ، يأتي عليها بشره علّه يشبع مرة أخيرة وإلى الأبد ، لكنّ اكتفاءه الجنسي لا يدوم سوى أيام ، وأحيانًا ساعات ، فلمنتهى رعبه كان يرغبها بعد ساعات من إتيانها ، وبشبق المحروم كأنه يعيش في قحط جنسي منذ دهور ، مدركًا لرعبه الأكبر أن ثقله الروحي ، الذي يزداد ثقلاً في كل مرة ، لن يصدّه عنها .

تتالتْ اللقاءات بجنس مبدع ، يهبّان إليه بروح رياضيّة تنافسيّة لابتكار الأجمل والأطرف والأشهى والألذّ ، مستطعمَيْن في كلّ مرة بمناطق حديثة الاكتشاف في جسديهما . لكنها الأبرع والأكثر ابتكارًا في استكشاف طرائق وطرق جديدة في بلوغ المتعة ، يساعدها في ذلك شعورها أنها لا تستطيع أن تملكه سوى بالجنس ، كما اكتشفتْ سريعًا ، طالما أنها لم تمتلك قلبه . كل لقاء جنسي لوحة منعشة ، غير مرهقة للنظر ، من الألوان البهية ، أو مشهد دافق بالحركة مع كل إكسسوارات الإثارة اللازمة من إضاءة وماكياج وأزياء ، وقد تستلزم بعض المشاهد باروكة شعر حمراء أو شقراء ، وموسيقى تصويرية وسيناريو جنسي شيق وإخراج محكم ، حتى ما إذا انتهى المشهد فكفكتْ ديكوراته وخلعت زي النجمة وأداءها ولغتها المكتوبة لها في السيناريو لتعود إلى المرأة ، خارج الشاشة ، التي لم يكن ليشتهيها أقل . مرة تكون مارلين مونرو ببشكير صغير ملفوف حول جسدها العاري ، ومرة تكون المرأة القطة بقناع للوجه ذي شارب ، ومرة طالبة مدرسة بذيلين من الشعر يتنططان على جانبي رأسها ، وجوارب

بيضاء طويلة وتنورة كُحليّة كسرات «ميني» تلعق مصاصة «تشوبا شيبس» ، تدور حول نفسها فتطير التنّورة لتكشف عن عجيزة تتقافز بخفة ، ومرة ممرضة لعوب بزيّ أبيض قصير بصدر دالع وسماعة تقيس بها نبض أشيائه الجسدية .

يشعر بقلب فاديا تحته يدقّ بشدة ، لكن دقّاته الحثيثة المتتالية كأنها خوف ، أو قريب منه ، لا إثارة . حتىّ العرق الغزير الذي يتفصّد من مساماتها ليس إفرازًا طبيعيًا للمتعة أو بسبب حرارة الرغبة بقدر ما هو من علامات رهاب احتجاز جسدها تحت جسده . في ظلمة غرفة نومهما ، تستلقي تحته مغلقة العينين ، تتعجّل انتهاء واقعتهما معًا ، تدير وجهها إلى الجهة الجانبية لمزيد من الغياب والانفصال عمّا يفترض أنه مشهدهما المشترك ، لا تهمس ، لا تتأوّه ، وبالكاد تتنفّس ، قابضةً طيلة اهتزازه فوقها بإحدى يديها على طرف السرير للحدّ من اهتزازها اللاإرادي ، مادةً ساقيها باستقامة إلى الأمام بتصلّب ، فلا تفتحهما إلا بالحدّ الأدنى الذي يرجوه منها . وحين يطلب شفاهها همسًا تقول له بصوت مجرّد من أي أثر للاستسلام لشرط الشهوة ، كأن لا جسد يعيث رغبة وعرقًا فوق جسدها ، إن أنفاسها قد تُحبس وقد تختنق ، وقد تسترسل أكثر في شرح جوانب ضيقها البدني لولا أن جسده يتداعى أخيرًا بعنف فوقها ، مطلقًا آهة الخلاص التي تكون تتعجّلها . في المرات النادرة التي تسبقه فيها إلى النشوة ، تكون كأنها مذهولة مما ألمّ بها وبجسدها الذي تُحكم سيطرتها عليه فتفتح عينيها باتّساع يتناسب وهول مفاجأتها ، تضع يدها على فمها ، مجهضةً آهتها .

كان يمكن جدًا لجلساتهما الطويلة الصامتة حول الغراموفون في صالون بيتها أن تكون مقدمة لعلاقة عاطفيّة تتجاوز الرعشة التي كانت تُحدثها في جسمه المضطرب طوال الوقت مساحة الهواء القليلة الفاصلة بينهما .

لكن تلك اللقاءات، على طولها، لم تبدُ له كافية لتسرّ له أنها تحبّه أو يُحتمل أن تحبّه، وإلا لما قلّب الأمر على أوجهه في ليالي سهد طويلة كثيرة. سعى لالتقاط إشارة منها، لفتة، لحظة صمت دالة، موجهة له، غير لحظات الصمت الموجهة من جانبها إلى فضاء الموسيقى في الصالون أو إلى فضاء لا شيء فلم يضع يده على شيء محدّد. كانت تتطلّع إليه، لكن ذلك لم يعن أنها تتطلع إليه حقًا. حسنًا، إن لم تكن تكنّ له شعورًا يعكس قدرًا من الحبّ أو الميل، أي قدر على الإطلاق، فلماذا إذن تشاركه جلسات الغراموفون لساعات؟ عند هذا التساؤل الموضوعي يقرّر أن يتقدّم خطوة، حتى وإن لم تتزحزح عن غموضها. وفي اللحظة التي يتحيّنها للبوحِ بما في نفسه تفزّ من على مقعدها فجأة، تغادر الصالون، تغيب طويلاً، وفي غيابها تهبّ ريح عاتية تفصله عنها، فيمدّ يده نحوها لكن الريح تحملها بعيدًا عنه، فأبعد. وحين تعود إلى متابعة جلسة الموسيقى معه لا يهمّ كثيرًا حينها ما إذا كانت معه.

بُترتْ جلسات الموسيقى في الصالون فجأة، كما بُتر صراخ الرفاق وخبطهم العنيف على اللوحات الرخامية للطرابيزات في الصالون نفسه.. وفجأة أيضًا. خُطبتْ فاديا إلى ابن شريك والدها في مصانعه. زفّتْ له النّبأ كخبر عابر، بنبرة تشبه نظرتها في أنها ليست موحية وليست موجهة له، وذلك بينما كانا يستمعان إلى المقطوعة الاستهلالية لموتسارت «زواج فيغارو». لكنّه لم يملك الوقت كي يُصدم أو يتساءل أو يَحزن حُزن عاشق من طرف واحد مشكوك حتى في طبيعة عشقه هو، الطرف الواحد المعني في ما افترض أنها علاقة حبّ. فمع الاعتقالات الأمنية في صفوف الطلبة بالجملة، وتوجيه تُهم بالانضمام إلى تنظيمات «أجنبيّة» بالجملة واكتظاظ «الفندق الأزرق» في العبدلي، بالنزلاء بالجملة في الطوابق فوق الأرضية والطوابق تحت الأرضية، كان عليه أن يحزن على شيء آخر، كان

حتى ما قبل حزنه عليه يعتقد أنه إضافة عادية في حياته ، ولم يكتشف أنه يحبّه إلا حين أُخِذ منه . حزن على الأفكار ، التي تعب كثيرًا ، وتساءل أكثر ، قبل أن يعتنقها ثم يجاهر بها . حتى حين عادت الديمقراطية التي فصّلتها الحكومة على مقاسها ، وفق باترون مُحْكَم ، واستؤنفتْ الحياة البرلمانية في البلاد وسُمح بترخيص الأحزاب ، ظلّ يفتقد أفكاره الأولى ، يحن إلى الإيمان الأول والشغف الأول .

لم يتخيل أبدًا أن تلك الأفكار سوف تفقد سلطتها عليه بعد وقت ، فلا يعود تأثيرها مستحكمًا فيه ، هو الذي ظنّ في يوم ما ، مليء بالحماسة والعشق الصرف والإثم ، أن الحياة لا تكون إلا بها . ما كان شغفًا تلبّسه بات ذكرى غير واضحة المعالم ، انفصلت مع الزمن عن الحقيقة التي كانها ذات مرة ، فلم يعد يستدعيها إلا ليهز رأسه مبتسمًا بمرارة على عشقه الذي كان في غير محلّه . لكنه لم يشأ ، مع ذلك ، أن يقسو في الحكم على نفسه ؛ إذ أقلّه أنّه كان عاشقًا مخلصًا ، حتى وإن كان ساذجًا . هذا ما ناضل كي يقنع به نفسه . لم يتخيل أيضًا أن أشياء كثيرة في حياته سوف تتغير بعد الصفعة العاصفة التي هوت على وجهه من يد غليظة حانقة ، طارت على أثرها نظاراته الطبية .

- تستطيع دائمًا أن تستبدل نظاراتك .

قال له المحقّق . ثم طلب منه أن يجمع نظاراته ، التي فُصل إطارها عن العدستين ، من على الأرض .

سبقه الشاب الوسيم في التعرّف إليه . اصطدم به عند باب المصرف الدوّار . صافحه بحرارة . في أوائل الثلاثينات كان ، في مثل سنه ، لكن ببشرته الطافحة براحة البال واليُسر ، غير المتغضنة من التنقل اليومي في السيرفسات بحثًا عن عمل ، أو للذهاب إلى عمل رخيص ، بدا أصغر منه . ببذلة أنيقة وعطر رجالي غالٍ ومفاتيح سيارة تدلت من ميدالية عليها

علامة «بي إم دبليو» في يد وحقيبة «سامسونايت» في اليد الأخرى، خاله مسؤولاً في المصرف. دقّق النظر فيه منبشًا في ذاكرته عن وجه بعيد بعض الشيء اعتقده مألوفًا، فضحك مازن، تلك الضحكة التي لم تتغير كثيرًا، رافعًا يده إلى وجهه:

- لعلك لم تميّزني من نظاراتي.

مرّتْ ثماني سنوات على آخر لقاء له به. لم يتمرمط ابن عوني الناطور في التحقيقات طويلاً. تدخّل والده، باسمه وبشوكولاتته، لدى أسماء ثقيلة في أمن الدولة، فأُفرج عن جواز سفره وأُغلق ملفّه بعدما وقّع على إقرار يستنكر فيه انتماءه التنظيمي. لم يقاوم كثيرًا دعوة مازن له على فنجان قهوة. لا يعرف لماذا أو كيف تسلّل شبح فاديا إلى رأسه. فكّر في طريقة ما للاستفسار عن حالها، ضمن الاستفسار عن أحوال رفاق آخرين ومآلهم، تقاسما معرفتهم، دون أن يبين أنّ اسمها تحديدًا يلحّ عليه. لكنه كان يعرف أن السؤال عنها لم يكن يشبه أبدًا السؤال عن الآخرين. ركب إلى جواره في سيارته البي إم دبليو الكُحليّة. تلقّى مازن اتصالين على هاتف السيارة أبقياه مشغولاً طيلة الطريق إلى أن توقّف عند أحد مقاهي الشميساني.

بعد تخرّجه، تولّى مازن إدارة مصانع والده، مظهرًا حنكة تجارية كأنها وليدة حنكة أفكار الثورة في الزمان الأول، جعلته في غضون خمس سنوات في مصاف كبار التجار في البلد. توسع «البيزنس» أكثر مع توسيع إنتاج المصنع. تمّ استيلاد مصانع شوكولاته بتراخيص جديدة واحتضان براءة ستة أنواع أخرى من الشوكولاته، تظهر إعلاناتها التجارية في التلفزيونات ليل نهار، حيث تقوم فتيات عمّانيات غربيّات جميلات بقضمها، وهن يرقصن ويغنّين لتشنّ أقلام الصحفيين الحاقدين وبقايا فلول الثوار المنكسرين من قاطني عمان الشرقية، وما لفّ لفّها من أحياء

ومدن أقل حظًا ، هجومًا على الشوكولاته بعيدة المنال عن أطفال الأردن الفقراء . بعد حرب الخليج الأولى تشارك مع أحد رجال الأعمال القادمين من الكويت في فتح منافذ بيع للشوكولاته الفاخرة في أحياء عمّانية راقية ، نبتتْ في أراضٍ جرداء في الغاردنز والرابية والصويفيّة وأم أُذينة وعبدون ، بالفلوس الهاربة من الكويت والعراق . كان مازن يحدثه عن صولاته في عالم التجارة بحماسة ثوري الأمس ، مع فارق أنه انتصر . بحث تحت بطانة البذلة الأنيقة لمازن ذي الوجه الململمّع والشعر المشبع بالجل المسحوب إلى الوراء عن مازن ، نصف الملتحي بالشعر المنكوش ، الذي كان يستلقي بالجينز خلف مكتبة الجامعة ، فوجد أنه ربما لم يختف تمامًا . ثمة ذلك النقاء في صوته ، تشتعل فيه الحماسة إياها ، صحيح أنه لم يعد يبيع الأفكار الملهمة ، لكنه يبيع الشوكولاته ، وليست أي شوكولاته .

سأله عن رفاق الصالون ، فلم يكن مازن ، مثله ، على اتصال بأي منهم . سمع فقط أن غازي جبريل عاد إلى الأردن ضمن المبعدين الذين سُمح لهم بالعودة . «أما علي قاسم فكل الناس يعرفون أخباره» ، قال له مازن ضاحكًا ، متبادلاً وإياه نظرة لها معنى . فصورة عليّ الغاضبة لا تفارق شاشة التلفزيون ، يظهر في البرامج الحوارية وفي نشرات الأخبار ، ليتحدّث بصوت عالٍ ، بشرايين منتفخة متقاطعة في رقبته ، يكاد يقف من الإثارة فوق طاولة المُذيعة ، يتكلم عن الوطن والمواطن ، عن الحرية والديمقراطية ، عن كل الأشياء التي تستحق الصراخ في سبيلها ، ثمّ لا ينسى أن يوجه في النهاية ، بعد انحسار غضبه الشديد ، الشكر للتلفزيون الذي استضافه . بعد أن اعترف على رفاق الصالون ورفاق الصالونات الأخرى ، اختفى عليّ مرة واحدة من المشهد . بعد سنوات ، ظهرتْ صورته في الصحف أمينًا عامًا لأحد الأحزاب الجديدة المرخّصة ، ثم أصبح رئيس تحرير صحيفة أسبوعية ناطقة باسم الحزب . لم يتغير شكله كثيرًا . بات يستحم ربما

أكثر . رفع مازن رأسه من فنجان القهوة الفارغ وسأله :

- لَمْ تسألني عن فاديا؟

قاومت صفيّة ورباب فكرة زواجه بفاديا دون نجاح . ارتعبا لظهور شبحها في حياته بعد غياب . كان مازن قد دعاه إلى زيارته في فيلّتهم إياها . قال له إن فاديا ستُسرّ كثيرًا لرؤيته . عرف منه أنها خطبتْ وفسختْ مرتين . انتظرها في الصالون نفسه . حل محلّ الغراموفون جهاز تسجيل بعدّة طبقات . استُبدل طقم الكنب البني الكلاسيكي الضخم بآخر عصري . بدل الطرابيزات المذهّبة القوائم بألواح الرخام احتلّتْ طاولة مربعة عريضة بسطح زجاجي منتصف الغرفة . حين وقع بصره على فاديا اكتشف كم أنه بعد كل هذه السنوات لم يتعاف من تأثير شحوبها وتعاليها على الحبّ ، حبّه هو أو حبّ أي رجل سواه . لم يتزحزح شحوبها عن لونه ، فأدرك أنه لا يد له في النهاية في حبّها . تحسّن وضعه في «الأسبوع الأردني» بتسارع . كان قد التحق بالصحيفة قبل عام ، بعد سنوات تنقل أثناءها بين البطالة والكتابة غير المنتظمة في الصحف . استدعاه رئيس التحرير إلى مكتبه . فتح معه حديثًا وديًا عن العمل وأشياء أخرى . قال له إن مازن الناطور قدّم تبرعًا سخيًا للصحيفة وأنه وقع معهم عقدًا إعلانيًا ضخمًا لنوع جديد من الشوكولاته التي ينتجها أحد مصانعه . بعد أسبوع صدر كتاب بترقيته من محرر في القسم الثقافي إلى رئيس للقسم . بعد ثلاثة شهور أصبح سكرتير تحرير الصحيفة ، فعرف أنه يستطيع الآن أن يتقدّم لطلب يد فاديا رسميًا . لكنه عرف ، بعد وقت ، أنه لا يستطيع أن يظل مرتهنًا لشوكولاتة الناطور ، فجاءت «الطريق» في أبوظبي في الوقت المناسب . سأله رئيس التحرير : «هل تريد فلوسًا؟» فابتسم لأنه فهم مغزى سؤاله :

- أريد نوعًا آخر من الشوكولاته .

بكتْ كثيرًا ليلة فضّ بكارتها ، فاستعذب هشاشتها أول الأمر ،

مدارية عريها الخالي من الزخرفة، المتخفّف من الامتلاءات والرغبة، بذراعيها ملفوفتيْن حول نفسها. حين أتاها ثانية، بكتْ. بكتْ أيضًا عندما نام معها في المرة الثالثة. في كل مرة يصبّ فيها رغبته تبكي، حتى حين لا يرى بكاءها بالضرورة. في أول الأمر كان يتأثّر، ثم صار ينزعج، يحاول أن يفهم منها أين أخطأ أو لعله أساء التصرّف، لكن بكاءها يتواصل بصمت، في ما بعد لم يعد يتوقّف عند بكائها. ثم لم يعد يتوقف عند تفاصيل علاقتهما الجنسية المجردة من كل المشهيات، حيث عريها المتدثّر باللّحاف، وأحيانًا حيث أقل القليل اللازم من العري، فتتسلل رغبته إلى جسدها من تحت سروالها، وحيث الصمت والأنين المخنوق وآهة الوجع المكبوتة، والوجهان اللذان يشيحان عن بعضهما، والاهتزاز الميكانيكي المتواتر وزوايا الولوج غير المتغيرة، بالدرجة الحادة ذاتها، لا انفراج ولا انبساط، لا ارتفاع كما لا انحناء، لا لفّ، لا دوران، لا انقلاب، ولا ميلان.

حين حملتْ بطفلهما الأول فادي لم تجعله يقربها طيلة شهور الحمل، فاستغرب كيف أبهج وجهها وأشرق على غير ما ألف من جانبها. تكرّر الحال حين حملتْ بطفلهما الثاني رامي. في المرات المتباعدة التي يأتيها فيها، لم تكن تسمح له بأن يتملّى في عريها أو يعبث بجسدها، وتصرّ على أن ترافقهما العتمة طوال الوقت، فيأتيها ضائعًا، تائهًا، متخبّطًا في طريقه إليها، وتكون متوجّعة، متعجّلة، أكثر منها متشوّقة مستمتعة بالشيء الذي يخترقها دون سلاسة. ذات مرة غرس شهوته فيها بعنف أكبر من المعتاد، صرختْ من الألم، فجفل فوقها. اخترقته نظراتها في العتمة. ارتعب إذ رأى فيهما مزيجًا من خوف وقرف. صفعها. فلم تبك. ارتعب من نفسه أكثر حين قال لها: «بحبّك.»

لا يذكر بالضبط متى بدأتْ ليال تطلب قلبه، متهاونةً في طلب

جسده . بعد شهور من جنس صافٍ ، خالص لوجه ذاته ، للمتعة التي تتأتّى من المتعة ، مُشفّى تمامًا من أية مشاعر لا لزوم لها ، بدأت تُلحّ عليه بكلام الحبّ ، ليس ذاك الذي تُسمعه له فحسب ، دون أن يطلبه منها ، وإنما الكلام الذي تريد أن تسمعه منه ، دون أن يريد أن يعطيه لها . لم يفهم لماذا لم تكتف مثله بالشهوة ، كفعل للحبّ يفوق في وقعه كلّ كلام الحبّ . حاول أن يشرح لها أن فصاحة الجسد تفوق في قيمتها ومعناها فصاحة اللسان ، لكنها ظلتْ تريد «أحبّك» . أصرّتْ عليها بصوته لا بجسده . إذ يتمنّع عنها بكلام الحبّ تمنع جسدها عنه . اعتقد أنه يستطيع أن يصوم عنها ، لكن لم تكن تمضي بضعة أيام ، زاهدًا في جسدها مستلقيًا بمحاذاة جسد فاديا المستوي على السرير كشريحة توست ناشفة أو رقاقة بسكويت غير محشوّة ، حتى ينهار من الجوع ، فيتّصل بها قائلاً : «بحبّك» ، ويُمسّج لها بـ«بحبّك» ، و«أريدك» ، و«أشتهيك» ، فتبادله ، بعد أن تلوّعه ، شهوته المسجيّة بشهوة أعظم ، تدخل معه في مبارزة مسجيّة مستعرضة شاعريّتها الجنسيّة ، التي تتفوّق بما لا يقاس على شاعريتها الشعرية والروائية المتواضعة ، فيُقبل على طبقها المليء بالأطايب بنهم ، وقد يشرق بإحدى اللُّقم ، حتى إذا ما أتى عليها ، ماسحًا طبقها بالكامل ، شعر بتخمة وإعياء جسدي ، فيعود منهكًا ، يتمدّد إلى جوار بسكويتته النائمة ، يريد أن يضع يده على كتفيها الملمومين إلى صدرها الناعم ، لكنه يخشى أن يكسرها . يتأمّل طفوها الخفيف على السرير ، كأن روحها ، في نومها ، تصرّ على أن تغادرها لليلة فقط أو لأجزاء منها ، ذلك أن الموت في تلك اللحظة يكون يشبهها ، لكنه لا يكون موتًا مميتًا ، وإنما موت تتهذّب فيه الحياة ، مصطفيًا خلاصة الوجود . ترتطم عينه بسقف الغرفة المعتم ، يقول بينه وبين نفسه إنه لا يستطيع إلا أن يحبّ فاديا . يؤكد بينه وبين جسده المتخم أن علاقته بليال يجب أن تنتهي .

- طبيعي . . فهذه أعراض الشعور بالخيانة .

قال له عمر ، مسترسلاً :

- ما يصعّب الأمر أن هذا الشعور لا يأتي إلا بعد الارتواء الجنسي .

ما إن نجوع ثانيةً حتى ينحسر الشعور بالخيانة ليتحوّل بقدرة قادر إلى حاجة ، فكلمة حاجة تقلّل من إحساسنا بالذنب .

لم يعرف كيف يقول لعمر إنّ الأمر أكثر من مجرد حاجة . ليال ، هي الحياة التي تجعله يتواصل مع فاديا بموت أقل . لا يستطيع أن يعيش الحياة باكتمال وامتلاء ، كما لا يستطيع أن يقذف نفسه في الموت بالمطلق . يستلّ شيئًا من جسد ليال الحيّ جدًا لينفحه في جسد فاديا المستكن ؛ فرعشته من الأولى تصيب ، بقدر ما وإن كان يسيرًا ، الثانية ، لتجعل خطّ قراءة الحياة شبه المستقيم يرتفع فجأة بانحناءات متواترة . من الصعب جدًا أن يشرح لعمر أن خوف فاديا من الجنس خفّ منذ أن توطّد جسده بجسد آخر ، نفورها من شهوتها وشهوته تراجع . صار يرغبها أقلّ ، فصارت ترغبه أكثر . صار يبتعد ، فصارت تقترب . يشيح بوجهه عنها ، فتحاصره بوجهها . يوم تطرده ليال من جسدها ، يهزل ، يبحث عن أي لقمة تسدّ جوعه ، فتغنيه فاديا بقليلها ، الذي لم يكن في ما مضى ليشبعه . وحتى عندما تنهكه ليال ، فتتفصّد رغبته في موج لحمها الهائج حتى آخر نقطة منها ، تكون فاديا شاطئه الذي يلقي بتعبه عند أطرافه .

في تلك الليلة ، ارتمى على السرير ، منهكًا ، فياضًا بجسد ليال . على الطاولة نصف المعتمة في المطبخ بالباب نصف المفتوح ، كانت كريمة لا تزال تخلط الأوراق ، تفردها أمامها ، تقلبها ، ثم تعيد خلطها ، فتفردها ، تتأملها ، دون أن يبدو على ملامح وجهها ما ينبئ بإدراك ما . حطّ ضوء ليلي ، مزيج من نصف قمر وإنارة شارع ، على جسد فاديا المستلقي إلى جواره ، متسربًا من نافذة غرفة النوم عبر الستارة «الفوال» السكرية ،

فخفقت فوق الجسد الهشّ فراشات . فجأة ، تقلبتْ فاديا على السرير مستديرة جهته ، فطارت الفراشات راعشةً بأجنحة من نصف قمر ونصف ليل مُنار قبل أن تحطّ على جسدها ثانية . مدّتْ ذراعها نحوه . عانقته . استكن إلى لمسة موتها التي تحيي أجمل ما في الحياة .

يجب أن ينهي علاقته بليال . قال في نفسه .

(١٤)

عمر السّرو

قطع ساعتيْن من الوقت يتمشّى على كورنيش بيروت . كان قد نزل مساء أمس في فندق «سافوي» . تناول الإفطار في البوفيه ، وظلّ في صالة الاستقبال طيلة النّهار ، يُحصي مجاميع السياح غير المنظمة من العرب الذين يفدون من دول الجوار في حافلات رخيصة . حقائبهم الكثيرة الملقاة على الأرض كجثث مشوهة آذتْ بصره لبشاعتها . بدا له الجانب الصغير جدًا من بيروت الذي غازله من نافذة صالة الاستقبال مغريًا بالمداعبة ، لكنه جَبُن . آثر البقاء في الفندق حتى العصر ، حيث تناول غداءه فيه ، وغصّ بقطعة الستيك غير الناضجة تمامًا ، مع أن إياد نصحه أن يجرّب المشاوي في مطعم «عبد الوهاب» في شارع مونو . إياد قال له إنه لا يمكن أن يتيه عنه . لكنه شعر أنه تائه على المقعد القديم ، غير المريح ، في صالة الفندق ، متفقدًا جيوب بنطلونه وجيب قميصه طوال الوقت ، متحققًا من أرقام هواتف الناس الضرورية التي يحملها معه في حال استجدّ شيء ، وهي أرقام لم يستخدمها ولم يفكر في استخدامها ، بعضها كانت لمعارف يخصّون إياد أو معارف يخصّون زملاءه في الصحيفة . لكن من المفيد التأكد بين دقيقة وأخرى من استقرار هذه الأرقام الضرورية في حوزته . وحده رقمها كان على ورقة منفصلة طواها في جيب محفظته . دقّق النظر

فيه ، ليتحقّق منه مع أنه كان قد حفظه لكثرة المرات التي دقّق النّظر فيه .

اتّصل بهنادي ليلة وصوله . كانت الساعة الحادية عشرة . اتفقا بأن يلتقيا غدًا في التاسعة مساء . قال لها إنه متعب ونعسان ، إذ لم ينم ليلة أمس ، لكن عينه لم تغمض قبل الخامسة فجرًا ، قضاها على شرفة غرفته في الفندق يراقب الليل ينزاح فوق المدينة دونما استعجال . ساءه أن يقرّ بينه وبين نفسه ، في لحظة التّماس الدقيقة بين آخر الليل وأوّل النهار ، أنه كان فزعًا . تخيّل شعرها الذي كانت تجمعه في ذيل مرتفع ، يتنطّط برشاقة ، أعلى رأسها . في سنّها هذه ، لعلّ شعرها فقد شيئًا من رشاقته . لكن صوتها لم يتغير ، مع أن الأصوات في العادة تخمُل مع السنّ . بدتْ متباهية بصوتها ، كأنها متباهية بجسدها الذي لم ينجب . في الصباح ، راعه وجهه الذي حدّق فيه في المرآة . كانت الأكياس تحت عينيه منتفخة ، وكانت بشرته قد مرّ عليها دهر ، فأقنع نفسه في البداية أن الأمر له علاقة بأرق البارحة الذي جعله يتأخر في النوم ، ثم واجه نفسه بالحقيقة المخيفة أنه كبر كثيرًا ، ولعلّه كبر أكثر مما كبرتْ هي مع أنها في مثل سنّه ، فهو أب لثلاثة أولاد وجدّ لثلاثة أحفاد . رشق وجهه بالماء البارد ، وحين طالعه وجهه ثانيةً في المرآة ، أدرك أنها قد لا تُسرّ كثيرًا لمرآه .

مع انسحاب العصر ، تكاثر البشر على الكورنيش ، فتداخلتْ وجوههم المنوّعة ، التي ارتطمتْ ببصره ، مع أفكاره التي كانت تذهب في كلّ الاتجاهات ، لتشتّ وتضلّ طريقها ، قبل أن تعود إليه أكثر ضياعًا واغترابًا عنه . مضى إلى ساحة النجمة . فتش عن مقهى «لا بوستا» ، مكان لقائهما الموعود ، فوجده شبه خالٍ . عشرات المقاهي انتشرت في الساحة ، وقد توزّع الجراسين بين الطاولات يشهرون خدماتهم في وجه أي ضيف محتمل . كانت الساعة السابعة إلا عشر دقائق . ما زال أمامه أكثر من ساعتين . جلس في مقهى يقع على زاوية في الجهة المقابلة ، تجعله

قادرًا على استطلاع وجوه روّاد «لا بوستا» الوافدين إليه من سائر اتجاهات الساحة تقريبًا . طلب قهوة سادة وجلس ينتظر .

لم يطلْ انتظاره كثيرًا ، تدحرجتْ رسالتها من أعلى الصفوف الخلفية للمدرّج ، حيث تجلس ، إلى الصف الثاني حيث يجلس . تناقلتْها أيدي الزملاء الزّاجلة مصحوبة بهمساتهم وضحكاتهم . كان غافلاً عن سير المحاضرة . أتعبتْه عشرات الخواطر في الليلة الفائتة ، ظلّتْ تطحن رأسه حتى نام ، وظلتْ مستيقظة تصخب في رأسه حتى وهو نائم ، وحين أفاق وجدها تنتظره ، متأهّبةً لمزيد من الصخب والطحن . فضّ الرسالة المطوية أربع طيّات دون أية حماسة . «يجب أن نتحدّث .» كتبتْ له . التقيا في الكافتيريا بعد المحاضرة . حاول يائسًا أن يطرح خواطر الأمس التي احتشدتْ في رأسه خارجًا ، لكنها ظلّتْ حبيسة الداخل تضغط عليه بقوّة . مضى لقاؤهما في الكافتريا ، تمامًا كما خشي ، وهي تتأمّل الوجوه من حولهما ، دون حديث . هذا اليوم يجب أن يتحدّثا . لم يكن قد رتّب كلامًا محددًا في ذهنه ، فحاول بما تبقّى لهما من دقائق أن يبحث عن مدخل أو مُستهلّ للحديث . نظرتْ إلى ساعتها وقالت له إنهما يتعيّن عليهما اللحاق بمحاضرتهما الأخيرة . همتْ بالنهوض ، وضع يده على معصمها قائلاً : «سوف أتزوّج!» رمقته بنظرة خالية من أي تعبير استمرتْ لما يقرب من الأزل ، ثم نظرتْ إلى ساعتها قائلة : «يجب أن نلحق المحاضرة الآن .»

سقط صوت المحاضر في سمعه كصدى مزعج . هبطتْ إليه ، عبر الأيدي الكثيرة الملولة ، رسالتها . طوتها خمس أو ستّ طيّات . كتبتْ له بكلمات عملاقة احتلّتْ الصفحة كلها : «علينا أن نتحدّث .» شعر بها بعد المحاضرة تنزل من أعلى المدرّج باتجاهه ، جمع أغراضه واندفع خارجًا بسرعة . ركض دون أن ينظر وراءه ، حتى إنه لم يتوقّف لالتقاط قلمه الذي

وقع منه . انقطع عن الكلية أسبوعًا ، كانت أثناءها تتصل به كل يوم فتقول لها إنصاف ، كل يوم ، إنه «طلع» ، و«لم يقل أين ذهب» ، و«لم يقل متى سيأتي .» وكانت تذهب إلى بيته كل يوم ، وأحيانًا مرّتين في اليوم ، في الصباح قبل أن تتوجّه إلى كليّتها ، وبعد انتهاء محاضراتها عصرًا ، تدقّ الجرس طويلاً وتتلكأ إنصاف ، كل يوم ، في فتح الباب ، حتى إذا فتحته أخيرًا ، أطلّ وجهها المتبرّم من خلال شقّ صغير لتقول لها إنه «طلع» ، و«لم يقل أين ذهب» ، و«لم يقل متى سيأتي .» وكل يوم كان يختبئ منها في حجرته ، يقبض على أنفاسه خشية أن تفضحه . في اليوم السابع ، ربضتْ له في سيارتها «الأوبل» الخضراء قريبًا من بيته ، حتى إذا خرج بعد المغرب تحركتْ سيارتها ببطء إلى جواره ، دنتْ منه كثيرًا ثم فتحتْ الباب وسحبته من ذراعه .

والداها كانا يقضيان عطلة نهاية الأسبوع عند شقيقها المتزوج في إربد . قبض عليه الخوف وهو يتلفّتُ حوله في البيت ذي الحجرات الكثيرة ، المليئة بأثاث كلاسيكي ضخم تفوح منه رائحة تنجيد رخيص . ظل متوترًا طيلة الوقت ، ولم يفلح صياحها المجلجل في صالة البيت الفسيحة في إقناعه بأن أحدًا لن يهدّد عريهما . الشيء الذي لم تعرفه ذلك اليوم أنه في الحقيقة لم يكن يريد أن يعابث جسمه بجسمها ، ذلك أنه حين غاص بصره في عينيها رأى أنها في تلك اللحظة نزعتْ عنها يقينها ، ولم تعد هنادي التي تبدو واثقة دائمًا تمام الثقة من نفسها ومن عظم تأثيرها عليه . كانت هنادي أُخرى ، خائفة ، متضعضعة ، تحسب ألف حساب للفقدان الوشيك جدًا ، وتكاد تهوي وتتهشّم . لا يعرف بالضبط كيف يحدّد مشاعره ، لكنه في تلك اللحظة بالذات أدرك أنه يحبّها ، ولم يشأ أن يتيه في عريها قبل أن يقول لها ذلك . على أنها لم تمنحه الفرصة . رمتْ جسدها الغضّ فوق جسده على كنبة الصالون ، مسحتْ لحمها

بلحمه ، فركتْ صدرها بصدره ، دعكتْ فخذيها بفخذيه ، شحذت رغبتها بمسِّه . كانت تبكي حين قالت له : «أحبّك . . أحبّك . . أحبّك .» فقذف سائله على بطنها وفخذيها ، ورشق جانبًا من الكنبة .

في المرّة الأولى التي قالت له فيها «أحبّك» ، شعر أنها سلبته لحظته التي خطّط لها وعمل خياله كثيرًا في سبيل إخراجها بصورة تبزّ كل الصور السينمائية الرومانسية ، العالقة شظايا منها في ذهنه . كان قد وضع سيناريو محكمًا . سوف يأخذها إلى مقهى افتُتح حديثًا مقابل الجامعة ، وسوف يتّفق مع النادل أن يحضر له طبقًا كبيرًا بغطاء . لا يستطيع أن يحدّد بالضبط من أي فيلم استعار هذه الجزئية . ثم يجعلها ترفع الغطاء بنفسها لترى بطاقة مكتوبًا عليها «أحبك» . وإذا تعذّر هذا السيناريو ، لإشكالات عدة منها عدم تعاون النادل ، أو ربما لعدم وجود طبق له غطاء في هذا النوع من المقاهي الذي لا يمكن في أيّ حال من الأحوال أن يشبه المقهى أو المطعم المتخيّل سينمائيًا في ذهنه ، فهناك سيناريو بديل ، ومحكم أيضًا ، حيث سيكتب «أحبّك» على ورقة كبيرة ، يطويها أربع أو خمس طيّات ، يضعها أثناء تشاغلها بالنّظر في أشياء المقهى وكائناته أو عند ذهابها لاستطلاع الحمام ، كعادتها حين ترتاد مطعمًا أو مقهى لأول مرة ، تحت صحن الشاي أو على حافته . لقد خطّط في خياله كيف سوف تُدهش حين تلوح لها «أحبّك» بأحرفه المعوجّة التي تشكو من أنها لا تستطيع أن تقرأها بيسر ، خاصّة حين تستعير دفاتر محاضراته . هذه المرة لن تشكو من خطّه ، إذ لن يكون هناك أيّ لبس في «أحبك» . يا الله كم كان يتطلّع إلى تلك النظرة التي كانت ستغمر عينيها . وعلى وقع مفاجأة الحبّ سوف تأتي الرجفة على كيانها ، بحيث يوشك كوب الشاي الساخن أن يفلت من يدها ، لكنّها تتمالك نفسها وجسدها في اللحظة الأخيرة ، وإن انسكب بعض من الشاي على أجزاء من أصابعها . وإذا

تواءم المشهد الأخير مع ما خطّط له فسوف يلعق أصابعها التي تدبّقتْ بالشاي الحار . كلّ شيء فيما بعد كان سيكون مختلفًا وجميلاً .

لكنها سبقته . استولتْ على أحقيّته في الابتداء بالحب بمنتهى الثقة والجرأة والشراسة . ما فعلته معه لم يكن عادلاً أبدًا . كانا في كافتيريا الجامعة أمامهما عشر دقائق قبل موعد محاضرتهما ، حين قالت له وسط فوضى الطلبة على الطاولات المتهالكة «أحبك .» قالتها له مع النسكافيه الذي يُقدّم في الأكواب الورقيّة . ليس هذا فقط ، بل سمحتْ لنفسها أن تقول له إنها تعرف أنه يحبّها . قالتها له وهي تحرك السكّر في النسكافيه ، محاذرةً النّظر في عينيه مباشرة . وبدل أن تُدهش هي ، كما رسم لتفاصيل دهشتها المتخيّلة بدقّة ، دُهش هو ، لا لأنه لم يطلب الحبّ بل لأنه أراد أن يُنعِم به عليها قبل أن يأخذه منها . القوّة في أن يَمنح ، حتى وإن بدا متمنّنًا عليها ، وبقدر ما متعاليًا ، لا في أن يَأخذ ، حتى وإن كان يريد أن يأخذ ، ويأخذ بقدر كبير .

حمل السيجارة بيده دون أن يشعلها . قال لها إنّ زواجه بحسنا أمر حتمي . شرح لها مسألة البيت الذي يجب حمايته . كانت يده ترتجف طوال الوقت ، فاضطرّ إلى أن يُطفئ السيجارة ، غير المشتعلة ، في منفضة السجائر . و«أنا؟» سألته راكعة عارية عند قدميه ، ولم تغتسل من آثار سائله عليها . «ماذا عنّي أنا؟» رفعتْ عينيها إلى عينيه الخفيضتيْن تطلب شفقته . أرادها وهي راكعة عارية ، مستعطفة ، تسند ذقنها المستدقّ على ركبتيه . حملها وأجلَسها على حضنه ، ثم أدناها نحوه حتى التحمتْ به . لفّتْ ذراعيها حوله وأسندتْ رأسها على كتفه . بسط كفّه فوق رأسها الصغير ، وأيقن أنّ الفرصة أتته أخيرًا ليقول لها ما كان يجب أن يقوله . شعر بماء دافئ يسقط حبيًا على كتفه . أزاح رأسها ، فأبصر عينيها مبلّلتيْن تمامًا . غشي البللُ أنفها الصغير . همّ بالكلام ، عندما باغتته من بين

دموعها : «أحبّك .»

«هل تُحبّينني؟» سأل حسنا بعد أسبوع من زواجهما مارسا خلاله الجنس في كلّ الغرف وفوق كلّ قطع الأثاث ، وهي كثيرة ، فضحكتْ حسنا لسؤاله ، وظلّت تضحك حتى انقطع نفسها ، ثم تعرّتْ ونطّتْ عليه . في آخر الليل وبعد مبارزة جنسية حامية ، استلزمت كل مهارة ومراوغة ومرونة جسدية ممكنة من حسنا ، سألها ثانية : «هل تُحبّينني؟» فأعطته حسنا ، وكانت مستلقية على بطنها عارية ، مؤخرتها التي ورّمتها صفعاته العنيفة المتتالية ، ثم قوّستها إلى أعلى قليلاً مفرّجة ساقيها وقالت له : «ادخل .»

خمس دقائق بعد الثامنة . أطفأ سيجارته الثانية . روّاد «لا بوستا» وكل المقاهي كانوا يتضاعفون مع انطباق المساء تمامًا فوق ساحة المقاهي . غرز إصبعه في قعر الفنجان ولحس شيئًا من الراسب ، كما يحبّ . سحب جزءًا آخر من الراسب بطرف إصبعه ورسم به على جدار الفنجان الداخلي أشكالاً نبتت من خياله كيفما اتفق ، ودون أن يتأمل في مغزاها . تراءتْ له على صفحة الجدار الخزفية الصقيلة أمه إنصاف تُدقّق في الرموز الخبيئة ، الدالة جدًا ، في فنجان الجارة التي تتابع نظراتها وصمتها ، الذي قد يطول ، بقلق . كان يحبّ أن يسمعها وهي تقرأ بلسان عذب مليء بالمفردات المشوقة ما وراء رسوم فناجين القهوة للجارات . كانت تنهر شقيقاته كي ينفضضن من مجلس النسوان ، أما هو صغيرها فكان يستطيع أن يلهو بين النسوة اللاتي يتربعن في دائرة حول الوالدة ، رأس الجلسة ، لتنحسر فساتينهن عن أفخاذ أولينها عناية زوجية خاصة . كانت لإنصاف طريقة ساحرة في الكلام ، وكانت جملها التي قد تنتهي بكلمات موزونة ومقفّاة ، كأنها مُغنّاة ، فكان يَسهُل عليه حفظها .

ثم حين تُرفع صينية القهوة ، تنتقل إنصاف إلى الجزء الذي ينتظره هو

قبل الجارات ؛ تفسير أحلامهن التي تجود بها بواطنهن في المنام ، فتفضح رغباتهن ومخاوفهن ، غصبًا عن تحفظاتهن . في بعض الأحيان ، حين تمضي إنصاف في فكفكة حلم بعينه ، والكشف عن محتوياته على غير ما هو مُشتهى ، كانت الجارة صاحبة الحلم تنتفض معترضة محتجة ، كما لو أنها تدفع عنها تهمة شنيعة . وإنصاف ، كما بات يعرف أسلوبها ، تتعمّد أن تُسعد من تحب من الجارات ممن يرُمن رضاها ويمتدحنها ويتفقدنها بالكعك المنزلي الصنع ، وفاكهة الموسم والشالات المطرزة ، بتقديم قراءة إيجابية لأحلامهن حتى وإن اقتضى الأمر أن تحيد عن التفسير الحقيقي ، أو تلويه ليًا لغاياتها ، تمامًا كما تتعمد أن تثير الكدر الهاجع في أحلام الجارات اللئيمات ، شحيحات اليد واللسان ، فتوقظ الغيلان النائمة في أقدارهن ، فيضربن على صدورهن العامرة بدفء الزوج والمال والعيال فزعًا . على أنه أيًا كانت علاقة إنصاف بجاراتها ، فإنها لم تكن لتخفي تشاؤمها وتوجّسها الصريح من أحلام أجهزة المنزل الكهربائية المعطلة ؛ كثلاجة يتوقف هديرها المزعج ، في الحلم ، فجأة أو غسالة تنفجر أثناء دوران الماء فيها ، فيغرق الماء العكر والصابون البيت ، أو مكنسة كهربائية تتحشرج قبل أن يطلع منها نار . ففي هذه الأحلام موت . تنبّأتْ بذلك لعدد من «الحالمات» ، وكلّهن فقدن عزيزًا بعد تعطّل جهاز كهربائي في أحلامهن .

هو أيضًا كثيرًا ما يأخذه الهوى في تفسير الأحلام ، خاصة عندما يتعلّق الأمر بتفسير أحلام النساء والفتيات ، فيبدّل ويغيّر ويحرّف ويقلّب الرموز على أكثر من وجه ، بحسب ما تبوح به له الحالمة ، وبحسب ما تُسرّ له من معلومات عن شخصها ، تستلزم الإشفاق من جانبه والتّعاطف أو التجاهل واللامبالاة ، وأحيانًا ، وهو أمر مجحف بالتأكيد بحق العديد من الحالمات الملتاعات ، بحسب ما يتهيّأ له من صور يرسمها عقله لصاحبة الحلم ، حيث أن الحالمة بهية الطلعة تستحقّ تفسيرًا مغايرًا لتلك التي

يجترح خياله صورة ظالمة لها . فالجميلة ، في خياله ، التي يسقط شعرها في المنام وتَصلعّ فجأة إنما يطولها شيء من كرب أو غمة سرعان ما تزول ، أما المغضوب عليها في خياله لعدم ملاحتها أو لنفوره لاإراديًا من شخصها ، فعليها أن تتوقع مصيبة أو ذلاً مقيمًا أو تهتكًا في العرض مشينًا . وكان يصرّ على الحالمين بألا يكتفوا بتقديم رواية الحلم فقط ، فمن المهم معرفة العمر والوضع الاجتماعي والظروف النفسية المحيطة بالحلم ، ما يحيله في بعض التفسيرات إلى محلّل نفسي و«حُلُميّ» على الطريقة الفرويدية . وإذا كانت الحالمة من شحم ولحم ملموسين ، مثل سكرتيرة رئيس التحرير ، فلا يستطيع أن يتغاضى عن شخصها ، وبالتالي لا يمكن لتفسيراته إلا أن تنصاع لما تروم وتشتهي ، فالرجل الغامض الذي يزورها في المنام هو العريس المنتظر ، لا الموت الذي اتفقت على دلالاته معظم تفاسير الأحلام القديمة والحديثة ، والطبل والزمر والرقص الذي تسمعه في منامها إنما أجواء العرس المرتقب ، لا الحزن والمصيبة والبلاء المتفق عليها من قبل مفسري كل العصور . فتتمختر السكرتيرة الأربعينية حين تغادر مكتبه ، تزهو بشعرها المصبوغ بشقرة فاضحة وأصباغ وجهها التي تفشل في إخفاء تجاعيد يأسها ، تترك له على طاولته شوكولاتة تويكس ، غير خافية على من حولها فرحتها بالقدر الجميل القادم الذي بُشِّرتْ به .

فطن إلى أنه أصبح مثل أمّه ، ثم اكتشف أنه وأمّه مثل مفسّر الأحلام اليهودي بار حجّة ، الذي قرأ حكايته في كتاب يتناول تفسير الأحلام عبر العصور أحضره له إياد من إحدى سفراته إلى بيروت . فالحلم ذاته ، بالنسبة لبار حجة ، قد يكون له تفسيران متناقضان والمسألة مرهونة بما يدفعه صاحب الحلم له لقاء التفسير ، فكان يتنبأ بالخير لمن يجزل له العطاء وينقده أجرة مرتفعة ، بينما يكون البلاء وتردي الحال وسوء المآل للزبون الذي يأبى أن يدفع له أجرته ، وفي النهاية فإن المفسر هو الذي يوجه

الحلم لا العكس. لكنه كان أفضل من بار حجة قليلاً، إذ كان يخاطب، في قراءته لأحلام الناس، رغباتهم، هو الذي اكتشف مثل فرويد، وحتى قبل أن يقرأ «تفسير الأحلام» له، أن الدافع إلى الحلم رغبة ومحتواه يحقق رغبة؛ هذه النتيجة التي توصل إليها جعلته يقتنع أن ثمة العديد من قرائه يختلقون أحلامهم، من باب التمني، وفبركة رموز رؤاهم ودلالاتها، أو في أفضل الأحوال إدخال بعض التعديلات عليها، فيصل إليه الحلم وقد تجرّد من تفاصيل مزعجة كثيرة، ليستحيل إلى فيلم سينمائي قصير، فيه من الفانتازيا بقدر ما فيه من الواقعية، وفيه من الشطط والغلوّ بقدر ما فيه من المنطق. بالخبرة بات يميز الحلم المختلق عن ذاك الأصيل. وبالخبرة أيضًا بات يفسر معاني الأحلام دون الرجوع إلى كتب التفاسير والمراجع الكثيرة، اعتمادًا على تكرار ثيمات الحلم بين القراء، في ما يشبه ثقافة حلم جماعية.

ثم كان يتعجّب من الرجال الحالمين، فهم قلّة، لا لأنهم لا يحلمون وإنما لأنهم يخجلون من أحلامهم أو يتأبّون عن مشاركته إياها، كأنهم يخشون أن يبوحوا برغباتهم التي تتربّص بلاوعيهم. فمقابل كل عشرة أحلام نسائية، ثمة حلم رجّالي واحد يصله على استحياء، وكثير من هذه الأحلام ينسبها أصحابها إلى ذكور غيرهم، كأنهم يلتمسون المعاينة الحُلميّة بالنيابة عن الآخرين؛ كأن يبعث إليه أحدهم يقول إن صديقه أسرّ له أنه حلم أنه ينظر من ثقب باب، وكانت ثمة رائحة جميلة تتسلل إلى أنفه من فتحة الثقب الضيقة، ثم حين تراجع إلى الوراء إذ به يكتشف أنه كان ينظر من فرج امرأة، أو أن يقول له أحدهم إن صديقه حلم أن كلبًا هاجمه وكان ينهش عضوه بضراوة ومع ذلك لم يكن، أي الصديق، يبدو وكأنه متألم في الحلم، بل كان على الأرجح مبسوطًا ومستلذًا، أو أن شقيق أحدهم حلم أن أبناءه يضربونه بأحذية قديمة، أو أن

ابن عم أحدهم حلم أنه يقف أمام المرآة ويضع على وجهه مساحيق النساء . ولم يكن الحالم الرجل لينسب الحلم إلى نفسه ، حتى وإن اعتمد اسمًا مستعارًا ، إلا إذا لم يكن في تفاصيله ما يدعو إلى شعوره بالحرج أو إذا اعتقد أن الحلم نبيل ومعناه مبهج ، كأنْ يحلم أنّ جدران بيته القديمة ذات الطلاء الباهت قد تداعت لترتفع مكانها جدران من ذهب خالص .

إياد هو الذي قاده إلى الأحلام وقلوب العشاق التي أنهكها الحب . لم يكن يتخيّل أبدًا أنه سيصبح خبيرًا في هذه الأمور . بعد تخرجه من كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، في الجامعة الأردنية ، سعى له أستاذه الذي عمل معه في تحرير نشرة الكلية الأسبوعية للعمل في إحدى المؤسسات الصحفية في عمّان . خلال خمسة عشر عامًا ، تنقّل بين صحف ومجلات عدة ، بعضها كانت تطلع كالفطر ثم تختفي ، وتختفي معها أموال المساهمين ورواتب الموظفين المعلّقة ، إلى أن استقر أخيرًا في «الأسبوع الأردني» ، صحيفة أسبوعية شبه سياسية شبه جادة شبه جريئة شبه نافذة في البلد . هناك التقى إياد ، سكرتير التحرير الشاب ، الذي أوكل إليه ، إلى جانب تحرير الأخبار السياسية في الصفحة الأولى ، باب تفسير الأحلام ثم باب الرد على مشكلات القراء ، المتورطين في الحب المستحيل في الغالب ، لسد فراغ إلى حين تعيين محررة بديلة لتلك التي استقالت . في البداية ، قاوم الفكرة لكن إياد أقنعه . «سوف تصبح الكلّ في الكل . صدّقني!» فصدّقه عندما باتت شوالات رسائل القراء وأحلامهم تضيق بها حجرته . لم يتم تعيين محررة ، لكن تم تعيين سكرتيرة تساعده في فرز الرسائل وتصنيفها وتلخيص محتوياتها . إلى جانب بضع روايات وعدد من دواوين الشعر والكتب السياسية والتاريخية ، امتلأتْ مكتبته بالعديد من المراجع الأساسية في تفسير الأحلام ، مثل «مُنتخب الكلام في تفسير الأحلام» للإمام محمد بن سيرين ، و«تعطير الأنام في تعبير المنام» للشيخ

عبد الغني النابلسي ، و«تفسير الأحلام المُسمّى الإشارات في علم العبارات» للإمام خليل بن شاهين . وحين وقّع إياد عقد عمل في صحيفة «الطريق» اليومية في الإمارات ، أخذه معه . قال له إن الأحلام هناك لا تختلف كثيرًا ، والقلوب كذلك ، لكن الفلوس أكثر .

عرفها ، من بعيد ، على الفور . لم يكن بحاجة إلى نظرة ثانية ليتيقّن من أنها هي ، حتى وإن لم تدخل تفاصيل ملامحها مدى رؤيته بوضوح . شعرها أسود ما زال ، والأنف الدقيق الناعم برز في وسط وجهها ، كعلامتها الخاصة بها . شيء من سمنة ، من ذاك النوع الذي يترسّب في مناطق الجسم مع الأيام ، غلّفتْ قامتها ، لكنها احتفظتْ برشاقتها ، تمامًا كما احتفظتْ بخطّها وصوتها . حتى مشيتها لم تتغير ، فكانت تميل على جانبيها ، كأنها تتفادى الغوص في برك مائية متعرجة ، فتنثني أثناء سيرها في انحناءات متواترة إلى اليمين وإلى اليسار ، وتمدّ قدمَها اليمنى إلى اليسار واليسرى إلى اليمين في تناغم يعكس خلوّ بال إلا من الوعي التام بإيقاع مشيتها المحسوبة . بفستان كُحلي ضيق طرفا كمّيه وياقته محلاّة بالأبيض ، وقفتْ أمام مقهى «لا بوستا» تدقّق النظر في روّاده وتبحث عن طاولة خالية ، بعدما امتلأ المكان . جال بصرها قليلاً في المقهى ثم امتد إلى المقاهي المجاورة ، فدفن رأسه في فنجان القهوة الثاني ، وحين عاد بصرها إلى مقهاهما المتفق عليه ، وقد أعطته ظهرها ، سمح لنفسه بأن يراقبها متخففًا من حذره بعض الشيء . قادها النادل إلى طاولة غادرها زبائنها للتوّ . جلستْ في مواجهته ، لكن بزاوية جانبية ، مسددة بصرها إلى الجهة المعاكسة له ، في انتظار ، كما لعلها شعرت ، أن يهبط إليها من أعلى الطريق . نظرت إلى ساعتها . كانت عشر دقائق بعد التاسعة ، كما قرأها في ساعته . هكذا العرف ، عرفها هي ، أن تأتي في الموعد دائمًا أو بعده ، لا قبله أبدًا ، بدقائق لتتأكد من أنه سبقها إلى

لقائهما . نظرتْ في ساعتها ثانية ، كما نظر في ساعته ثانية . أتاها النادل بفنجان قهوة سادة (لا يعتقد أن قهوتها تغيّرت) . حين سحبتْ رشفة سريعة ، قرأ من الطريقة العصبية التي وضعتْ بها الفنجان على الصحن ، ثم من الولاعة التي قدحتْها عدة مرات قبل أن تشتعل سيجارتها ، أنها منزعجة . «لماذا تأخر؟» أكيد أنها تساءلتْ .

تزوجتْ بعد أقل من عام من زواجه بحسنا . أثناء ذلك ، التقيا مرات قليلة ، ومعظم لقاءاتهما كانت في كافتيريا الجامعة أو عند درج كلية الآداب . رسائلها في المحاضرات تناقصت كثيرًا ، وأحيانًا كانت الأيادي تنقل له رسالتها المطوية بعناية ، حتى إذا فضّها وجدها خالية إلا من بياض احتجاجيّ . ثم صار يذهب إلى موعدهما في الكافتيريا ، بناء على إصرارها ، فلا تأتي . في رسالتها الأخيرة التي بعثتها له من أعلى المدرّج في المحاضرة اليتيمة التي جمعتهما في السنة الثانية ، هو الذي تعمّد الافتراق عنها في جدول المحاضرات ، فردتْ له على طول صفحة الورقة التي مزقتها بقسوة من دفترها ، من أقصى نقطة في اليمين وحتى أدنى نقطة في اليسار ، كلمة واحدة : «سأتزوج .»

شربتْ قهوتها على مهل . أشعلتْ سيجارة ثانية ، سحبتْ دخانها ببطء ، ولم تعد تشتّتْ بصرها بين الطرقات الضيقة المرصوفة في الساحة الواصلة بين المقاهي . ذهب نظرها إلى البعيد كأنها كانت تستعيد ، في النظر والانتظار ، الذي لم يعد يبدو أنه يزعجها كثيرًا ، أشياء فاتتها . جزء من ملاحتها ذات الديمومة له علاقة بنمط حياة مرفهة أو على الأقل مرتاحة ماديًا . استطاع أن يقدّر ذلك من هيئتها الخارجية . لم يلتقها بعد الزواج ، لكنه علم من زملائهما المشتركين أنها تزوجتْ رجل أعمال فلسطينيًا يحمل الجنسية الفرنسية ويدير أعماله بين بيروت وباريس . يُفترض أن تكون قد أكملت دراستها الجامعية في بيروت ، ويُفترض أنها

كانت تزور عمّان مرتين أو ثلاثًا في العام، وكان يُفترض أنها سألت عنه، لكنه لا يظن أنها حاولت، تمامًا كما أنه لم يحاول أن يسأل عنها. قبل أعوام، وكان يقضي إجازة الصيف في عمّان، التقى أحد الأيادي التي كانت تنقل له رسالتها المطوية من أعلى المدرّجات. ذكّره بنفسه، فلم يذكُره وإن ادّعى العكس، ليسايره في استعادة تلك التجربة «الزاجلة» والتندر عليها. قال له زميل الأمس، بعدما نفض المزاح جانبًا، إنه لطالما اعتقد أن قصة حبّهما رائعة، فأجابه، متعجبًا بينه وبين نفسه من كلامه لاحقًا، أنه هو أيضًا كان واثقًا من أن قصة حبهما رائعة. لم يعتقد أنه كان يساير زميله في هذه النقطة تحديدًا.

كانت قريبة جدًا منه. استعادت ثقتها التي خانتها بعض الشيء أوّل ما وصلتْ المقهى. أرجعتْ ظهرها إلى الوراء، رفعت ذقنها إلى أعلى، أمالت جسمها إلى الجنب، وضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى فانحسر فستانها حتى ما فوق ركبتها. لو أنها تحرك رأسها إلى اليسار قليلاً لأصبح بصرها في مواجهته مباشرةً. خشي أن تقع عيناها في عينيه. حاول أن يشعل سيجارة، فوقعت من يده على الطاولة، ثم تدحرجتْ على الأرض.

كان في غرفته. جسده تكوّر على السرير. سمع طرقات مدوية على الباب. الباب مغلق. اطمأن قليلاً. طرقاتها على الباب تواصلتْ. اضطرب قلبه. غطى وجهه بيديه. ازدادت الطرقات إصرارًا. خشي أن تكسر الباب. قبض على أنفاسه.

سأله النادل ما إذا كان يريد شيئًا آخر. لم يرد. لم يفتح فمه. لم يحرك رأسه بنعم، كما لم يحرك رأسه بلا.

تتابعت طرقاتها الحثيثة. علتْ وعلتْ. اعتقد أنه سمع الكون ينفجر.

(١٥)

رمزي عيّاش

انسابتْ المقدّمة الموسيقيّة بخفوت، تمايلتْ عليها المغنيّة السّمراء قبل أن ينطلق صوتها الخميل الذي شعّ برنين داخلي في البار المزدحم بالبشر المنوّعين. فـزّتْ امـرأة من مـقـعـدها وسط القـاعـة، في فـراغ دائخ بين الطاولات التي لمعتْ فوقها الكؤوس، أخذ جسمها يلتفّ مع التفاف مسار النغم وينثني بحسب انثناءات الإيقاع المتموّج للأغنيـة. كـانت تعـرف مواقع الانحناء في الأغنية، التي تحرّكتْ شـفـتـاها مع كلماتها، فـانحنى جسمها تبعًا لذلك بانسجام بيّن لاقى استحسان جمهور البار، الذين تابعوا راقصتهم التي أنعشتْ حركاتها اللينة المثيرة المشهد شبه الخامل.

دعاه إياد، مع فراس وعمر وكمال، إلى البار الكائن في أحد فنادق أبوظبي. مع كأس البيرة الرابعة بدأت الأغنية، وربما مع الكأس الرابعة اعتقد أن الراقصة استهدفته بانحناءاتها. كانت بشعر برونزي قصير وفستان وردي ضيّق عانق قوامها الطويل النحيل. لم تخف سعادتها بالعيون الرجالية، التي وإن استسلمت لخدر الجو العام إلا أن وعيها بالأنثى المثيرة في كيانها الجميل وثب في البصر المتراخي. مدّتْ له، كما مدّتْ للجمع المتشوّف التوّاق، ذراعيها اللتين شكّلتهما في الهواء في حركات توافقت وانعطافات جسدها. وفي اللحظة التي اشتهى أن يمد فيها

ذراعيه نحوها مستجيبًا لدعوة ذراعيها ، كأنّها استشعرتْ ذلك بفطرة الأنثى الحذرة ، تراجعتْ عنه مبتعدة بذراعيها وعينيها لتوزع انحناءاتها وتلوّيها على رجالات المكان الآخرين . تحرّكتْ في المساحة الضيّقة بحريّة ، فاردةً جناحيها ، محلّقةً داخل حدود جسدها قبل أن تستقر على غصن خصرها .

سأل إياد عن الأغنية ، فقال له إنها لمغنية اسمها مادونا . سأله عن معاني الكلمات ، فتتبع إياد كلمات الأغنية ، بعدما تفقد «مسجًا» طنّ به موبايله ، مرددًا ، وراء المغنيّة : «ليلة أمس حلمتُ بسان بيدرو ، تمامًا كما لو أنني لم أرحل أبدًا ، أعرف الأغنية ، فتاة صغيرة بعينيْن كالصحراء ، كل شيء يبدو كما لو أنه حدث البارحة ، ليس بعيدًا .»

أصبحتْ سمر تعود من كلّيتها ، تلج غرفتها دون أن تتحدث مع أحد وتغلق على نفسها بالساعات ، بينما يمتد سلك الهاتف الطويل من الصالون إلى غرفتها من تحت الباب . بعد وقت ، ينطلق من الداخل صوت عبد الحليم حافظ من الغرفة بـ«جبّار» أو «بلاش عتاب» ، أو «أنت قلبي» . خفّتْ شهيّتها للرقص ، ثم تراجعتْ تمامًا . ولم تعد تستمع إلى الأغاني الغربية أو تتلّوى في غرفتها في المساحة الضيقة بين سريرها والمكتب والخزانة على إيقاعها الصاخب ، مستمتعةً بانعطافات جسدها المطواع التي تتشكل في المرآة . على الغداء ، تظلّ صامتة معظم الوقت ، وإذا سألها عن آخر أخبار كليتها وزميلاتها وزملائها ، ترفع عينها نحوه ساهمة ، ثم يضطرّ أن يطرح السؤال عليها ثانية فتنتفض من مفاجأة السؤال كأنها تسمع به أول مرة ، وفي النهاية تهزّ رأسها دلالة على لا شيء بعينه ، ولا تجيب .

ما كان يخشاه تحقّق . وتحقّق في أكثر صوره ترويعًا بالنسبة له . «بابا أُقدّم لك باسل .» كان يعمل مهندسًا . تعرّف إليها حين ذهب ذات يوم إلى كلية العلوم في جامعة الكويت ، حيث تدرس ، ليقلّ شقيقته ، زميلتها

في الكلية . كان يكبرها بست سنوات . أدرك على الفور أن باسل وراء «أهواك واتمنى لو أنساك» ، وتساؤل عبد الحليم الاستنكاري والملح «بتلوموني ليه؟» ، وسرحان النهار وكُمون الليل ، وزوغان العقل وفقد الشهية ، وتراجع ثرثرتها المحببة وانحسار صخبها وزخم وجودها المعهودين . كان ببنطلون جينز كالح وحذاء رياضي مهترئ رباط إحدى الفردتين مفكوك حين زارهم أول مرة . أوصلها إلى البيت من الكلية بسيارته فدعته إلى فنجان قهوة ، وسط ترحيب نعمة المبالغ به ، وقد سارعت إلى إخراج طقم جديد من بشاكير «الكانون» الأميركي في الحمام ، وطقم كؤوس شراب غير مستعمل من الكريستال التشيكي تحتفظ به مع أواني الزينة في البوفيه ، وطقم شاي من الخزف الصيني عليه نقش أغصان شجر وعصافير ، كما استبدلتْ مفرش مائدة الطعام اليومي المبطن بالنايلون بآخر من القماش المفرّغ والمطرز بحواشي مذهبة خاص بالمناسبات ، وحلفتْ عليه كي يشاركهم الغداء . طوال الوقت ، لم ينزح بصر سمر عن الشاب الذي جلس في الصالون مادًا ساقيه إلى الأمام بصلف ، وقد تدلّى رباط حذائه المفكوك في الهواء دون حرج ، متعاطيًا مع البيت الذي يزوره أول مرة والناس الذين يلتقيهم أول مرة ببحبوحة زائدة عن الحدّ ، وهو ما أزعجه ، أزعجه كثيرًا . ثم ما أزعجه أكثر وقضّ ليله ونهاره الافتتان ، حدّ السحر ، الذي لمع في عيني سمر . لقد رأى هذا الافتتان جيدًا . لم يخطئ في قراءته أو فهمه منذ اللحظة الأولى ، ولمعانه أخافه . أدرك أن باسل لن يشبه ماهر أبدًا ، وأن مهمته معه سوف تكون أصعب بما لا يقارن .

لم يحبّ باسل . وباسل بادله ، على الأرجح ، الشعور ذاته مع شعور موازٍ من الشماتة ، كأنه عرف أنه يشكل خطرًا عليه ، بل كأنه كان يستلذّ بفكرة أنه سوف ينتزعها منه ، بقسوة ، وسوف يراقبه يتألّم ويتوجّع ، عاجزًا عن الصدّ أو المقاومة والاحتفاظ بـ«سمرِه» لوقت أطول في الحياة ، وقطعًا

لم يكن ليشفق عليه أو يترك له شيئًا منها أو فتات مشاعرها . لكنّ الأكثر إيلامًا ووجعًا ، بالنسبة له ، أن باسل كان يستعذب الحقيقة أن سمر تُحبّه أكثر ، بمقدار عظيم ، مما يُحبّها ، وكان يشتغل على هذه الفكرة بساديّة فكّر معها أنه يستطيع أن يقتله ولن يحاسبه أحد على ذلك . فكان حتى أثناء شهور الخِطبة يغيب عنها بالأيام والأسابيع ، وإذا ما اتصلتْ به مستفسرةً تحدّث معها بنزق من يودّ أن ينهي المكالمة على عجل ، وأحيانًا لا يردّ ، وقد تسمعه يقول لشقيقته أن تقول لها إنه غير موجود ، مُتقصّدًا أن يجعلها تسمع ذلك . في غياب باسل تغيب الحياة عن سمر ، حتى إذا عاد إليها ما قبل الانهيار العاطفي بلحظات ، مُحبًا بأي قدْر ، تُخلَق من جديد وتلتصق به خشية أن تتخلّى عنها الحياة مرة أخرى ، حياتها التي أصبحتْ وجهًا له . لم يكن يبرّر لها غيابه . ولم تكن تسأله . المهمّ بالنّسبة لها أنه عاد . لأجله أطالتْ شعرها ثانية .

وافق على الخطبة مرغمًا ، بعدما هدّدته سمر بالامتناع عن الطعام والشراب وبأن تجعله يتفرّج عليها وهي تهلك ببطء تحت بصره دون أن يستطيع أن يمنع ذلك . خطبا بعد تخرجها من جامعة الكويت مباشرةً ، وكان يُفترض أن يتزوّجا بعد عام حين قضى اجتياح العراق للكويت على آمالهما ، وأحيا آماله ، مكتشفًا أن ثمة وجهًا طيبًا للحرب في النهاية . واكتسب وجه الحرب حلاوةً ، جعلته يطمئنّ إلى أنه ربما استعاد سمر ، التي فقدها مرّات عديدة ، مع سفر باسل إلى عمّان قبل بدء القصف الجوي على العراق والكويت ، وعودتها إلى شرائط الأغاني الغربية والرقص على إيقاعها اللاّهث في حجرتها . واصلتْ الرقص حتى بعد بدء القصف الجوّي . كانت نعمة تدقّ عليها الباب كي تخفض الصوت ، متعجبةً من جرأتها : «كيف ترقصين والدنيا حرب في حرب؟ ماذا يقول الجيران عنا؟ عديمي إحساس؟» ثم كانت تطلب منها أن تساعدها في تغليف بعض

التحف والأواني الكريستالية الأغلى من غيرها وتخزينها في كراتين أكثر متانة، مبطّنة بالبوليستر، لحمايتها مما قد يترتّب عليه القصف من آثار.

بعد انتهاء الحرب وعودة البلاد إلى ما كانت عليه، تقريبًا، جرجر نعمة وسمر وفراس، ومخلّفات ثلاثة وثلاثين عامًا قضاها في الكويت، من بعض قطع الأثاث وأدوات كهربائية جديدة أصرّتْ نعمة على تبديد جزء من مكافأة نهاية خدمته في شرائها، وكراتين كثيرة فائضة بالبياضات وأغطية الأسرة والتحف والأواني الخزفية والكريستالية، ونزحوا إلى الأردن، إلى بيتهم في الزرقاء. جُنّتْ نعمة عندما اكتشفتْ أن ثلاث كراتين تضمّ أغلى الشراشف والمفارش وستة أطقم صيني ودزّينتيْ كؤوس من الكريستال البوهيمي مفقودة. اتّهمتْ شركة الشحن البرّي بسرقتها، وحرّضته كي يشكوها. سألها عن ألبوم صوره الشخصي الذي يضمّ صوره مع طلبة الكلية الصناعيّة وأساتذتها، وصور نزهاته في الستينات مع الصّحب على البحر أو في مقاهي الكويت الشعبية، حيث الوجوه المشرقة في فضاءات الأبيض والأسود، فجُنّتْ أكثر وهي تطابق قائمة الأغراض المدوّنة لديها بتلك الموجودة في الكراتين: «وهل هذا وقته؟»

في الليلة الثانية له في الزرقاء، من وسط الكراتين التي كانت نصف مفتوحة ونصف مغلقة، وحيرة نعمة في توزيع الأثاث غير المتناسق في البيت، ووجوم سمر على الصّوفا أمام التلفزيون المطفأ، وغياب فراس عن البيت طوال النهار وأكثر الليل، تصفّح ألبوم العائلة. في معظم الصور، كانت نعمة بباروكة، على هيئة شنيون، مثبّتة أعلى الرأس، وسالفيْن مدليّيْن على جانبي وجنتيها وكحل عريض بذيل مشقوق. رافق الذيل المشقوق عينيها لسنوات وإن قصرّتْ طوله في السنوات الأخيرة. أطلّتْ سمر، في الأبيض والأسود، بضحكة تشقّ وجهها وذيل حصان تعلوه شريطة بيضاء عريضة وغرّة غزيرة، تركض، وتنطّ على الكنبة أو على

السرير، تمتطي الطربيزة، تلعب بمكعبات التركيب على البلاط وقد تناثرت ألعاب كثيرة حولها، تأكل لوح شوكولاته ساح في يدها وصنع تشكيلاً بهيًا حول فمها، أو تشدّ سيارة من يد فراس أو توقعه عن دراجته، ليتجمّد في صور كثيرة له وهو يبكي بحرقة، حتى لتختلط دموعه مع ريالته في فمه الذي لم تكتمل أسنانه بعد.

تأخّرتْ سمر عندما أتتْ. حملتْ نعمة وأجهضتْ أربع مرات في السنوات الثلاث الأولى من زواجهما. زارته المرأة، غير الجميلة تمامًا، ذات الوجه المألوف في الحُلُم تحمل بين يديها الطفلة ذاتها، وافرة الأنوثة. فوجئ بها، إذ كانت قد مضتْ سنوات على آخر مرة طرقتْ فيها حُلُمه. لم تكن الطفلة المغمضة العينين عن قرب، التي غمزتْ له امرأة من مسافة أبعد، قد كبرتْ عمّا كانت عليه في الحُلُم الأخير. كانت المرأة إيّاها لا تزال تحملها وتسير بها متثاقلة، كأنها تنوء بإحساس مرهق. سألها عن اسمها، فقالت له إنها للآن، بعد كل هذا العمر، لم تجد لها اسمًا.

حين أبصر الصغيرة، المغمضة العينين، نائمة على السرير إلى جانب أمّها في المستشفى، بكى. كانت منكمشة اللحم والملامح، لكن هيئتها الواضحة جدًا والحادة جدًا، التي فارت في الأطراف الدقيقة وتجلّتْ في تقاسيم الوجه التي طوت احتمالات تشكل وتلون شتّى غمرته. كانت سادرة في الوداعة، موغلة في الهناءة، ذاهبة في الاطمئنان، لكنها كانت كأنها تنذره أنها قد تستيقظ في أي لحظة، فتكبر، وتنفض عنها وداعتها. توأمها كان يتلّمسُ فمه طريقه إلى ثدي أمه. مسحتْ نعمة بيدها على رأسه دون أن تحاول أن تخفي شعورها بالإثارة. سألته ماذا سوف يُسمّي بكره. ألقى نظرة على الصغيرة النائمة فقال: «سمرا»

- أتحدّثُ عن الصبيّ!

نظر إليه. الممرضة كذبت، كما تكذب كل الممرضات في هذه

الأمور، حين قالت له إنه يشبهه. كان أبيض البشرة على نحو مفرط. كان يشبه نعمة وأهلها. فقال لها:

– هو لك. سمّه ما تريدين.

ولدت نعمة توأميهما بعد النكسة بيومين. فؤاد وزوجته بُشرى نقلا نعمة إلى المستشفى عندما باغتتها آلام المخاض. صرختْ عليه وهو مُمدّد في ما يقرب الموت على الكنبة في الصالون. قالت له إن «ماء الرأس» قد انفجر وأنّها ستلد في أية لحظة. هزّته غاضبةً. هزته صارخة. هزّته راجيةً. ثم هزّته باكيةً. «حرام عليك!» استعطفته. فرفع رأسه وأرسل لها من عينين افترشهما احمرار نظرة من تاه عنها وعن عالمه. مدّ يده يريد أن يقبض على شيء ما، أي شيء يختبر من خلاله صلاحية حواسه أو بعضها، بيأس، لكن الشيء، غير الموجود، أفلت منه. فتح فمه بصعوبة، يجرجر الكلام، لكن الكلام تعثر في حلقه المر. ألقى رأسه على الكنبة ثم رمى ذراعه على الطاولة فاصطدمت بزجاجة ويسكي فارغة، من بين زجاجات عدة، وقعتْ على الأرض وتدحرجتْ، ليرنّ زجاجها في صدى العتمة دون أن تتهشّم، ودون أن تلكز جسده الهامد.

في المساء، انتشلته ضربات فؤاد على الباب من موته. كانت جثته مشدودة إلى الأرض. نهض. مقاومًا فكرة تحلله. مشى، يحاول ألا يتداعى، محاذرًا ألا يقف على حافة جرف الفراغ. كانت صخور كثيرة تطقطق تحت قدميه، تسقط من الجرف، ثم كأنها لا تبلغ القعر، ذلك أن صوت استقرارها النهائي على الأرض لا يبلغه، كأنها تظل تقع، وتظل تقع إلى ما لا نهاية.

– مبروك عليك الولد والبنت!

تعرّف إلى فؤاد من وراء الغمامة التي كستْ عينيه. انشقّ وجهه الذي تجعد كثيرًا، من أثر موته المتكدس على الكنبة، عمّا يشبه ابتسامة.

أطلق ضحكة تصاعدت تدريجيًا، ملأت فراغ الكلام وصمت المسافة الشاسعة بينه وبين فؤاد، ثم قال :

- قُلْ لي إن ما حدث لم يحدث!

لم يقل فؤاد شيئًا .

- قُلْ لي إن الحرب لم تقم .

أطرق فؤاد واجمًا .

- حسنًا إذن . قُل لي إن الحرب قامت وإننا دحرنا إسرائيل .

علا الصمت بينهما كثيرًا . انسلّتْ دمعة من عينه لتتنزلق بعد تردد على وجنته . تشجعتْ دمعات أخريات، فلحقتْ بها، ثم استحالتْ سيلاً جرف وجهه . من وراء ستارة الدموع السميكة، انطلق صوته يغني : «ما أقصر العمرَ حتى نضيعهُ في النّضالِ»، ثم رفع صوته : «في النضالِ»، رفعه أكثر ومطّ معه رأسه إلى أعلى : «في النضالـــــي»، ليرفع أكثر فأكثر، ويمدّ أكثر : «في النضالـــــــــي .» أخيرًا، هوى من فوق الجرف .

حين ظنّ أن للحرب وجهًا طيبًا، خاب ظنّه بظهور باسل . جاءهم بعد شهر من استقرارهم في الزرقاء . كان ببنطلون جينز أكثر كلاحةً، وبحذاء رياضي لم يزل ربّاطه مفكوكًا . لم تسأله سمر عن سبب تأخّره في الاتّصال بها . استعانت نعمة بطقم الشاي الصيني الذي شحنته من الكويت للقيام بواجب الضيافة . أحد الأكواب تكسّر في الشحن، ما جعلها تغتمّ لوقت ليس قصيرًا . كان باسل قد التحق بشركة عقارات كُبرى في عمّان . حدّد موعدًا للزواج بعد شهر . أراد جدًا أن يعترض، لكن سمر أخرسته بصخب روحها في البيت طيلة شهر ما قبل زفافها . كان يتحدّث إليها، وكانت تتخذ وضعيّة الإنصات، لكنها لم تكن تسمع، وكان يستطيع أن يستشعر روحها ترقص في داخلها، حتمًا ليس على موسيقى كلماته .

قبل يومين من العرس ، رأى سيارة سوداء بنوافذ مظلمة ، تقف عند زاوية الطريق المؤدّي إلى بيتهم ، بمحرّك يخور غاضبًا ، مترقبًا ، متوعّدًا . إذ يُفتح باب بيتهم وتخرج سمر ، بشعرها القصير وجسمها الذي يتقافز ، بطبيعته ، في سيرها ، يعلو خوار السيارة وتطلق مصابيحها الأمامية شررًا مباغتًا يقلق استقرار الليل ، ثم تتقدّم نحوها بسرعة مخلّفة سحابةً من الغبار وراءها تختلط بإضاءة مصابيحها الخلفية . فتح عينيه ، فرأى العتمة قد فردتْ بطانيتها في البيت النائم . جلس على السرير . بعد وقت لاحت له الأشياء بوضوح في الظلام . نظر إلى نعمة . آثار الاستنزاف التام تخايلتْ على بشرتها الذاوية . لأكثر من أسبوع وهي تقوم بالترتيبات اللازمة لليلة الحنّاء ، فغسلتْ المفارش واللُّحف والستائر ، ونجدتْ الكنب القديم . أصرّت على شحنه من الكويت رغم تأكله ، إذ يظل ، في النهاية ، من الكويت . كما أعادت طلاء البيت ونظفتْ الشبابيك وأعادت ترتيب الأثاث وتنسيق بوفيه الأواني والتحف في الصالون . نهض من سريره إلى المطبخ . فتح الثلاجة مرات عدة ثم أغلقها . توقف عند غرفة سمر . كان بابها مواربًا . مر عبره سلك الهاتف الطويل . تأمّلها نائمة في سريرها . استلقى الهاتف قربها . تناثر شعرها ، الذي أطالته ، على وجهها فأخفى جلّ معالمه .

في ليلة ما قبل العرس ، تسرّبتْ إلى سريره ، لمرّة أخيرة . أخلتْ لها نعمة مكانها هذه المرة عن رضا وحنان . أتته حافية ، ببيجامتها ذات الأزرار المقطعة وشعرها المنفوش وعينين ذابتا في دموعهما . تكوّرتْ إلى جانبه وطلبتْ منه أن يغنّي لها «جفرا» . من وسط ضحكاتها الطفلة المنتشية كبرتْ ، ولم يعرف أنها كبرتْ إلاّ بعد حين . الطفلة التي كانت تستيقظ في الصباح ، تمتطي كتفيه إلى الحمام ، أصبحت تنتفض ما إن يضع يده على كتفها ليوقظها ، وبعدما كانت تركض إلى بوابة مدرستها ،

ويركض وراءها ذيلا الشعر بالشبر العريض أعلى رأسها ، باتت تمشي ببطء ، تسير بذراعين تتقدمانها دائمًا ، خجلة من صدرها الذي تمطى كثيرًا ، مثيرًا . توقفتْ فجأة عن الكلام معه في أشياء ممتعة وجميلة لا معنى لها في طريق العودة من المدرسة . لم تعد تفتن له عن صويحباتها . لم تعد تتحدّث عن الأشياء التي تسعدها ، كما لم تعد تشاركه الأشياء الكثيرة التي تغيظها في الحياة ، كفستان ذي كشاكش كثيرة اشترته صديقتها . لم تعد تطبع له على وجنته عشرات القبل المتتابعة .

باتت تقضي وقتًا طويلاً في الحمام . وإذا دخل الحمام وهي فيه ، وقد نسيتْ أن تغلقه ، تملأ الدنيا فزعًا وصياحًا من عريها ، أو جزء منه ، الذي يُطبع في عينيه . ذات مرة ، مثُل كل عريها في بصره ، فهالته غابة الشعر التي تمطّتْ شجيراتها هائجة متشابكة في سكون الرغبة . جفل . لم تصرخ . ليلتها ، لم ينم . ذهب إلى المطبخ ، فلمح الحمام مضاءً . تبدى جزء من خيال جسمها من وراء نافذة باب الحمام المؤطرة بزجاج شبه شفاف . تلوّى ما بان من خيالها أمام مرآة المغسلة . اقترب من الباب ، فتسرّب إلى سمعه صوت حفيف جسدها ممتزجًا بتأوّهات مستثارة . خيال إحدى ذراعيها كان يداعب خيال ثدييها ، بينما انزلق خيال ذراعها الأخرى فوق الجزء السفلي من جسدها . تسارع الحفيف وعلتْ تأوهاتها ، قبل أن يرتجّ خيالها بعنف من وراء الزجاج شبه الشفاف .

انطلق صوته ، يغالب رغبة ملحّة في البكاء :

- «جفرا ويا هاالربع بتقش وتلمّ ، ومفرعة بالقميص ولا استحتْ منّي ، ولو بيجوز البدل ، لابدلك بامّي ، وإخواتي الأربعة ، واللي تطولو إيديّه .»

- «كمان .»

همستْ في أذنه ، فأنّتْ نغمته :

- «جفرا ويا هالرّبع بتحُصد في زرع الغاب ، والعين عين كحيلة والسالف جنح غراب ، طلبت منها الوصال ، قالتلي ما بهاب ، وصالك يا المحبوب ، ع راسي وعينيّ .»

- «كمان .»

دفنتْ رأسها في حضنه . أينع صوته قليلاً :

- «جفرا ويا هالربع جفرا وجفراوية ، ما بوخدك يا النذل لو قطعوا إيديّ ، وان كان الجيزة غصب ، للأهل عليّ ، لارمي حالي في البحر ، للسّمك في الميّ .»

غفتْ .

بعد أسبوع من زفافها ، زارتهم مع باسل . تفشّتْ أعلى وجنتها بقعة حمراء غطّتها بطبقة كثيفة من كريم الوجه . أمضتْ نعمة يومين كاملين تجهّز لمأدبة العروسين . سألها عن سبب الاحمرار ، فسعلتْ دون أن تجيب . كان باسل يبلع حبات الكوسا التي ملأت نعمة بها صحنه . وضع يده على وجنتها فانتفضتْ فوق كرسيّها ، متراجعةً ، ثم لَمّتْ جسدها الذي فرش ألمه في غفلةٍ منها كأنها خشيتْ أن يُفتضح سرُّها . نظر إلى باسل ، كان يقضم حبة باذنجان كبيرة . سألها ثانية عن سبب الاحمرار ، فرمقتْ باسل بطرف عينها مطمئنة إلى انشغاله عنها ، ثم قالت له وهي تسكب في صحنها الشوربة ، دون أن تنظر في عينيه ، إن وجهها ارتطم بباب الخزانة المفتوح بالخطأ .

بعد شهر ، جاءتهم بعد منتصف الليل . فزعتْ نعمة حين رأتها وحدها . جزع لوجهها الذي انسحب منه اللون . سألها عما حدث فقالت إنها تريد أن تنام في غرفتها ، وعلى سريرها . ارتدت إحدى بيجاماتها القديمة . «ما رأيك بعشاء خفيف؟» سألها ، مغالبًا شعوره بغبطة خفية لعودتها إليه ، إلى غرفتها ، وعلى سريرها ، وبالبيجامة ذات الأزرار التي

تقطعت ، فاستُبدلتْ مكانها أزرار أخرى غير متناسقة . لم تتكلم . جلس إلى جانبها بينما استلقتْ على بطنها . مسح جبينها العريضَ الذي نزلتْ فوقه غرة شعرها الكثيفة بكفه الطرية الدافئة وسألها :

- طيب . . هل اشتقتِ لجفرا؟

أدارت رأسها إلى الجهةَ الأخرى ، ورفعتْ كتفيها إلى أعلى ، فزايلته غبطته .

جلستْ على الصوفا في غرفة المعيشة طوال اليوم ، تصفن في شاشة التلفزيون المطفأة ثم تنام . إذا حاول أن يتحدث إليها ، تضع يدها على رأسها ، تشكو صداعًا مفاجئًا ، تتوجّه إلى غرفتها فتغلق على نفسها بالساعات . ثم قد يحاول أن ينسى أنها في البيت ، ليفاجأ بالثلاجة تضيء المطبخ ، حين يُفتح بابها في ساعة متأخّرة من الليل ، ويمسح نورها جزءًا من الممر المؤدي إلى غرفة المعيشة المفتوحة على غرفة نومه . بعد دقائق ، يلمح انعكاسها على زجاج البوفيه في غرفة المعيشة تأكل سندويشة . انقضى أسبوعان ، كانت حواسها خلالهما تنهض في كل مرة يتصاعد فيها رنين الهاتف ، فينشط كيانها الذاوي ، وشيء من اللون يُضخّ فيه ، ثم حين تكتشف أن المتحدث على الطرف الآخر ليس من تأمل ، تدخل حواسها جراب الغياب عما حولها . ثم ظهر باسل ، ببنطلون الجينز والحذاء الرياضي . كان يراجع حسابات محلّ كهرباء السيارات في الأوتوستراد ، حين اتصلتْ به نعمة تزف له مجيء باسل ليصالح سمر . صرخ في السماعة ، فانتفض صبي المحل ، وقال لها إنه لن يوافق على أن ترجع سمر مهما حدث . لكن سمر رجعتْ . نام معها باسل في غرفتها في بيته . قطّع أزرار بيجامتها ، كما أخبرته نعمة لاحقًا دون أن تداري فرحتها ، «فكأن البنت ولدت من جديد» ، ثم أضافت بخبث : «فقط لو أنك رأيت وجهها!»

كانا قد اقتسما التوأمين ؛ فراس لها وسمر له ، ليس لأنهما اتفقا على القسمة ، ولكن لأنها حدثتْ هكذا . على أن هذا لم يعنِ أنها لم تحبّ سمر ، كما لا يعني أنه لم يحبّ فراس . كان يريد لفراس أن يكبر بسرعة ، ليشب عن حضن نعمة التي كانت تتباهى ببياض بشرته الذي يماثل بشرتها ، وأنفه الناعم المنسوخ عن أنفها ، ولا تتورّع عن طبع قبلات كثيرة على فمه البليل دائمًا ، متسامحة مع بلله لفراشه حتى حين استطال كثيرًا وداخل صوته شيء من خشونة . وكانت هي تريد لسمر أن تظل طفلة ، تربط شعرها في ذيلين تزينهما بشبر ملوّن ، وتشتري لها فستانًا بكلوشة عريضة وجوارب بكشاكش من الدانتيل الأبيض . لم تكن تغضب حين توسخ سمر فستانها الجديد بعصير الفراولة أو تملأ حذاءها بالرمل عند اللعب مع صغار الحي في ورش البناء ، لكنها كانت تغضب حين تفلت من تحت عينها فتغافلها وتكبر ، فتخرج أعضاؤها عن سيطرتها . يوم تزوجتْ سمر ، فرحتْ نعمة أكثر من فرحتها بها يوم ولدتها ؛ فالمرأة الأخرى ، حتى عندما كانتها طفلة ، تركتْ لها سريرها الزوجي دون أدنى احتمال بأن تعود له ، لا لأن نعمة تحب سريرها الزوجي لكن لأن المسألة مسألة كرامة أو عرف زوجي ، ثم إن مكانها في السرير إلى جوار زوجها ، وإن لم يعد يحرك فيها شيئًا ، هو مساحة مخصّصة لها ، ضمن مساحات أخرى في البيت والعلاقة ، فكانت تريد مساحتها في السرير لأنها تريد ما يخصّها وما هو لها .

انطلقتْ السيارة مسرعة . زمجر محرّكها وسط خرس الأشياء المريب . أدارت البيوت والشوارع الفرعيّة وأعمدة الإنارة الواهنة ظهرها لها . حتى النّجمات في السماء كمّمتْ أعينها . شاهدتْ سمر السيارة ، ذات القلب المظلم ، تقترب نحوها بعينين ملأهما الرعب . قدماها التصقتا حيث تقف . جاهدتْ كي تزيحهما من مكانهما ، فالتصقتا بثبات أكبر . ثم

طلعت السيارة الغاضبة فوقها . فغشاه ضوء مباغت . فتح عينيه ، فميز ضوء الثلاجة الذي غمر الممر المفتوح على غرفة المعيشة . نهض إلى المطبخ فوجد بهاء ، ابن سمر ذا الخمسة أعوام ، يقف أمام الثلاجة المفتوحة التي بدأ محركها يصدر صوتًا عاليًا . سأله ما إذا كان يريد أن يأكل شيئًا ، فركض الصغير إلى غرفة أمه ، تاركًا باب الثلاجة مشرعًا .

تجيئهم سمر ، مرة تحمل ولدًا ، ومرة تجرجر ولدًا وتحمل آخر ، ومرة تجرجر ولدين يتبادلان الصراخ والنكد ويتسابقان في الانزلاق على بلاط البيت الذي تغسله نعمة يوميًا بالكلور والديتول . في المرة الأخيرة جرجرتهما مع ابنتها الرضيع التي ولدتها قبل ثلاثة شهور . كانت تلقمها ثديها وتبكي ، وسط تقريع نعمة لها بأنّ بكاء الأم أثناء الرضاعة يورث الرضيع المغص والمرارة . أمضت في «الحردة» الأخيرة شهرًا كاملاً ، لم يتصل خلالها باسل أو يسأل عنها أو عن الأولاد . آلمه أنها كانت تنهض في الليل ، تضرب أرقام هاتف بيتها ، وحين تسمع صوت باسل على الطرف الآخر ، نعسًا ، غير متحمس ، غير مترقّب ، غير متوقّع ، وغير آمل بكل تأكيد ، تغلق السماعة ، ثم تبكي .

آلمه منظر جسدها الذي ترهّل كثيرًا بعد ست سنوات من زواجها ، حيث بدا مدعاة للرثاء . آلمه أكثر أنه خُيِّل إليه أنه فقد الطفلة التي كانت تحجل برشاقة ، إذ باتت تمشي كامرأة مسنّة بساقين منفرجتين ، وروّعه ثدياها بعدما تضخما لكن دون صلابة أو تماسك ، فتهدلا على جانبي صدرها . وحين كانت تخرج أحدهما لترضع صغيرتها تحدق فيه حلمة ثديها الداكنة المنفلشة ، فيعرف أنه فقد النتوءين الغابرين إذ يستلقيان إلى جواره في زمن حكاياتهما وأغنياتهما على السرير ، صلبين متماسكين يتطلّعان للانطلاق من أسر البدن الذي يكبر دونما حذر ، يتململان خلف قميص البيجامة القطنية برسوم الدببة الباسمة . قطعًا لم تعد بيجاماتها

القديمة تدخل فيها . وفي كل مرة ، يأتي باسل ليصالحها ، ينام معها في غرفتها ، لا يقول آسف ، لا يتحدثان ، لا يتعاتبان ، تجمع سمر أشياءها القليلة على عجل ، تخضرّ الحياة في جسمها الذي ارتوى ، وتغادر مع عيالها .

- كيف ستحردين إذن؟

سألها باستياء بيّن يوم زارته تقول له إن باسل وقّع عقد عمل مع شركة عقارات كبرى في دبي وأنهما سينتقلان للإقامة هناك . نعمة أوصتها بأن تبعث لها أطقم بشاكير أميركي ، ومناشف وشراشف ، فبضاعة الإمارات مثل بضاعة الكويت . أصبحت تزورهم في الصيف . لم تكن تأتي لقضاء الإجازة بقدر ما كانت تأتي لتحرد ، لأنها رغم الهدايا الكثيرة التي تحملها معها لهم لا تبدو سعيدة ، وتظل في غرفتها معظم أيام الإجازة . زاد عدد صغارها ، فأصبحت تجر معها ثلاثة أولاد وبنتين . لم يتسن لنعمة أن ترى آخر نتاج لها . ماتت قبل عامين . لم يتسن لنعمة أيضًا أن تستخدم عددًا كبيرًا من البشاكير والشراشف التي جلبتها سمر لها من الإمارات ، وظلت بشاكير وشراشف أخرى ، مُخزّنة لديها من بقايا الكويت ، لم تُستخدم .

رضخ فراس لطلبه ، فاستصدر له تأشيرة زيارة إلى الإمارات . كانت كوابيسه قد قادته في الآونة الأخيرة إلى منعطفات جد مخيفة . في كل ليلة ، ثدياها ينهرسان وينمعسان تحت عجلات السيارة بحقد أكبر من الليلة السابقة ، وعندما يتّصل بها ، بعد كل حلم أو دون حلم ، تبكي أثناء الكلام العابر الذي لا معنى له ، أو قد تستعيد معه حكايات سريرهما البعيدة . في تلك الليلة ، طلبت منه على الهاتف ، بصوت موغل في الحنين ، أنْ يغني لها «جفرا» ، فأدرك أنه لا يستطيع أن يتأخر عنها أكثر . قد يستلزم الأمر أن يعترض طريق السيارة السوداء ، ذات القلب المظلم ،

بجسده . كان مستعدًا لذلك تمامًا .

أرخى رأسه على كتفه ، ساهمًا . سأله فراس عن لقائه مع سمر فلم يجب . كان فراس قد أمّنه في سيارة أجرة من أبوظبي إلى الشارقة . لم يشأ أن يرافقه لجفاء بينه وبين زوج شقيقته لم يعرف له والده سببًا وإن لم يستغربه . حضنته سمر بشوق . نادت على الأولاد ليقبلوا جدّهم ، فقبلوه بسرعة وعادوا إلى المسلسل الكرتوني في التلفزيون . قالت له إن باسل دخل قطاع الأعمال في دبي وإنه لم يعد يرتدي الجينز والحذاء الرياضي . ضحكتْ وخالته سيغتبط لهذا التطور . لكنه طيلة الوقت كان يتابع المرأة التي أمامه التي بعدتْ كثيرًا عن طفلته . قالت له إن باسل يكسب كثيرًا الآن . «لقد استأجر شقة في أحد أبراج دبي وسوف ننتقل إليها قريبًا» ، بذلت جهدًا استثنائيًا كي تمنح صوتها رنة فرح . لكنها توقفت عن اصطناع الفرح ، وقالت :

- باسل يخونني .

لم يسألها كيف يخونها أو كيف عرفتْ أنه يخونها ، أو متى أو لماذا أو مع من . لم يسألها متى يعود باسل من عمله . لم يكن معنيًا بلقائه ومعاتبته . لم يكن معنيًا بتوجيه لكمة له في فمه ليحرمه لبعض الوقت من ابتسامته التهكمية . طلب منها أن تعود معه إلى بيتها في الزرقاء ، إلى غرفتها ، إلى سريرها ، وإلى سريره . تستطيع أن تأخذ معها بالطبع الأولاد . سيكبرون معها ومعه . ما زالت صغيرة . تستطيع أن تبدأ كل شيء ، كلّ الحياة ، من الأول . عليها أن تفقد ما تراكم في جسدها من شحم زواجها البائس . تستطيع أن تعمل . ببكالوريوس الكيمياء الذي تحمله من جامعة الكويت ، لن تجد صعوبة في العثور على وظيفة . ثم أشار إلى شعرها الطويل الذي عقدته إلى الوراء ، قائلاً : «وعليك أن تقصّي هذه الزوائد البشعة .»

على الصوفا في غرفة المعيشة في بيته في الزرقاء، الذي بناه من فلوس الكويت القليلة على دفعات، جلس يتابع تطوّر أحداث صورته على شاشة التلفاز المطفأ. كانت سمر قد رجته أن يقضي بضعة أيام عندها، لكنه أصرّ على العودة إلى أبوظبي في الليلة نفسها دون أن يلتقي باسل. سأله فراس مرة أخرى عما دار بينه وبين سمر، فقال بصوت يخاطب به نفسه الحزينة، نفسه الجالسة على مقعد غير مريح في داخله، في بيت ليس بيته: «عليّ أن أعود.» كان قد أمضى عشرة أيام في أبوظبي مع فراس وصحبه. حاول فراس، غير جادّ، أن يثنيه عن قرار العودة السريعة، لكنه كان عازمًا على ذلك.

في شاشة التلفزيون المظلمة إلا من انعكاس طفيف للأشياء، وفي زاوية بعيدة من صورة العجوز المضجر أمامه، لمح طفلاً يستحمّ في اللجن مع كوثر. سمحت له كوثر بأنْ يفرك ثدييها بالليفة ثم ضحكتْ بصوت عالٍ جدًا اضطر معه أن يخفض صوت التلفاز. شاهد رجلاً فتيًا، شديد الشبه به قبل أربعين عامًا، يقبل فريال من شفتيها المشبعتين بالحياة. كان على وشك أن ينزع عنها ملابسها حين انتقل إلى قناة أخرى. وقفت سمر في القناة الأخرى بشعر قصير، تلحس الآيس كريم الذي يسيح على ملابسها. قالت له:

- لكنّني أحبّه!

ذوى في الشاشة المطفأة. بَهُتَ تدريجيًا. فتح عينيه يريد الإمساك بالعجوز الذي يتسرب منه. كان انعكاسه قد تبدّد تمامًا.

خاتمة

أخرج عمر الجزيرة من صمتها . رفع درجة الصوت . الدنيا في الشاشة كانت ليلاً . وقف الجنرال كريستيان إستربو خارج بوابة مستشفى بيرسي العسكري في ضاحية كلامار الباريسية . ألقى بيانًا ، شديد الإيجاز والاقتضاب ، عن حالة ياسر عرفات الصحية ، لم يبدُ معه ما إذا كان صادقًا ، عارفًا بالوضع على حقيقته ، كمصدر مطّلع ، شاعرًا بحرج ، متفهمًا أو حتى متعاطفًا .

أرجع عمر «الجزيرة» إلى وضعية الصمت . عادت الوجوه ، التي استوطنتْ مشاعرها كنبات الصالون ، إلى ممارسة غاياتها وأهوائها الأولى .

بين وقت وآخر ، كان إياد يتفقّد موبايله . أوشكتْ الليلة أن تنتهي دون أن يطنّ . لم يتّخذ وجهه أي وجوه ، من أي شكل أو لون . رفع بصره عن شاشة الموبايل ، فالتقى وجه فراس الذي خاض في ليل «الجزيرة» الأبكم .

كان فراس قد عاد من الأردن قبل أيام . أمضى أسبوعين هناك ، دفن خلالهما والده رمزي وعرض بيتهم في الزرقاء للبيع وأجّل زواجه بأماني . أقام له كمال عزاء آخر في أبوظبي ، ففتح صالونه للمعزّين ، من زملاء ومعارف قليلين .

تعلّق بصر عمر برفاق الصورة، بالأبيض والأسود. بدا متعجبًا من أمر لا علاقة له بالصورة، وهو أنه منذ زمن لم يعد يحلم أحلامه الخاصة به. أقر لإياد وفراس أنه ينام، فيعيد تدوير أحلام الآخرين، أو قد يحلم بها، كما هي، ببساطة، دون حذف أو إضافة أو تعديل. في بعض المنامات، قد يتداخل حلمان أو أكثر من رسائل مختلفة. لكن المحصلة ليست حلمه الشخصي.

دخل كمال عليهم بصينية الشاي، فوجد عيونهم على رفاق الصورة، بالأبيض والأسود. أراد أن يعترف لهم أنه ليس أحد رفاق الصورة، وأنه لم يكن يومًا معهم. عندما انتقل إلى الشقة قبل ثلاث سنوات، وقعتْ ختام على الصورة بإطارها في أحد أدراج خزانة الحائط في غرفة النوم. خمّن أنّ صاحبها نسيها. انتظر أن يدقّ عليه الباب في أي يوم، يطلبها منه، لكنه لم يأت. فاحتفظ بها على التلفزيون، ليسرّي عن الرفاق بدلاً من وحدتهم في وحشة الخزانة، صانعًا معهم مع الوقت بعض الذكريات، غير معني على الإطلاق بالخلاصة التي انتهت إليها ختام وهي أنه جُنّ.

نظر إليه إياد، بعينين لمعتا من يقين الظفر. أشار بإصبعه إلى الرجل الأول في يسار الصورة، قائلاً: «لقد عرفتك. هذا هو أنت.»

وضع كمال صينية الشاي على الطاولة، عينه على صور «الجزيرة» البكماء. سألهم:

- مات أبو عمار؟

ردّ فراس:

- ليس بعد.

R O O T   O F   P A S S I O N





أصلُ الهوى

إنَّ الرواية معنيّة بالإلحاح على المشاهد الجنسيّة، رغم معرفتها أنَّ الجنس هو أبرز المحرّمات وأكثرها تعرّضًا للكبت والمطاردة والقمع فعلاً داخل المجتمع، وأهمّها تأثيرًا في خلق الفوارق بين الرجل والمرأة، وفي العمل على استمرار سيادة الذكورة، المكتسبة تاريخيًا، على الأنوثة. وهي تفعل ذلك من أجل كسر هذا التابو بقوّة الإلحاح التي تحيل المشهد الجنسيّ إلى ممارسة طبيعيّة إنسانيّة، وتليق بالإنسان.

◆ وليد أبو بكر

(أصل الهوى) هي رواية عن الرجال العاشقين، لا يمكن أن تكتبها إلاّ امرأة عرفتهم، وأغرمت بهم، وهجست بأحلامهم، واقتربت منهم، وبكت لهزائمهم، وتعذّبت على أيديهم. لكنّها أيضًا رواية النساء القويّات المتغلغلات في كلّ مفاصل الحياة، والحاضرات بقوّة في كلّ الفصول والتقلّبات.

◆ إنعام كجه جي

الرجل، بين يدي حزامة حبايب، عارٍ تمامًا في هذه الرواية، عاجز، مسكين مفضوح، قليل الفائدة. ومع هذا لا يمكن الاستغناء عنه. واللغة، في هذه الرواية، ليست لغة استعماليّة على الإطلاق، أي إنّها ليست مجرّد وسيلة للوصف والرصد والسرد وكفى، وإنّما هي أسلاك خفيّة تنقل الارتعاشة والشهقة والرغبة والنشوة كما هي، وتسري فيها خيوط من القلق والخوف والصغائر والضغائن والنكايات وجميع عناصر العيش البشريّ.

◆ صقر أبو فخر





ISBN 978-9953-36-955-0

